UNIVERSAL
LIBRARY

الشخصيات البارزة

التاريخية

بقلم

أحمد فريد رفاعي

الجزء الأول

الطبعة الأولى

١٣٥٢ هـ — ١٩٣٤ م

يطلب من

مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء الكتاب

« أَىْ شَبَابَنَا النَّاهِضِين :

« إِلىٰ قُدْسِيَّةِ وَاجِبِكُمْ الْوَطَنِىِّ ، وَفَرْضِكُمْ الْقَوْمِىِّ ، وَقَلْبِكُم المِصْرِىِّ ، يُهْدِى إِلَيكُم شَرِيكٌ لَكُم فى أَعْبَاءِ هٰذا الْوَطَنِ وَأَرْزَائِهِ ، وَيُمْنِهِ وَعَنَائِهِ ، أَثَرًا مِنْ عُصَارَةِ فُؤَادِهِ ، وَقَطْرَةً مِنْ مُتَّقَدِ دِمَائِهِ ، وَصُورَةً حَيَّةً مِنْ أَعْمَالِ فَرِيقٍ مِنْ أَصْحَابِ الشَّخْصِيَّاتِ البَّارِزَةِ ، أُولٰئِكَ الأَوْفِيَاءِ لِأَوْطَانِهِم ، الْخَالِدُونَ بِأَعْمَالِهِم ، المُؤَيَّدُونَ بِإِيمَانِهِم ، المُسْتَمْسِكُونَ بِمَبَادِئِهِم ، الْوَضَّاؤُونَ فى حُرُوفٍ مِنْ نُورٍ وَفَخَارٍ لِحُسْنِ بَلَائِهِم وَجَلِيلِ فَعَالِهِم .

« وَإِلىٰ أَرْوَاحِ زُعَمَاءِ مِصْرَ النَّاهِضَةِ « سَعْدٍ » « وَثَرْوَتٍ » « وَرُشْدِىٍّ » اعْتِرَافًا بِمَا لَهُمْ فى أَعْنَاقِنَا مِنْ دَيْنٍ عَظِيمٍ وَدَرْسٍ ثَمِينٍ وَفَضْلٍ جَسِيمٍ ، فَلِسَعْدٍ صَلَابَتُهُ وَإِبَاؤُهُ ، وَوَطَنِيَّتُهُ وَوَفَاؤُهُ ، وَحَزَامَتُهُ وَذَكَاؤُهُ ، وَنَصَفَتُهُ وَقَضَاؤُهُ . وَلِثَرْوَتَ حُنْكَتُهُ وَبَلَاؤُهُ ، وَلَبَاقَتُهُ وَدَهَاؤُهُ ، وَدِقَّتُهُ وَغَنَاؤُهُ ، وَاتِّئَادُهُ وَمَضَاؤُهُ . وَلِرُشْدِىٍّ تَضْحِيَّتُهُ وَنُكْرَانُهُ ، وَتَوَاضُعُهُ وَإِيمَانُهُ ، وَعِلْمُهُ وَعِرْفَانُهُ ، وَحُجَّتُهُ وَبُرْهَانُهُ .

« وَإِلىٰ مَثَلِنَا الأَعْلىٰ فى التَّضْحِيَةِ وَالْجِهَادِ ، وَقَائِدِنَا الْحَكِيم فى الكِفَاحِ وَالْجِلَادِ ، مَنْ تَبوَّأَ حَبَّاتِ الْقُلُوبِ وَعُصَارَةَ الْأَفْئِدَةِ لمَا أَفَاءَ اللهُ عَلَيْهِ مِنْ بَدَاهَةِ رَجَاحَةٍ ، وَتَدَفُّقِ فَصَاحَةٍ ، وَجُرْأَةِ صَرَاحَةٍ ، فى اسْتِجْمَامِ خَاطِرٍ ، وَمُرْهَفِ عَزْمَةٍ ، مَعَ قُوَّةِ جَاذِبِيَّةٍ وَمُضْطَرَمِ حَمَاسٍ ، وَإِخْلَاصٍ صَحِيحٍ لِلّٰهِ وَالْوَطَنِ وَالنَّاسِ ، فى حَزَامَةٍ وَسِيَاسَةٍ ، وَحِكْمَةٍ وَكِيَاسَةٍ ، وَتَوَاضُعٍ وَرِيَاسَةٍ ، مَعَ وَرَعٍ وَتُقىٰ ، وَأَدَبٍ وَحِجىٰ ، حَضْرَةِ صَاحِبِ الدَّوْلَةِ الرَّئِيسِ الأَمِينِ « مصطفى باشا النحاس » ، مَدَّ اللهُ فى أَجَلِهِ الْغَالى ، فَشَدَّ مَا يَحْتَاجُ الْوَطَنُ إِلَى سَدِيدِ جُهُودِهِ ، وَجَعَلَنَا فى رِضَاءٍ وَاغْتِبَاطِ الفِدَاءِ الْمَقْبُولَ لِمَجِيدِ وُجُودِهِ .

« فَإِلىٰ هَؤُلَاءِ جَمِيعًا ، أُهْدِى هَذَا الأَثَرَ الضَّئِيلَ ، فَهُمْ عَلِمَ اللهُ وَالْحَقُّ وَالْوَاقِعُ ، كَعْبَةُ آمَالِنَا ، وَمَوْئِلُ تَمْجِيدِنَا ، وَقُدْوَةُ احْتِذَائِنَا »

المؤلف

احمد فريد رفاعى

القاهرة فى ١٥ مارس سنة ١٩٣١



مصطفى باشا النحاس



سـعد باشا زغلول



حسين باشا رشدى



عبد الخالق باشا ثروت

مقدمة الكتاب

بقلم وزير الشباب المجاهد الكبير والعبقرى النابه الأستاذ

مكرم عبيد

تَفَضَّلَ صديقى المؤرخُ المحقق الدكتور « أحمد فريد رفاعى » فَطَلَبَ إِلَىَّ أن أُمهِّدَ لكتابِهِ « الشخصيات البارزة » بكلمة . وإنى إِذْ أقدِّمُ الكتابَ إِلى جمهورِ القرَّاءِ لا أدّعى تقديمِ الكاتبِ إِليهم ، ففى تعريفِ الناسِ بكاتبٍ معروفٍ تَصْغِيرٌ من شأنهِ ، كما أن الإِشادةَ بفضلِهِ ، على صفحات كتابٍ من وَضْعِهِ ، قد تُشَوِّهُ من جمالِ التواضعِ فى خُلُقِهِ ، وَجَمالِ البَسَاطَةِ فى فَنِّهِ !

الكتاب الضرورى

هذا عن الكاتبِ ، أما الكِتَابُ فلا تَحَرُّجَ ولا تَحَفُّظَ لَدَيْنَا فى الإِشادةِ بقيمَتِهِ ، بَلْ وَبِضَرُورَتِهِ ، وَلَعَلَّ خَيْرَ مَدِيحٍ يُزَجَّى إِلى كِتابٍ هو أَنْ يُوصَفَ بِأَنَّهُ كِتَابٌ ضَرُورِيٌّ ، إِذْ لا يكفى فى الكتاب أن نَسْتَمِدَّ مِنْ فَصَاحَتِهِ مُتْعَةً ، أو مِنْ دِرَاسَتِهِ فِكْرَةً ، بل أَحْسَنُ الكتب وأبقاها أثراً هو الذى يَسُدَّ بوجوده حاجةً أو ضَرورة . . . . . .

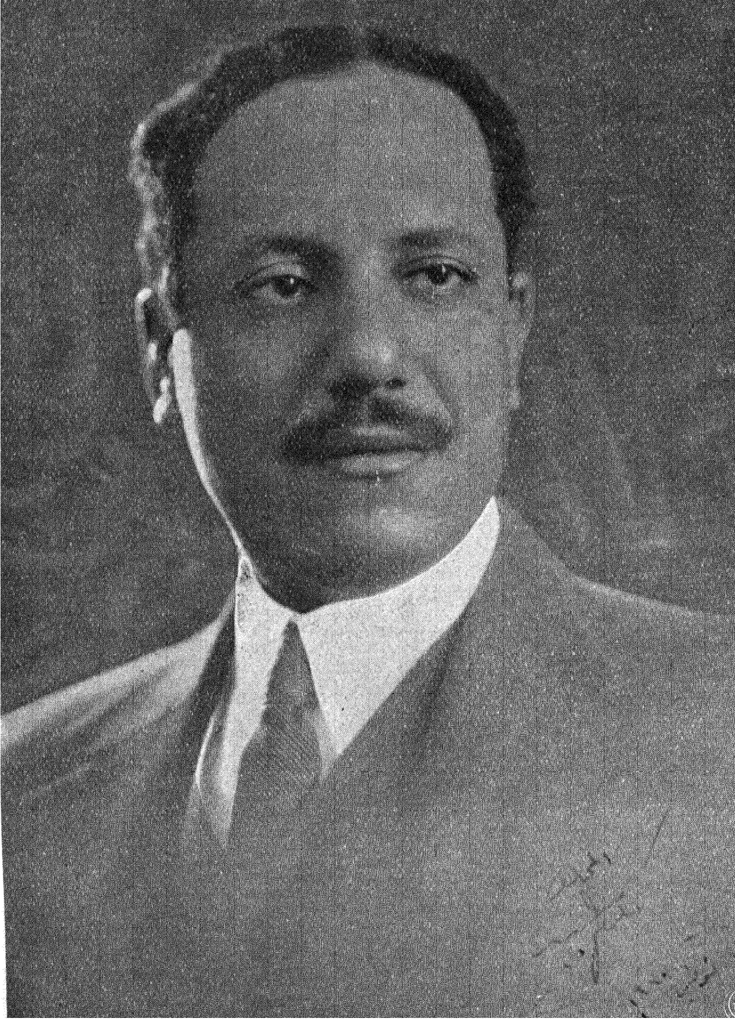
ولا ريب أن « كتاب الشخصيات البارزة » — وكل كِتَابٍ عَلَى نَمَطِهِ تَدْرَسَ فيه الحياةُ فى أشخاصِ الْمُمْتَازِينَ مِنَ الْأَحْيَاءِ — إِنَّمَا هُوَ كِتَابٌ ضَرُورِيٌّ . بل هو أَلْزَمُ ما يكونُ لأُمَّةٍ ناشِئَةٍ كأمتنا ، شَعَرَتْ بِكَامِنِ شخصيتها ، فما أن شَعَرَتْ

بها حتى وَجَدَتْها ، وما أن وجدتها حتى برزت بها ، فَعَلَّمَتْ العالم أن يحترمها : وكانت منذ فجر التاريخ قد عَلَّمت المجد أن يخدمها ! . . .

دراسة الشخصيات البارزة

والواقع أن لدراسة « الشخصيات البارزة » أكْبَرَ الْأَثَرِ فى تَرْبِيَةِ الشخصيةِ ولو أنها لاتنشئها ، فهى تُنَمِّى الشخصياتِ الناشِئَةَ ، وَتبْرُزُ الشخصياتِ الكامنة ، ولذلك قُلْنا أن هذه الدراسة ضَرُوريةٌ لِكُلِّ أمةٍ ذاتِ مَطْمَحٍ فى الوجود ، تَشْتَقُ من شخصياتِ أبنائها شخصيةً لها ، وهى ضَرُوريةٌ لنا نحن المصريين من بابِ أَوْلىٰ ، لأنَّ سِيَرَ العظماءِ والبارزين لا تُدْرَسُ فى مدارسنا إِلَّا بطريقةٍ عَرَضِيَّةٍ ضِمْنَ دِرَاسَةِ التَّاريخ ، ومن المُحْزِنِ أننا ونحن أَغْنَى أُمَّةٍ فى التاريخ نَدْرسُ التاريخَ دراسةً جَامِدَةً لا رُوحَ فيها ولا حياةَ ، فتراهُ يُدْرَسُ فى مدارسنا من ناحيةِ الحوادثِ ، لا من ناحيةِ الأحياء الذين يَنْفُخُون فى الحوادث رُوحًا من رُوحهم . . . . . .

لذلك كانت غبطتى عظيمةً بهذه الْخُطْوَةُ الأولىٰ التى خطاها حضرةُ المؤلِفِ المِفْضَالِ ، وهى خطوةٌ وَاسِعَةٌ ولا رَيْبَ ، لأنه ضمّن كتابه بُحوثاً مُسْتَفِيضَةً ، تَدُورُ كُلُّها حَوْل العَبْقَرِيَّةِ ، والبُطُولَةِ ، والعِصَامِيَّةِ ، والبُرُوزِ فى الحياة ، وضَرَبَ لهذه المعانى الساميةِ أمثلةً عمليةً من سِيَرِ العبقريين ، والعِصَامِيِّين ، والبارزين ، من أمثال أبى بكر الصديق وعمر بن الخطاب من خِيرةِ عظماء الشرق والإنسانية جمعاء . « وبسمرك » « وتوسان » « وبوكر وشنجتن » « وفورد » من أفذاذ الغرب تجمع فى صعيدٍ واحدٍ شخصياتَ بَرَزَتْ فى ميادينِ الحياةِ المختلفةِ ، من العِلم ، إلى السياسةِ ، إلى الأدبِ ، إلى المالِ ، وكان فى ذلك متمشياً مع طبيعةِ العبقريةِ ، فهى واحدةٌ فى جَوْهَرِها ، مهما تَعَدَّدَتْ مَظَاهِرُها .



وليم مكرم عبيد

ويا حبذا لو تَضَمَّنَتِ الأجزاءُ التاليةُ من الـكتابِ تحليلَ الشخصياتِ البارزةِ
ى مجتمعنا وفى تاريخنَا المصِرىِّ ، فتتمُّ بذلك الفائدةُ للقارِئِ المصْرِىِّ ، بل وللقرَّاءِ
على اختلافِ أجناسِهم ، فليس للعبقريةِ وطنٌ بل هى ملكٌ مُشاعٌ لبنى الإِنسان .



ما هى الشخصية

ولـكنْ ما هِىَ الشخصيةُ البارزَةُ التى عُنِىَ هذا الـكتابُ بِسَرْدِ الْأَمْثِلَةِ عليها ؟
أو على الأصَحِّ ما هى الشخصيةُ مُجَرَّدَةً من كلِّ نَعْتٍ ، لأن الشخصية تَسْتَتْبِـعُ
البروزَ حتماً ، ولو أن مدى البُرُوزِ ، أمرٌ نِسْبِىٌّ يرجع إلى محض التقدير ؟

ما هى إذن الشخصيةُ أو الـ Personality كما يسمونها ؟ وما هى عَنَاصِرُ
تكوينها ، وما هى أوضاعُهَا ومقاييسُهَا ؟

تلك مَسَائِلُ قد لا يُتَاحُ لِبَاحِثٍ أن يبلغَ أعْماقَها ، أو يُلِمَّ بأطرافها ، وفى
اعتقادى أَنَّهُ ليس فى متناولِ بَشَرٍ أن يُحَلِّل الشَّخْصِيَّةَ إلى عناصِرِها الأولىٰ ،
لأن عِلَّةَ الشخصية تَرْجِعُ إلى عِلَّةِ الوجود . . . . . .

ولـكن إذا لم يكن فى مَقْدُورِنَا أَنْ نُعَلِّلَ ، ففى استطاعَتِنَا أن نَرى ونُسَجِّلَ ،
وإذا اسْتَعْصىٰ تحليلُ الْجَوْهَرِ ، فليس أقلَ من وصفِ المظهر . . . .

والواقِعُ والمشاهِدُ أن الشخصية تُولَدُ مع صاحبها ولا تُـكْتَسَبُ ، . . . نعم إنَّ
التربيةَ أو الحوادثَ الخارجية قد تبرزها وتنميها ، ولـكن الطبيعةَ هى الأصلُ فيها .

« الشَخْصِيَةُ » ، « البُطُولَةُ » ، « الزَعَامَةُ » ، « النُبُوغُ » ، « العَبْقَرِيَّةُ » ،
« العَظَمَةُ » ، — كلٌّ هذه الصفاتِ على اختلافِ درجاتها مَجْهُولَةٌ ماهيتها ،
فهى سِرٌّ إلهىٌّ مستودعُهُ أعماقُ النفوسِ ، مَثَلُها مَثَلُ شُعَاعٍ من نُورٍ ، تراه فَيبهركـ ،
فإذا حاولتَ إدراكَ كُنْهِهِ حيَّرَكَ ! . . . .

الزعامة والتزعم

كلُ شىءٍ فى الحياةِ يُقبَلَ تقليداً إلّا الشخصية ، فهى توجد ولا تُقلّدُ ، وفوق ذلك فإنَّ الشخصيةَ فى أبسط معانيها لا تكونُ شخصيةً إذا لم تكن من خصائِص الشخص ، فإذا حاول شخصٌ أن يُقلّدَ عَظيماً لم يكن له من العَظَمَةِ إلّا التعاظُمَ ، أو أن يحاكِى زَعِيماً لم يكن له من الزعَامَةِ إلّا التزَعُّمَ ! . . . . والزعَامَةُ والتَّزَعُّمُ شيئان ، بل وضدان !

وَيجْدُرُ بنا فى هذا الصَدَدِ أن نُفرِّقَ بين الشخصياتِ البارزَةِ والأشخاص البارزين ، فالأشخاصُ البارزُونَ قد لا يكونونَ من ذوى الشخصيةِ ، وانما بَرَزُوا فى الحياةِ بِفَضْلِ ظُرُوفٍ مؤاتيةٍ ، أو حَوادِثَ طارئةٍ ، كسياسةٍ ، أو مَنْصَبٍ ، أو مَالٍ أو جَاهٍ — أمثالُ هؤلاءِ لا يَخْتَلِفُون عن الأشخاصِ العاديين إلّا أَنَّ ظَرْفًا مؤاتيا قد ارتفع بهم عن الْمُسْتَوى العادِىّ حينا فَبَرَزُوا إلى الناس بمناصبهم أو بجاهِهِم ، فإذا ما زال المَنْصَبُ أو الْجَاهُ رَجَعُوا إلى حيث كانوا ، مَثَلُهم مثلُ الفَقَاقِيعِ تَطْفُو عَلَى وَجْهِ الماءِ زَمَنًا ثم لا تَلْبَثُ أن يَبْتَلِعَهَا الغَمْرُ ! . . .

أولئك الذين يَبْرُزُونَ بالمناصِبِ ولا يَبْرُزُ بهم مَنْصَبٌ ، وَيَعْتَزُّونَ بسُلْطَانهم ولا يَعْتَزَّ بهم سلطان . . . أولئكَ هُمْ ابْنَاءِ يَوْمِهِم ، لا يَتْرُكون فى التاريخِ أَثَرًا ، ولا يَخْلُفُون للانسانِيَّةِ ذِكْرًا .

أما « الشَخْصِيَّاتُ البَارزَةُ » التى عُنِّيَ هذا الكتابُ القيِّمُ بدِرَاسَةِ كثيرٍ من النَّواحى فيها ، فَهِيَ وَحْدَهَا الْخَالِدَةُ على الدهر ، وَهِيَ الجديرةُ بالدرسِ والاعتبارِ لأنَّ فى حَياةِ العُظَماءِ من بنى الإنسانِ المَثَلَ الأعلى لحياة الإنسان . . .

مكرم عبيد

مصر فى ٢٠ مايو سنة ١٩٣٣

مقـــدمة

بقـــلم الدكتور طـه حسين

أَيُّهما يُغْرِى بِصَاحِبه ، وَيَسْعى إِليه ، وَيُلِحُّ عليه حتى يَضْطَرَّه إلى إطالةِ الوقوف عنْدَه ، وإِنْعَامِ العِنَايةِ بِهِ والتَّفْكِيرِ فيه . أَهُوَ الموضُوعُ الأدَبى ، أم هوَ الأدِيب ؟ وبعبارةٍ واضِحَةٍ جَلِيَّةٍ قَرِيبَةٍ إلى التّعْيِين والتّخْصِيص ، أَيُّهما سَعَى إلى صاحبه وَأَغْرَى به . أَهُوَ موضُوعُ هذا الكتَاب قد سَعَى إلى المُؤَلِّف ، وما زَالَ يَلِمُّ به إذا أَصْبَحَ ، وَيَطْرُقُه إذا أَمْسَى ، حتى اضْطَرَّه إلى أن يَنْظُرَ فيه ثم يدرسَه ، ثم يَتَمثّلَهُ ، ثم يَتَّخِذه موضُوعًا لهذا الكتاب ؟ أم هُوَ المؤَلِّفُ قد بَحَثَ وَفَتَّشَ والتمَسَ وَنَقَّبَ وأَخَذَ يَسْأَلُ الكُتُبَ والأسْفارَ ، ويستَشِيرُ الحوادِثَ والخُطُوبَ عن موضُوع يُنْفِقُ فى تَصَوُّره ثم تَصْوِيره فَضْلَ ما عِنْدَهُ من قُوَّةٍ ونَشَاطٍ ووقْتٍ وَفَرَاغِ بالٍ . أَلْقِ على المُؤَلِّف نَفْسَه هذا السُّؤَال ، فلن تَظْفِرَ منهُ بجَوابٍ ، لأنه لا يعرفُ ، أَطَرَقَ الموضُوعَ ، أم طَرَقَهُ الموضوعُ ؟ وأَكْبَرُ الظَنِّ أن كلاًّ من الكاتبِ والكِتَابِ قد سَعَى إلى صاحبِه وابْتَغَى إليه الوسيلَةَ ، والتمسَ إليه الأسْبَابَ .

فأما الشخصياتُ البَارِزَةُ ، فهى تَسْعَى إلى النا سِ جَمِيعًا وَتَكْلَفُ بهم جَمِيعًا وتَعرضُ لهم جَمِيعًا ، وَتَفْرِضُ نَفْسَها عليهم فرضًا . فيهـا من القُوَّةِ والكفايَةِ والخِصْبِ والنَّشَاطِ ما يُخْرِجُها عن أنْفُسِها ، ويَعْدُو بها أَطْوَارَها وَيَتَجَاوَزُ بها بِيئَاتِهَا وأَجْيَالَها وأَزْمَانَها ويُشَيِّعُها فى كُلِّ البِيئَاتِ ويَجْعَلُها مَثَلًا لِكُلِّ الأجْيَال

وَزِينَةً لِكُلِّ الأزْمَان . فهي إذن تَتَراءى لنا كُلَّما سَنَحَتْ لها الفرصة أن تَظْهرَ ، وكلَّما سَنَحَتْ لنا الفرصةُ أن نَرَى . هذه الشَّخْصِيَّةُ مُمْتَازَةٌ بالشَّجَاعَةِ ، فهي تَتَراءى للشُّجْعَان جَمِيعًا ، ولَعَلَّها تَتَرَاءى للجُبَنَاءِ أَيْضًا . وهذه الشَّخْصِيَّةُ تَمْتَازُ بالذَّكَاءِ فهي تَتَرَاءى للأَذْكِيَاءِ ، ولعَلَّها تَتَرَاءى للأَغْبِيَاءِ أَيْضًا . وهذه الشَّخْصِيَّةُ مُمْتَازَةٌ بالرَّحْمَةِ والبرِّ والعَطْفِ على البَائِسِين فهي تَتَرَاءى للرُّحَمَاءِ الأَبْرَار ، ولَعَلَّها تَتَرَاءى لِلْقُسَاةِ وَغُلَاظِ القُلُوب . تَخْتَلِفُ البِيئاتُ ، وتَتَبَايَنُ الأَجْيَالُ ، وتَتَبَاعَدُ الأَزْمِنَةُ ، وَشَخْصِيَّةُ الإِسْكَنْدَر ، وَقَيْصَر ، وأبي بكر وعُمَر مُشْرِقَةٌ كَالشَّمسِ تُضِيءُ لِلنَّاسِ سُبُلَ الْحَرْبِ والسِّيَاسَةِ والرَّحْمَةِ والإِصْلاح .

فليس من كاتِبٍ يَتَنَاوَلُ الشَّخْصِيَّاتُ البَارِزَةُ إِلَّا وقد سَعَتْ إليه هذه الشَّخْصِيَّاتُ وفرضَتْ نَفْسَها عَليه ، واضْطَرَّتْه إلى أن يُطِيلَ الْحَدِيثَ إِليها ، ثم يُطِيلَ الْحَدِيثَ عنها . وأما صَدِيقُنَا فريد ، فليس من شَكٍّ في أنَّه قد سَعَى إِلى مَوْضُوعِهِ سَعْيًا ، وَعَدَا إِليه عدوًا ، وما زَال هو يَسْعَى إِلى مَوْضُوعِه ، ومَوْضُوعُهُ يَسْعَى إِليه حتى التَقَيَا فَتَعَارَفَا ، ثم ائْتَلَفَا ، ثم امْتَزَجَا ، ثم نَشَأَ من امْتِزَاجِهِمَا هذا السِّفْرُ الصَّغِيرُ المُمْتِع الذى يَسُرُّنِى أن أُقَدِّمَهُ إِلى القُرَّاء .

فَصَدِيقُنَا فريد ، كما عرفْتُهُ منذُ أكْثَرَ من عشرين عَامًا ، طلَعَةٌ كَثِيرُ البَحْثِ والتَّنْقِيبِ ، مَشْغُوفٌ بالقِرَاءَةِ ، يُنْفِقُ فيها أَوْقَاتَ فَرَاغِه كُلَّها ، وَيَخْتَلِسُ لها من أوْقَاتِ عَمَلِهِ الخاصِّ ما وَجَد إلى اخْتِلَاسِه سَبِيلًا . ولَقَد تَبْلُغُ به الفِتْنَةُ بالقِرَاءَةِ والرَّغْبَةِ فيها أن يَأْرَقَ لهَا الليلَ واللَّيَالى فَيَحْسَبُ نَفْسَهُ مَرِيضًا ، وَما هو بالْمَرِيض ، وإنما هو حُبُّ القِرَاءَةِ مَلَكَ عليه أَعْصَابَه ومَزَاجَه ، وخُيِّل إِليه أنه مُتْعَبٌ ، وأنه ضَيِّقُ الصَّدْرِ مَحْزُونُ القَلْبِ ، وأنه في حَاجَةٍ إِلى أن يُسَلِّى عن

نَفْسِه هَمًّا ، وَيُجْلِي عنها كَرْبَها . وأى شَىْءٍ أَعْوَنُ على تَسْلِيَةِ الهَمِّ وَتَجْلِيَةِ الكَرْبِ من اصْطِحَابِ الكِتَابِ . ومن يَدْرِى لعَلَّ صَدِيقَنا أن يكون مريضاً حقًّا ، وأن تكون عِلّتُه المُضْنِيَةُ ، إنما هى حُبُّ الكِتاب . ومهما يكن من شىء ، فصديقُنا يُطِيلُ صُحْبَةَ الكُتُبِ ، وَيَتَنَقَّلُ بينها تَنَقُّلا غَرِيبًا ، ويَشْغَفُ منها بما يُثِيرُ العَجَبَ ، ويَدْعُو إلى التّفْكِيرِ ، واسْتِخْرَاجِ الموعِظَةِ والعِبْرَةِ ، ويَشْغُفُه منها بِنَوْعٍ خاص ما يَدْعُوه إلى التّفْكِيرِ فى حَيَاته وفى حَياةِ النّاسِ من حَوْلِهِ ، وفى الظُّرُوفِ التى تَحِيطُ به وبمُعاصِرِيه .

والشخصياتُ البارزةُ فى عُصُورِ التّارِيخِ على اخْتِلَافِها ، أشَدُّها تَشْتَمِل عليه الكُتُبُ ملاءمَةً . وأحْسَنُها مُوافقَةً لهذا المِزَاجِ ، ولهذا النَّحْوَ من حُبِّ الاسْتِطْلَاعِ . لهذا عَرِفْتُ صَدِيقَنا فَرِيدًا ، منذ أكثر من عشرين سنة ، شَابًّا نَشِيطًا ذَكِيًّا كَلِفًا بِقِرَاءة ما كُتِبَ عن حَياةِ الرجال على اخْتِلَافِ هذه الْحَياةِ وأنْحائِها . وما كُتِبَ عن حَياةِ الأبْطَالِ خَاصَّةً . وإذا لم تَكْذِبْنِى الذّاكِرَة ، فقد كان كتابُ كَارْلَيْل . من أشَدّ الكتبِ تأثِيرًا فى نَفْسِه النّاشِئَةِ الطّامِحَةِ إلى الرُّقِىّ والكمال .

ثم تركْتُه فى القَاهِرة ، وذَهَبْتُ إلى فَرَنْسَا ، فأقَمْتُ فيها خَمْسَةَ أعْوام ، وانْقَطَعَتْ أو كادت تَنْقَطِعُ عنى أنْباؤهُ ، فلما عُدْتُ إلى مصرَ رأيْتُه كما تركْتُه مَشْغُوفًا بالقِرَاءَةِ ، وبقِرَاءَةِ ما يُكْتَبُ عن حَياةِ العُظَماء ، ولكن الأمَدَ كان قد بَعُدَ بَيْنَه وبينَ كَارلَيْل ، وكتاب كَارلَيْل ، وإذا هو يَلْتَمِسُ حياةَ العُظَماءِ فى كُلِّ كتابٍ ، وَيَبْحَثُ عنها فى كُلِّ جيلٍ . يَقْرَأُ ما كَتَبَهُ القُدَمَاءُ ، وما كَتَبَهُ

المحْدَثُون عن عُظَماءِ اليُونَان والرُّومَان والعَرَبِ ، وزُعَمَاءِ التَّفْكِيرِ والعَمَلِ فى العَصْرِ الحديث .

يَقْرَا ذلك وَيَتَحَدَّثُ به ، ويُطِيلُ الحديثَ حتى يُخَيِّلُ إلى الذين يَلْقَوْنَه ويَسْمَعُون له أنه قَاصٌّ يَتَنَقَّل بالقِصَص، أو مُؤَرِّخٌ يَتَنَقَّل بالتَّاريخ . وكَانَ الطريفُ من أَمْرِه ، أنَّه لم يكن يُخْلِصُ لِلْقَصَصِ ولا للتَّاريخ ، وإنما كَانَ يَبْدَأُ الحديثَ فى قِصَّةٍ ، أو نَبأ من الأَنْبَاء ، ثم لا يَلْبَثُ أن يَسْتَطْرِدَ منه إلى ما يَقَعُ فى حيَاتِنَا من الأَحْدَاثِ والْخُطُوبِ ، فَيُقَارِنُ ويُوَازِنُ ، ويَلْتَمِسُ أَوْجُهَ الشَّبَهِ بينما يَرْوى وَمَا يرَى . ثم يَعُودُ إلى قِصَّتِه أو نَبأه ، ثم يَنْتَقِلُ منهما إلى قِصَّةٍ أخرى أو نَبأ آخَر ، ثم يعود إلى ما نَحْنُ فيه من حَيَاةٍ ، ثم يَتْرُكُكَ وقد عنَاكَ وأضْنَاكَ وأثَارَ فى رأْسِكَ شَيْئاً يُشْبِهُ الدَّوَارَ لِكَثْرَةِ ما دَارَ بك فى سُرْعَةٍ مُدْهِشَةٍ بين الماضى والحاضر والمسْتَقْبل ، ولكثرة ما رَوَى لكَ من الأَحْدَاثِ ، واسْتَخْرَجَ لك من العِبَر ، واسْتَنْبَطَ لك من فُنُون التَّشْبِيه بينما كان وما هو كائن وما لا بد من أن يكون .

وكذلك امْتَلأَتْ نَفْسُ صَدِيقَنَا بهذه الشَّخْصِيَّات البارزة فى جميع العصُورِ والبيئَات ، فلم أُدْهَش حين أقبَلَ عَلَيّ ذَاتَ يومٍ يَحْمِلُ إليّ كِتَابَه هذا الذى يَتَحَدَّثُ فيه عن بعض الشَّخْصِيَّاتِ البَارِزَةِ ، وإنما دُهِشْتُ لأنه انْتَظَرَ هذا العصْرَ الطَّوِيلَ قبل أن يُخْرِجَ هذا الكتاب ، وكُتُباً كثيرةً أخرى تشبه هذا الكتاب . فهو قد خُلِقَ للحَدِيثِ عن مثل هذه الموضوعات اجْتَمَعَتْ له أدَوَاتُ هذا الحديث ، ومُنِحَ من المَلَكَاتِ ما يُمَكِّنُهُ من أن يَمْلِكَ نَاصِيَتَه ، ويُصْرِفَه كما يُحِبُّ ويهوى . ولكنك تخطئ إن التَمَسْتَ عندَ صاحبِنا بَحْثاً مَوْضُوعيًّا كما

يقولون عن هؤلاءِ الأشْخَاصِ الذين يَكْتُبُ فيهم ، أو يَتَحَدَّثُ عنهم . فصاحبُنا مُغْرَقٌ أَشَدَّ الإغْرَاقِ فيما يُسَمُّونَه الإنشاء الذاتى . هو شَدِيدُ التَّأَثُّرِ بما يَقْرَأُ ، يَتَمَثَّلُهُ أحْسَنَ التَّمَثُّل ، ويُمْزِجُه بنفسه أشَدَّ المَزْج . فإذا أراد تصويره فى كتاب ، صَوَّره مَشُوبًا بمُيُوله وعَوَاطِفِه وَذَوْقِهِ ، أو صوَّر نَفْسَه مَشُوبةً بمُيُول الشَّخْصِ الذى يَكْتُبُ عنه وعواطِفِهِ وَذَوْقِهِ . فأنت ترى الشَّخْصِيَّةَ البَارِزَةَ ، ولكنك تَرَى فيها فَرِيدًا ، وأنت تَرَى فَرِيدًا ، ولكنك تَرَى فيه شَخْصِيَّةً بارِزَةً من هذه الشخصيات .

وهذا النَّحْوُ من الغِنَاءِ المَنْثُورِ قد لا يُعْجِبُ العُلَمَاءَ العَاكِفين على البَحْثِ العِلْمى الخَالِص ، الذين يُنْكِرُون أنْفُسَهم أَشَدَّ الإنكار ، ويُحَوِّلُونَها إلى أدَوَاتٍ للبَحْثِ والنَّقْدِ والتَّحْلِيل ، ولكنه من أَشَدِّ أنواعِ الأدبِ ملائمةً لحاجَاتِ الجَماهِير ونُفُوسِ الشَّباب ، لأنه قَوِىٌّ غَنِىٌّ خَصْبٌ فَيَّاضٌ دائمًا بالقُوَّة والحَيَاة . وصديقُنا فريد خَطِيب فى هذا الكِتَاب من أوّله إلى آخِره تَمْلِكُه قُوّةُ الخَطَابَة حتى يَنْسَى كلَّ النِّسْيَان أنه يتحدثُ إليك من طَرِيق القَلَم والصَّحِيفَة . وإذا هو يُخَاطِبُك ويُنَاجِيك ويَهِيبُ بك كأنَّه يَتَحَدَّثُ إليك فى اجْتِماع من هذه الاجْتِماعَات التى يَتَحَدَّثُ فيها الخُطَبَاءُ إلى الجَماهِير . وهو مُنْدَفِعٌ فى حَدِيثِه ، تَمْلأُ الخَوَاطِرُ نَفْسَه ، وتَغْمُرُ قَلَمَه ، أسْتَغْفِرُ الله ، بل تَغْمُرُ لِسَانَه وتَنْقَادُ له الألْفَاظُ انْقِيَادًا غَرِيبًا ، بل قل تَنْهَالُ عليه الألْفَاظُ انهيالاً غريبًا ، فلا تُمَكِّنَه من أن يَنْظُرَ فيها وَيَتَخَيَّرُ منها ، وإنما تَنْظُرُ هى فى نَفْسِها وَتَتَخَيَّرُ هى من نَفْسِها ، وكأنَّ خَوَاطِرَه تَقْوَى وَتَشْتَدَّ وتَغْلُو فى القُوَّةِ والشِّدَّةِ حتى تَتَّخِذَ صاحِبَها واسطةً بينها وبين القرَّاء والسّامعين . وإذا هى تُعَبِّر عن نَفْسِها بنَفْسِها ، وَتَخْتَارُ ما يُلَائِمُها من الألْفَاظِ .

وقد أرَادَتْ الظُّرُوفُ المُوَاتِيَة لصَديقِنا إلَّا تكون ثَرْوتُه اللَّفْظِيَّة أَقلَّ من ثَرْوَتِهِ المعْنَوِيّة . وإلَّا يكون تَأَثُّره بالأدبِ العَرَبىّ القديم ، أقلَّ من تَأَثُّرِه بالأدَبِ الغَرْبىّ الْحديث ، وأن تكون فُصُولهُ لذلك مَظْهَرًا غَرِيبًا طَرِيبًا لهَذَا المزَاج الأدبىّ الْحِديث الذى يَحْسُنُ فيه الائْتِلَافُ بين الْجَاحِظِ وَمَا كُولى . ويَعْذُبُ فيه الاسْتِمَاع لخواطِر القرْنَ العشرين للمَسِيح فى لُغَةِ القرن الثالث للهجرة ، دون أن يَشْعُرَ القارئ مع ذلك بشَىءٍ من الوَحْشَةِ أو الاضْطِراب قَليلٌ أو كثيرٌ لأن الكاتبَ حَىٌّ قَوِىٌّ الْحَياةِ يَكادُ يُسْرِف فى قُوّةِ الْحياةِ حين يَكْتُبُ أو يقول ، وإنى لواثقٌ أشَدَّ الثِّقَةِ بأن هذا الكتاب سيكون بين الكُتُبِ القليلةِ جداً التى ظَهَرَتْ فى هَذِهِ الأيَّام ، فظَفِرَتْ بِرِضَى القُرّاء وإعْجَابِ الشَّباب . واثقٌ بأن الشَّبَابَ سَيَرَوْنَ فيه أنْفُسَهم ومُيُولَهم وأهْوَاءَهم وآمالَهم ومُثُلَهم العليا جَلِيّةً أشَدَّ الجَلَاءِ ، واضِحَةً أنْصعَ الوُضُوح . وإذا كَانَ لى أن أتَمَنَّى لِصَديقنا ولشَبابنَا شَيئاً فهو أن يَمْضى فَرِيدٌ فى أن يُخْرِجَ وأن يَمْضِى الشَّبَابُ فى أن يَقْرَأوا أمثَالِ هذا الكتَاب ؟

طه حسين

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة المؤلف

الحمدُ للهِ ربّ العالمين ، والصلاةُ والسلامُ على رُسُلِه أجمعين ، والابتهالُ إليه جَلَّت قدرتُه أن يُوَفقنا إلى الصراطِ المستقيم ، وأن يَحبوَنا تعالى بالعقلِ السليم ، للاستفادةِ من كلِّ أَثَرٍ قويم ، وأن يُعَمِّر قلوبنا بِقَبَسٍ من نور إيمانه ، وجَذْوة من مُتَوهِّج عِرفانه ، وصَقْل من هُدَى قرآنِه . . . . . .

« أما بعد » فَشَدَّ ما يحتاجُ الشرقُ عامةً ، ومصرُنا خاصةً إلى صفحات عن الزَّعامة والزعماء ، والعِصاميِّين والنُبَغَاء ، والعبَاقرةِ والنبهاء ، لتَزِيدَ من ثروتنا فى الثَّقَافةِ العامة ، ولِتُفَتِّق أذهانَ شُبانِنا ، حاديةً بهم إلَى مَحَجَّة الصَواب ، وسِدْرة السداد ، ولتدفعَ بحماسهم فى تعقلٍ وأناةٍ ، وفى تَرْوِيةٍ وقوةِ حصاةٍ ، إلى العمل الجِدِّىِّ الرائع ، فى الطريق المُعَبَّدِ النافع .

حاشاى أن أزعمَ أن هذه السلسلةَ التى انتوينا اصدارَها بهمةِ صَدِيقَىّ الأديبين شفيق وادار مترى صاحِبَىْ مكتبةِ « المعارف » الزاهرة ستسُد فَرَاغًا يُؤْبَهُ له فى هذه الناحية من الدُّرْبةِ السياسيةِ فى الثقافةِ العامةِ . وإنما أرجو فى غير صَلَفٍ ولا إدعاء أن يكونَ من وراءِ عملنا إذا ما صادَفْنَا إقبالاً وتشجيعاً من جمهرة

القارئين ، وكرام الناقدين ، إتاحةَ الفرصة المُواتية فى وضع لَبِنَة مُتواضِعَةٍ من زميلٍ مُتَواضِعٍ فى هذا الباب الجديد . بابِ التربيةِ السياسيةِ . بابِ التربيةِ الاستقلاليةِ . باب التربيةِ الذاتيةِ باب التربيةِ العاصميةِ .

أن وِجْهَتَنا فى الاستفادة من التاريخِ الإنسانىِّ ، أو من فلسفةِ التاريخِ الإنسانىِّ ، يجبُ أن تتكيف تَكَيُّفاً يتفقُ والوجهاتِ الجديدةَ المستحدثةَ فى الجيلِ الذى نعيشُ فيه ، فلا نستمر فى حَفِيلنا بما شُحِنَتْ به فى قليلِ جَدْوىً كتبُ التاريخ مِن حروبٍ وملاحمَ ، ووقائعَ وأهوالٍ ، وتناحرِ ملوكٍ وأكاسرةٍ ، وتقاتلِ أَقْيَالٍ وقياصرَةٍ . ونُصُبٍ وتماثيلَ ، وهيَاكلَ وتهاويلَ ، بل قمِينٌ بِنا وخليق أن نُوَلِّيَ وجوهَنا شطرَ العقول وما تنتجُ من ابتكارٍ فى إِثْرِ ابتكار ، وإلى تطورات الأفكار وما تلدَ من ابداع تِلو ابداع ، واختراع بعدَ اختراعِ . قمين بنا وخليق أن نحفل أيّما حفيلٍ بالناحية الخلقية كيف تتكون ، وإلى العزيمة الماضية كيفَ تَتَجَلَّى وتظهر ، وإلى الشخصية الذاتية كيف تَشقُ طريقها مجتاحة ما يعتورُها من عقاب وصِعاب . قمينٌ بنا وخليقٌ أن نأبه كلَّ الابهِ بدراسةِ سرِ العظمةِ ، وسرِ النجاحِ ، وسرِ التبريزِ ، وأن نَهْتَمَّ فى تصميمٍ وصادقِ رغبةٍ بالمقومات الخُلُقيَّةِ ، والنواحى الباطنيةِ فى الفردِيةِ الانسانيةِ من ناحية ذَكاوَتِها وأَصالَتِها ، وهَدْيِها وسَدَادها ، وأَثَارها ومُنْتِجَاتِها ، وفَوْزها وفَلَجِها . قمينٌ بنا وخليقٌ أن ندرسَ العقلَ الانسانِيَّ ولُبَابَ التاريخ الانسانىِّ . قمينٌ بنا وخليقٌ أن ندرسَ الشخصياتِ البارزةَ فى كل نواحيها المتبايِنَةِ من وطنيةٍ ، وسياسيةٍ ، واقتصاديةٍ ، وعُمرانيةٍ ، واجتماعية . . . . . .

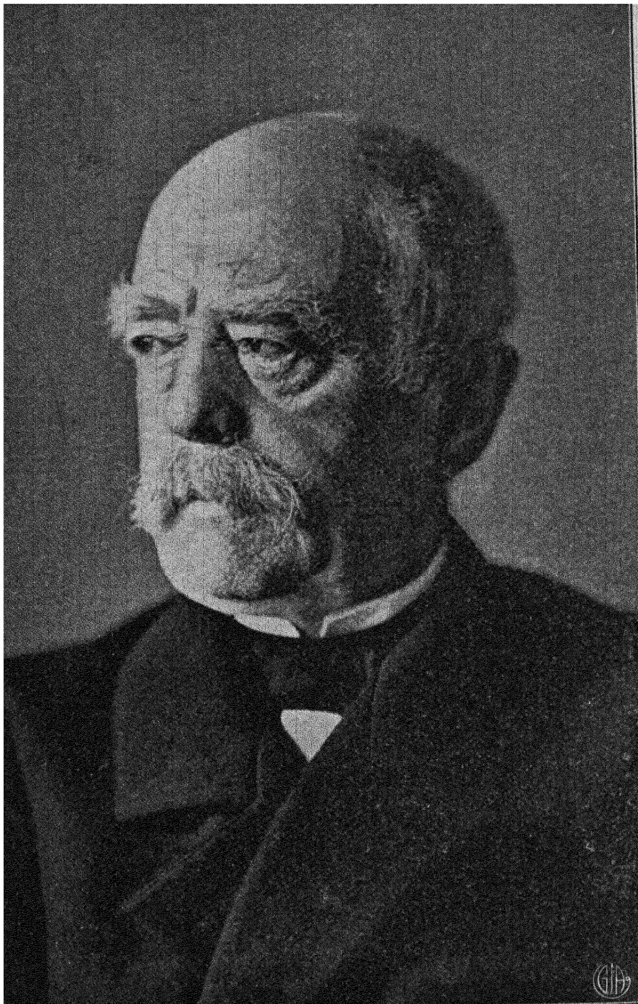
والآن فلست أرجو أكثر من أن يقرأَ شبابُنا هذه الشخصياتِ البارزةَ ، فى إنعامٍ وإفادة ، وفى تدقيقٍ وتحقيقٍ ، غَيْرَ غافلٍ عن أن أرتهن مع حضرتى ناشرى هذا الكتاب من مضينا قُدماً لا نلوى على شىء ، بمنه وتوفيقه ، حتى تتم اخراج هذه السلسلة شاكراً للأستاذين الجليلين « مكرم عبيد » و « طه حسين » فَضْلَهما الكبير ، معتذراً عما قد وقع منى من عجزٍ وتقصير ، آملاً من زملائى الحسنى وزيادة . . .

ولنا فى عون الله أولاً وآخراً ، وفى تشجيع الناطقين بالضاد ، وصفح الناقدين والكاتبين ، الذخيرةُ والعدةُ إن شاء الله . فاللهم هَبْ لنا من لَدُنْكَ رحمةً ، وهَيِّء لنا من أمرِنا رَشَداً ؟

دار المأمون
فى أول يونية سنة ١٩٣٣

احمد فريد رفاعى

فهرست



بســـــمارك

حول زعيم سياسي أنشأ أمبراطورية متحدة

بسمارك

« ان القرن التاسع عشر كان مناصفة بين نابليون وبين بسمارك :
لأولهما نصفه الأول ، ولثانيهما نصفه الثانى » بلويتز

وشدّ ما نحتاج — أعزك الله ووفقك إلى ما يفيد وينفع — إلى الثّقافة السياسيّة فى نهضتنا الحاضرة . تلك النهضة القوية فى أسسها ونظمها ، لأنها عن إيمان وعقيدة

إلاّ أن الثّقافة السياسيّة بطيئة بطبيعتها ، ثم هى لا تأتى غالباً إلا متأخرة . وربما كان من الحق أن نقول : إنها لا تُثمر ولا تُجدى إلا اذا أتت على هذا النحو من البطء والتأخير شيئاً فشيئاً لا دفعة واحدة .

نريد أن نقول : إن النهضات العلمية والصناعية والاقتصادية ، وما يَصحبها من الثقافات المُلابسة لها ، تعمل متآزرةً متساندةً على إيجاد الثروة والرفاهية ، وانه اذا أثرى الشعبُ وتقلّب فى بُحبوحة الغنى وأعطافِ الرفاهية اتجهت ميولُه إلى الأدبيات ، ومن ثَمّة إلى السياسيّات .

وقد يبدأ شعبٌ فيهتمّ زعماؤه بالسياسيّات وهو فقيرٌ فى حياته الاقتصاديّة والصناعيّة . فقيرٌ فى حياته العلمية والأدبية . وقد لا ينجح فى الغالب . وربما ينجح لاعتبارات خارجيةٍ لا فى عنصره ، ولا فى داخليّته ، مما لا نعرض لبحثه هنا . وإنما قُصارى ما نرمى اليه أن الثقافة السياسية بطبيعتها هى نِتاجٌ للثقافات الأخرى ، وأنها لهذا بطيئة فى نشأتها ومتأخرة فى ظهورها .

ولسنا هنا فى مقام شَرْح الثقافة السياسية وماهيتها . وجلّ ما نريد قولَه : إن الاطلاعَ على مجمل تاريخ أقطاب السياسة العالمية ناحيةٌ من شتّى نواحى الثقافة

السياسية . بل نذهب إلى أبعد من هذا فنزعُم لك أن الاطلاع على تاريخ أقطاب السياسية العالمَية من أهم مُقوّمات الثقافة السياسية .

وربما لم تبالغ كثيراً جماعة أنصار « البيوجرافيات » فى تصويرها بأن دراسةَ مؤلفاتها أكثرُ إنتاجاً من الوقوف على القوانين الدولية ، والتواريخ الدستورية ، والنظريات الدبلوماطيقية .

وربما كانوا على حقٍّ غيرِ قليل فيما يذهبون اليه . وإنك ستؤمن بذلك حينما تقف بنفسك على مجمل تاريخ حياة بعضهم ، وهو ما سنعالجه لك بإيجاز فى بضع صحفٍ من هذا الكتاب .

والآن سنتحدّث إليك عن شخصيةٍ عظيمة من تلك الشخصيات الكبيرةِ التى لعبتْ دوراً هاماً فى تاريخ العالم، فكوّنت دولةً قويةً وأطاحت بأمبراطورية عظيمة. كوّنت الوحدةَ الألمانية ثم كسَرتْ شوكَةَ الأمبراطورية الفِرنسية

هى شخصيّةٌ عظيمةٌ بلا ريب ، ولم يَغْلُ المسيو بلويتزا أحد مكاتبى التيمس فى باريز أيام « اوتو ادوارد ليوبولد فون بسمارك » وهو ما نعنيه وندرسه فى هذه الصفحات الآن، كما لم يعدُ الحق والواقع حينما قال عنه مامعناه : إن القرنَ التاسعَ عشرَ كان مناصفةً بين نابليون وبين بسمارك لأوّلهما نصفه الأول، ولثانيهما نصفه الثانى. أما بَقيّة رجالات العصر من أبطال وكُتّاب وساسَة وفلاسفة وصنّاع وعلماء فلك أن تجمعهم فى كَتيبة واحدة . ولك أن تكتب عليها بحروف التاريخ البارزة القوية اسم «نابليون» واسم نِدّه « بسمارك »

مولده ونشأته

ولد « اوتو ادوارد ليوبولد فون بسمارك » فى أول أبريل عام ١٨١٥ ميلادية من بيت كريم المَحْتِد طيّب الأُرُومة، نال جلُّ أفراده وسُلالتِه مراكزَ سامية فى المملكة

البروسية ، واشتهروا ببعد الهمّة وسَعة المدارك ونَبالة الصّيت . فوالده من كبار الضباط بفرقة الخيالة بالجيش البروسىّ ، ووالدته كريمةُ سياسىّ كبيرٍ مشهودٍ لها بالورَع والتقوى مع الحرية فى التفكير والاستقلال فى الرأى ، كما اتصفت بثُقوب النظر وصحّة الحكم والزكانة والفِراسة . ويصح لنا أن نقول : إن « بسمارك » قد ورث ما اتصف به من النجدة والشجاعة من والده ، كما يصح لنا أن نَعزى ما اتصف به بسمارك من النعومة السياسيةِ والفِراسة والجلَد على الاضطلاع بتكاليف الحياة الى والدته ، فهى التى لاحظت فيه منذ مَيْعة صباه وطفولته نُزوعَه الى السياسيات وما يتعلق بالسياسيات . فرأت ألاّ يُحرم من تعلّم الفرنسية والانجليزية ، وقد أحسن استغلال ذلك فى مطالعة أحسنِ التواليف الموضوعة فيهما ولا سيّما الإنجليزية التى كان كثير الميل الى التكلم بها .

أما عن مجمل حياته التعلّمية فقد ذكر « اميل لدوج » وغيرُه ممن تصدّى للكتابة عن حياة ذلك السياسىّ الكبير شيئاً غير قليل عن حالته فى أثناء سِنى دراسته.

لقد تلقى دروسَه الأولية فى مدرسة خاصةٍ ببرلين ثم انتقل منها الى « الجمناريم » . ولما بلغ من العمر سبعةَ عشرَ عاما التحق بجامعة « جوتنجن » وبقى فيها أكثر من سنة . ثم انتقل بعد ذلك الى برلين وأتمّ فيها دروسَه العالية عام١٨٣٥ ونال الإجازة التى تُبيح له الاشتغال بالأمور العامة .

وقد ذكر مؤرخو حياته شيئا كثيراً عن ميله الى الصيد والقنص ، ونسبوا اليه ما شبّ عليه من صفات الشهامة واُقتحام المخاطر ، كما ذكروا شيئًا عن نُزوعه الى مُعاقرة الخمور والى المبارزة ومُقارعة الإخوان فى أثناء سنى دراسته . وقد قيل : إنه لمّا كان فى الجامعة تبارز مع طلبتها ستاً وعشرين مرة لم ينهزم إلا فى واحدة منها . ويصحّ لنا أن نستنتج من ميله الفِطرىّ الى المبارزة حبّه للكفاح والمُجالدة .

ولا ريبَ أن لهذه الناحية خيرَها وشرَّها . ولا ريبَ أيضاً أنّ ما فيها من خيرٍ ونفع يربو على ما بها من شرّ وضر . وكفى بها خيراً ونفعاً أنها قد عوّدت « بسمارك » منذ نعومة أظفاره عادةً ضروريةً للنجاح والتبريز فى الحياة . . . ألا وهى عادةُ الانتصار

وكما أن الطالب الذى يكون أوّلَ فرقته مرةً ثم أخرى ثم ثالثة ، ينطبع فى نفسه الميلُ الى الأوّليـة ويكون من عادته الجُنوح الى الصَّدارة والزعامة ، كذلك حال المُكافح والمُنازل الذى اعتاد النصرَ وشبّ على التبريز تنطبع فى نفسه تلك العادةُ المجيدة ، عادةُ الانتصار

على أن معاقرتَه للخمر لم تعُقْه — فيما ذكر عنــه مؤرخوه — عن التقدم فى دروسه ، بل لقد ذكروا أنه لم يتأخر فيها وجاز امتحاناتِها ممدوحاً من أساتيذه ، وعُيِّن أخيراً ملحقاً قضائياً « مستنطقاً » فى پوتسدام . ويظهر أن ميلَه للانتصار قد صحبته لوازمُ الانتصار ولابسته صفاتُ الغلبة والتبريز

واذا كان الانتصار معناه نزولُ غيرك على إرادتك، وإقرارُهُ بتقدّمك وغلبتك ، وكان هذا التقدم وتلك الغلبة معناهما أن تكون كلمتك هى العليا وأن الزعامة والرآسة لك « أيها المنتصر » دون سواك — إذا كان ذلك كذلك — استطعنا أن نعلل سببَ استقالته من وظيفته القضائية التى عُين فيها .

كان بسمارك يستمع — كملحقٍ قضائىّ — لشهادة رجل فلاحظ عليه شيئًا لم يَرْتَح اليه ولم يرُقْه ، ولم يك بسمارك رئيساً للجلسة طبعاً ولكنه لم يتمالك نفسَه النزوعةَ الى الرياسة ، فقال للشاهد : « اعتدل والاّ طردتُك » بَيْدَ أن رئيسَ الجلسة قد لاحظ شيئاً جديداً فى هذا الموظف الجديد لم يلاحظه فيما عداه من الموظفين . لاحظ فيه حبَّ الرياسة فكان عليه أن يعترضهُ ، وكان عليه أن يلومه فقال لبسمارك :

« إن حقَّ الطرد من المجلس خاصٌ بى لا بك »

عاد بسمارك الى سماع الشهادة كاظماً غيظَه ، كابحاً جِمَاحَ نفسه . ولم تمض هُنَيهةٌ حتى لاحظ نفس تلك النغمة التى لم يرتح لها ولم ترُقه من الشاهد ، فنهض واقفاً وقال : « اعتدل أيها الرجل وإلا طردك القاضى » .

وكان من الطبعى ألا ينجحَ « بسماركُ » فى الحياة القضائية فولّى وجهَه شطرَ الجيش ، ولكنَّ نفسَه الكبيرةَ محالٌ عليها أن يُرضِيهاَ نظامُ الجيش وما فيه من قيود عديدة . ولا تنس معاقرتَه للخمر ، ولا تنس نُزوعه للأَثَرة والسلطان وللزعامة والصدارة

اذن فلمَ لا يترك الخدمةَ ولمَ لا يعودُ الى مزارع أبيه وأملاكه ليُصلح من شأنها وليُدبّر أمورها ولا سيّما وقد مات أبوه عام ١٨٣٩ فانتقلت اليه كلمته العليا وسلطانه على الزرّاع والمستأجرين وما إلى ذلك من ماشية وغيرها — فأصبح يتمتع بسلطان أعلى دونه سلطان القاضى والقائد .

زيارته للممالك الاوربية

يقول مؤرخو حياة « بسمارك » إنه زار باريس عام ١٨٤٣ وإنه عاد من زيارتها وله لحيةٌ طويلة ويجب ألا يفوتك أن للّحى فى ذلك الوقت قصةً ومغزى . فهى تدل على الغلوّ فى الآراء السياسية التى تنتشر فى فرنسا . وتدل على حماسة صاحبها وإخلاصِه لمذهبه الذى يعتنقه واستمساكه بعقيدته التى يدين بها

ويظهر أن لقراءة بسمارك ولوراثته من والدته وأثر بيئته دخلاً غيرَ قليل فى نُزوعه فى أوليات حياته إلى الآراء الحرة فى الحكومة وفى الدين . وفى ميوله الى حقوق العمال ، وما الى ذلك من مختلف الشئون .

ولهذا نستطيع أن نفسر أخذَه بالنظام الفرنسى فى إرسال لحيته . ولكنا سنرى الى أى حدٍّ سيحدو به ميلُه الى الانتصار والى الانتصار بحذافيره . وهو لا يحدو به فى نهاية تطوافه إلا بما يتمشى مع الانتصار والتبريز ، ولوكان هذا الانتصار

لا يتفق فى شيء مع الآراء الحرة موقف المنتصر للرجعية والمعادى لما عداها فى إرسال بغىّ المانية الى أحد أقيال افريقية الشرقية بها ليجد وسيلة يتوسل بها للتدخل السياسى وعلّة يتعلل بها فى الوصول الى بُغيته ، فهو هنا مكيافلىّ السياسة غيرَ أبهٍ بالدين ولا مكترثٍ بالخُلُقيات .

ويظهر أن بسمارك قد عاد فى سنة ١٨٤٦ الى التوظف ثانيةً ، فقد ذكر بعض مؤرخيه أنه تعين فى تلك السنة ملاحظاً للجسور وحماية الأرض من الغرق . كما ذكر عنه أنه زار فى هذه الأثناء البلاد الانجليزية والسويسرية والفرنسية

زواجه عام ١٨٤٧

وقد ذكر مؤرخُ حياته الاستاذ « أميل لدوج » شيئاً طريفاً عن زواجه من « يوحنا » التى هام بها حباً ، وكيف نفرت منه أولاً حينما كاشفها بحبه لمعاقرته للخمر وميله الى اللهو واللعب ، ثم رضيت به أخيراً . كما ذكر شيئا غير قليل عن عناية « بسمارك » بتعليمها وتوسيع مداركها . وترى مما كتبه « لدوج » أنه كما أن لبسمارك أثراً عظيما فى تكوينها كذلك كان لها أحسن الأثر فى تقويم حياته وتوجيهِ جهُوده إلى النافع المفيد وإصلاح بعض عيُوبه الخُلقية

لقد هام بها هُياماً عظيماً وفُتن بحبها ، وكانت بينهما كتب غرام بديعة مُتناسقة لا مَوْضع لإثباتها هنا فلننتقل الى نقطة أخرى تستحق عنايتَك ومطالعتك

كيف بنى مستقبل بسمارك السياسى ؟

للكفاية نصيبُها فى النُّجح السياسى، وللقدر أيضاً نصيبُه . ذلك حقٌّ لا مِرية فيه

أراد القدرُ أن يذهب « بسمارك » بزوجته بعد أن بنى بها إلى سويسرا وإلى إيطاليا، وأراد القدر أن يذهب الى البندقية، وأراد القدر أن يكون «فريدريك وليم

الرابع » ملك بروسيا فى البندقية حين ذاك ، وأراد القدر أن يكون بسمارك مدعواً الى تناول الطعام مع مليك البلاد

أتاح القدرُ هذه الفرصةَ لبسمارك وتحادث مع الملك ، وشاء القدر أن يقف الملك من هذه المحادثة على ذكاء بسمارك وعلى مواهبه السامية فسُرَّ بما رآه فيه من شَتّى النواحى ، وسنرى فيما بعد أثارَ تلك المقابلة الملكية فى بسمارك وكيف أصبح مَلكياً ، وملكياً متطرفاً

حياته البرلمانية

وقد أراد القدرُ أيضاً أن يُنتخب فى البرلمان فى السنة نفسِها وهى ١٨٤٧ — سنةِ زواجه وسنةِ مقابلته لمليك بلاده . وقد أخذ مكانَه باستحقاقٍ وجدارة بين أشراف برلين ، وقد ميّز نفسَه بالدفاع عن حقوق الملك والملكيةً وقال الكلمةَ المعروفة : « إن الملوك يجلسون على سدّة الملك بمشيئة الله لا بمشيئة الشعب » ودافع أشدّ الدفاع عنها . . . . . ويقال : إنه لما خطب خطبته الأولى فى المجلس فى هذا الصدد صخِب المجلس وهاج أعضاؤه فأبت شخصيةُ « بسمارك » إلا استمراراً فى خطبته . . . وبلغ به عِنادُه وعدمُ اكتراثه أنه لما جلس تظاهر بالقراءة فى جريدة كانت فى جيبه ! !

قامت الجرائد ضده . طاعنة ، زارية ، متهجمة ، ناعية عليه رجعته وانتصارَه للملكية ، وأبت عليه شخصيته الفذّة إلا استمراراً فى خطته الى النهاية ، وقد أنشأ جريدةً من ماله الخاص للرد عليها . . .

استمرّ طِوَال تلك السنة على خطته ، مُخلِصاً لها ، مستمسكاً بها الى أن اضطر الملك عامَ ١٨٤٨ الى التسليم للأحرار والمتطرفين واعتزل بسماركُ السياسةَ

ويجب هنا أن نقول : ان دِفاعَ بسمارك عن حقوق الملك ، وما أبداه فى هذا

السبيل ، من قوةِ عَارِضَةٍ وشدة مُحاجَّة وحرارة دفاع وتدَفُّق بيان . كان لهذا كله الأثرُ العميق فى وَضع بذور الجمعية الملكية فى بروسيا ، كما كان له الفضلُ العظيم فى القضاء على ثورة عام ١٨٤٩ وما فيها من آراء متطرفة ، والعملِ على تدعيم أركان الملكية فى البلاد

لم يطُل اعتزالُ بسمارك للسياسة إذ انتُخِب عامَ ١٨٤٩ فى البرلمان الجديد عن « برنبرغ » . ويجب أن نُقيِّد له شدةَ حماسته واستمرارَه فى الانتصار للملكية . ويجب أن نُثبت له أيضاً ما أثبته مؤرخو حياته من أنه كان أكثرَ المتكلمين والباحثين فى موضوع الدستور الجديد . ويجب أن نثبت أيضاً أن من أقوى خطبه وأبلغها وأكثرها متانةً ما كان ضدّ الثوّار والثائرين . كما نُثبت له اشتراكَه فى مناقشات السياسة البروسية الخارجية

على انه لا يصحّ أن يفوتنا — وقد ذكرنا وضعَ الدستور البروسى — ما كان من موقف بسمارك فى هذا الصدد :

لما هُزِمت ثورة عام ١٨٤٨ وانتُخب بسمارك فى مجلس النواب الجديد عام ١٨٤٩ عُرِضت فكرة الأخذ بنظام الدستور البلجيكى ، وكان عمره ثمانيةَ عشر عاماً وقال فيه : « إن عمر الدستور البلجيكى ١٨ سنة فقط ، وهو عمر يجمل بالسيدات ولا يجمل بالدساتير »

حياته السياسية

ولم يكن مَفرٌّ للملك وقد وَجد فى بسمارك رجله ونصيرَه إلا أن يختاره مندوباً سياسياً فى « مجلس الاتحاد الألمانى » فى فرنكفورت عام ١٨٥١

واذا كان زواجُه من زوجة جميلة رشيقةٍ مُتدينةٍ قد نجا به من طَيش الشباب ورُعونة الصبا ، فانا نجد أن تعيينه فى هذا المجلس ، وهو مَحتِدُ الدهاء ومَقرّ السياسة

الألمانية فى ذلك الحين ، سببٌ هامٌّ فى تكوين بسمارك تكويناً سياسياً . إذ أنه قد نجا به من طَيش السياسة وأخطالها . وانه قد رسم لهذا السياسى الكبير الخطة السياسية المُثلى لمستقبل حياته و بلاده .

كانت النمسا السيدةَ الحقيقية ، ذاتَ السلطان الحقيق ، على ممالك الاتحاد الألمانى . ويجب هنا أن نقول إن رغبة الممالك الألمانية كانت منذ عام ١٨١٥ فى الاتحاد بسبب ما أوقعه نابليون فيها من الخراب والذلّ ، ولكن النمسا التى كانت ترمى الى السيادة المطلقة عليها كانت تعمل لاستبعادِ تحقيق تلك الوَحْدة . تعمل بذكاء سَاستها ، ودسائس مندوبيها ، جادّةً فى هذا السبيل ، غيرَ مُقصِّرةٍ ولا وانيةٍ

وجميلٌ هنا أن ندرس تطور عقلية هذا الجبّار السياسىّ القدير .

كان يرى بُداءة ذى بدء أنه لِزامٌ فى عُنقه المحافظةُ على صداقة النمسا ، وذلك لأنه كان يرى أنها أشد الممالك صداقةً لبروسيا .

كان يرى ذلك ويرى أنه مُلزم بتطبيق سياسة بلاده على مجرى سياسة النمسا ، بيد أنه بعد مرور فترة بسيطة تبين أنها أعدى أعداء أمته . ورأى أن لا مفرّ له من العمل على سَحقها سحقاً ، وسعى ثمانى سنوات لدى ملوك الممالك الألمانية عامة حتى أقنعهم بخلع نِيرها . ولم يألُ جُهداً فى هذا السبيل بل استخدم الصحفَ والأوساط السياسية كافة ، وزار باريسَ وتكلّم مع نابليون الثالث . وسعى سعيَه هنا وهناك للعمل على إضعاف النمسا . . . فكانت له إرادتُه . وكانت له مشيئته

ويجب هنا ألاّ يفوتنا إثباتُ محاولاته حين أحسّ أن مكانةَ البروسىّ فى مجلس فرنكفورت غيرُ مكانة النمساوى ، وما بذله من نُكران ذلك والخروج عليه عملياً من تدخينه ونزعِ الملابس فى أثناء الجلسة

وانك اذا ما قرأت مكاتباته مع صديقه الحميم فى بلاط ملك بروسيا « الجنرال

فون جرلاخ » من أركان حرب الملك نستطيع أن نستدِلّ منها على مبلغ ما استفاده « بسمارك » من مجلس فرنكفورت ، ونستطيع أن نؤمن بما لهذه البيئة السياسية القوية ، من أثرٍ سياسيٍّ قويّ فى هذا السياسىّ الكبير .

ولا غَرْو فقد استفاد بسمارك أيما إفادة من الوسط السياسىّ الجديد الذى شاء القدر أن يكون فيه . وأصبح من الكفاية السياسية وعلوّ الكعب فيها بدرجة جعلت ملكَ بروسيا يستدعيه كلّ سنةٍ الى برلين ليقف منه على رأيه فى شتّى المسائل السياسية العامة . وقد ذكروا أنه استُدعِى فى إحدى السنين حوالى عشرين مرة .

وهنا يجب أن نقيّد له رأيَه فى تكوين المانيا وفى مستقبلها :

كان مؤمنًا كل الايمان بضرورة تقوية الجيش الألمانى لكى تُذعنَ لها ممالكُ أوربا من ناحية ، ولتخضع لها الممالك الألمانية والأحزابُ الألمانية من ناحية أخرى ، وأخيراً لكى يستأصل الحزبَ الجمهورى ولكيْلا تكون سلطةٌ فوق سلطان المانيا

والآن نتساءل : هل نفّذ بسمارك خُطته وهل نجح فيها ؟

بَيْد أنا نريد قبل إجابة هذا السؤال أن نلاحظ من قراءتنا لخطاباته الى زوجته فى هذه الفترة مبلغَ ألمه وعميقَ أسفه لما كان من طيش شبابه الماضى . . . وقد اتجهت ميولُ هذا السياسى الى التوراة والى الانجيل ولجأ الى العوْن الالهى

والآن نمرّ سراعا على سنى حياته وما فيها من حوادث كِبار تحتاج دراستُها الى مجلدات ضِخام ، لأنها بمثابة تاريخ القرن التاسعَ عشرَ ، وتاريخ الحالة السياسية فى ممالك أوربا عامة ، وما فيها من شَخصيّات بارزة لعِبت دورَها العظيم فى تاريخ الإنسانية

سنة ١٨٥٩ م

هذه سنةٌ هامّةٌ فى تاريخ بروسيا وفى تاريخ بسمارك : هامّةٌ فى تاريخ بروسيا لأن فيها أُصيب « فردرك وليم » بعاهاتٍ عقلية حالتْ بينه وبين الأشتغال بأمور

دولته فانيب عنه « البرنس وليم » وكان لذلك نتائجُ يُؤْبه لها . وهامّةٌ لبسمارك لأنه قد نقِل فيها من عمله العظيم فى مجلس الاتحاد الألمانىّ « بفرنكفورت » الى « بطرسبورج » حيث عُيّن سفيراً للمملكة فى روسيا . ومكث فيها أربع سنوات نال فيها احترامَ القيصر وحُبّه . وهى هامةٌ لنا معشرَ القراء لأن بسمارك كتب فيها رسالتَه المُسهبة عن المسألة الألمانية وهى التي بعث بها الى نائب الملك البرنس وليم ، وأثبت فيها ضرورةَ العناية بتقوية الجيش الألمانى ، وتنبأ فيها عن مصير السياسة الأوربية .

سنة ١٨٦٢ م

وهى الأخرى سنة هامّةٌ فى حياة بسمارك السياسية . لأنه تعيّن فيها سفيراً لدولته فى باريس ، وفيها درَس فرنسا . وسنرى فيما بعد كيف أراد « أن يُفطر بفرنسا قبل أن يتغدّى بالنمسا »

وهنا يجب أن نذكر لك اسمًا ، أكثرَ مؤرخُ بسمارك الأستاذ « أميل لدوج » من ذكره . . . وذلك الاسم هو « الجنرال فون رون » وزيرُ الحربية بالوزارة الألمانية، ويجب أيضا أن نذكر لك أن أثر بسمارك فى خلال تلك السنِين فى حكومة بلاده كان ضئيلاً وكان قليلاً . إما لأن الوزراء الأحرار كانوا ينظرون إلى آرائه نظرةَ شكّ وارتياب وعدمِ إيمان بقوة بروسيا وقدرتها فى الاضطلاع بما يريده لها هذا السياسى الجديد . وإما لانهم يريدون التخلصَ منه لعِظَم نفوذه وقوّة شخصيته . بَيْد أنا مع ذلك كلِّه نلاحظ أن « الجنرال فون رون » كان يرى رأيه فى ضرورة تقوية الجيش الألمانى لكى تسود بروسيا .

ولكنّ حزب الشعب قد ازدادت قوتُه ، وعظُم بطشُه ، وارتفعت كلمتُه ، ففكر الملك فى التنازل ، وفاتح « الجنرال رون » برغبته هذه ، فنصح اليهِ باستدعاء رجلٍ

الساعة « بسمارك » وأن يعهد اليه فى تأليف الوزارة . فهو وحده الذى يستطيع إنقاذَ الموقف . وفعلاً أخذ الملك بنصيحته وعهِد بها الى بسمارك وبقى وزيراً للمملكة ومضطلعاً بأعباء وزارتها الخارجية مدة ثمانٍ وعشرين سنة

فى رياسة الحكومة

يذكر الأستاذ « أميل لدوج » فى مقاله الصغير — لا كتابه التاريخى الكبير — أن قوّة بسمارك الجسمانية قد خدمته فى حوادث عدة . ذكر منها ثلاثًا : أولاها أن معتديا أثيماً أطلق عليــه عِيارا ناريًّا فى « انتردن لندن » فأخطأه فى الطلقة الأولى ، وحاول أن يطلق عليه الطلقة الثانية ولكن بسمارك العبل المتين أمسكه بيده اليمنى وألقى سلاحه على الأرض . وأما الحادثة الثانية فكانت أيام شبابه وميعة صباه إذ أَلْقى بنفسه فى اليمّ لإنقاذ غريق . ويقول « لدوج » : إن بطَلَه بسمارك يفخَر أيّما فخر بمدالية الشرف التى نالها فى هذا السبيل . وأما الحادثة الثالثة فخاصة بموقفه التاريخى فى الحيْلُولة بين الملك و بين تنازله عن العرش

ثم يتدرّج « لدوج » بعد هذا الى التغنّى بأثر ضخامة بسمارك فى نفوس مشاهديه من سفارته فى روسيا إلى سفارته فى باريس الى غير ذلك من المجالس التى يجلسها ، والوظائف التى يشغلها

صدق « لدوج » فى ملاحظاته هذه ، ويصدُق دائما فى تغنيه ببسمارك ولا سيّما قوة إرادته الحديدية .

أَجل ! لبسمارك إرادةٌ حديدية ، وهذه الإرادة الحديدية هى مصدرُ نجاحه فى حياته السياسية ، هى صاحبة الفضل الأول فى فضّ مشاكل دولته ، بل فى خلق دولته فى ظروفٍ قاتمةٍ حلكاء .

تربّع بسمارك فى دست الوزارة، والموقفُ يُوهن عزَم الجميع إلا من كان مثلَ بسمارك فى مُرْهف إرادته، ومَضاء عزيمته، وقوّة شكيمته.

ألم تكن الأحزابُ مناهضةً له ؟

ألم تكن الصحفُ مشهرةً الحربَ العوَانَ عليه ؟

وأخيراً ألم يكن الملك نفسه معتزماً التنازلَ عن عرشه إزاء ذلك كله ؟

على أن بسمارك خرج من هذا كلّه منتصراً، ومنتصراً على طول الخط.

لقد اعتُدِى على حياته. ونجا بأعجوبة من القَدَر. أو بقوته الجسمانية كما يذهب مؤرخُه «لدوج». فانظر كيف اُستخدم هذا السياسىّ المحنّكُ تلك الحادثةَ المروّعة التى ربما تُفسّر بمقت الشعب له، وعدم ارتياحه لسياسته التى يجرى عليها

لقد قلب الموقفَ... ألْهبَ الحماسةَ فى قلوب الألمان... جعل الجميعَ يُؤيّدونه ويظاهرونه... زاره الملك فى منزله... وخرج بسمارك الى الشعب الذى يهتِف له وأطلّ على المتظاهرين من شُرفة قصره

وهكذا انتصر بسمارك بعقله وحِكمته. وانتصر بسماركُ بحذقه وكِياسته. وانتصر بسمارك لأن إرادته الفذّة أرادت له الانتصارَ. وكان له ما أراد

مسألة أخرى هامة أيضاً

كان لبسمارك معارضون أقوياء. وكانوا يُدسّون له فى كلّ مكان. يدسون له فى بلاط الملك. ويدسون له فى الصحف. ويدسون له فى مجلس النواب. وقد خلق له هؤلاء الخصومُ مُشْكِلةً دقيقةً أثاروها فى البرلمان... هى «حق الأمة فى تقدير نفقات الحكومة»

ولكن «بسمارك» الذى رأيناه فى مبدأ حياته السياسية لا يحفِل بخَصْمه، ولا يُذعن إلا لما شاء هو، بسمارك الذى تعوّد الانتصارَ والذى يخلُق من الفشل

انتصاراً . . . قاوم ثم قاوم . . . وقرّر لهم ذلك المبدأ المعمولَ به الى الآن . . . قرّر لهم « إن المشاكلَ لا تُفضّ إلا بالدم والحديد ! »

ولعلّه من هذه العبارة أُسْمى بسمارك من ذلك الحين « بالوزير الحديدىّ »

وَيصح لنا الآن أن نتساءل ماذا فعل بسمارك إزاء مُشكلات أُمته السياسية ، ولا سيما ونحن نعلم ما بينها و بين جاراتها وخاصّة النمسا وفرنسا . . . ؟

ان بسمارك كان يَجرى فى سياسته على مقتضى الحكمة البطيئة النجاح ، ولكنها مضمونةُ النجاح . . . نَعنى بها الحكمةَ التى تقول : « الأمور مرهونة بأوقاتها »

أمّا الإجابة عن سؤالنا الأصلىّ وهو . . . « ماذا فعل بسمارك إزاء مُشكلات أُمته ؟ » فهى فى نفسها تُبرهن بجلاء صحةَ ما ذهبنا اليه من أن بسمارك السياسى لم يكن مُتهوّراً فى سياسته ، وانه كان يجرى على مُقتضى الحكمة البطيئة النجاح ، واليك التوضيحَ :

كان من مصلحة بسمارك السياسية أن يَشغَل أُمته فى حرب خارجية . لأن هذه الحربَ الخارجية تُنقذه بلا ريب من مشاكله الداخلية . . . فهل فعل ؟

لقد مَكّن بسمارك العلاقات السياسية بين بلاده و بين روسيا منذ أيام سِفارته بها . وكان من جرّاء هذه العَلاقات الوُدية الجديدة بين الأمتين أنْ عرض عليه « اسكندرُ الثانى » قيصرُ الروسيا أن تشتركَ بروسيا مع بلاده فى مُناجزة النمسا وفرنسا معًا فى أثناء ثورة بولونيا . . . فهل فعل ؟

ان بسمارك يُريد أن تكون بلادُه قويةً فى داخليتها ، قويةً فى جيشها ، قوية فى مجلس اتحادها ، قوية فى أسباب دخولها الحرب . . . وهو لهذا كله لا يُهمه ذلك النجاحُ المؤقّت ، أو ذلك الإنقاذ المؤقت الذى يشغل به أُمتَه فى حرب خارجية تتلهّى بها عن مَشاكلها الداخلية .

كان بسمارك يريد النجاحَ الصحيح لا النجاحَ الكاذب ، والإنقاذ الصحيحَ لا الإنقاذ الكاذب ، لأنه كان سياسياً صحيحاً ، سياسياً قلباً وقالَباً ، لا سياسياً زائفاً

ولماذا لا ينتظر حتى تتهيأ له الظروفُ وتُواتيه كلُّها فيعمل فى أَناةٍ وطُمَأْنينةٍ وهو واثقٌ من النجاح ثقتَه بعملية حسابية . أو قضية منطقية تدُل مُقدّماتها على نتائجها ؟

انتظر بسمارك . ولكنه لم ينتظر طويلاً . فقد عرَضت مسألةُ «دوقيتى شلزوك وهلستين بالدنمارك» . ولم يفاجئ فيهما النمسا بحرب ولا مُناجزة الا بعد أن تحقق من قيام إيطاليا الى جانبه لاسترجاع أملاكها من النمسا ، ولم يحرك جانباً إلا بعد أن وَثِق من أن فرنسا ستلتزم الحيادَ أو على الأقلّ أنها لن تُحَرِّك ساكنًا ضده

بَيْد أن مُشكلة جديدة قد خُلِقت فى الميدان . وهذه المشكلة هى أَنّ جُلّ أعضاء مجلس «فرنكفورت» تظاهروا ضدّ بسمارك وضدَّ بروسيا ، وظاهروا أعداء بسمارك وأعداء بروسيا ، أيّدوا النمسا . فهل وهَنت إرادةُ بسمارك ؟ بادر الى المجلس فحلّه ثم طلب من ممالكه مطالبَ رفضتها فأَعلن الحربَ ضدّهم وضدّ النمسا

ولقد انتصر بسمارك . وانتصر انتصاراً عظيماً . . . فهل انتهز هذا السياسىّ انتصارَه هذا ليُذلّ النمسا ؟

انّ سياسة بسمارك كانت كما قلت ، وكما أُكرّر ، «الجرىَ وراء الحكمة البطيئة النجاح ، ولكنها مضمونةُ النجاح ، نَعنِى بها الحكمةَ التى تقول : الأمور مرهونة بأوقاتها» . — ولقد قضتْ عليه هذه السياسة أن يذل ممالكه الصغيرة الآن ، مرجئًا النمسا . . . وقد نجم عن جريه على سياسته هذه أن قوّى الاتحاد الشمالى لألمانيا وأن تحالف مع الولايات الجنوبية سِرًّا

والآن نعرِض لشيء لذيذٍ فى ذاته ، شيء عن لغة السياسة . وبعبارة أدقّ نعرِض لموقف بسيط من مواقف بسمارك السياسية العديدة .

لقد طلبت فرنسا من بسمارك ثمنَ سكوتها والتزامها خُطةَ الحياد فى أثناء حربه . . . وألحَّت فى الطلب فسُئل بسمارك ماذا ينويه اذا أصرَّت فرنسا على مطالبته بتعويض نظير سكوتها . . . فقال كلمته المعروفة : « الصداقة ، الصداقة الدائمة » ومعناها طبعاً « الحرب . . . الحرب حالاً » ! !

وقد آن لنا أن نتكلم عن الحرب الفِرنسية الألمانية الكبرى ، وهذه تتطلّب وحدَها بحثاً طويلاً وفصلاً مستقلاً . لأنها سلسلة مواقف سياسية لبسمارك . وسلسلة أغاليط سياسية لغير بسمارك

وقد يكون من المُستَحسن أن نُشير هنا بإيماءةٍ الى غلطة من أغلاط الثقة . . وكم للثقة من أغاليط مُهلكة مضيّعة . . . نَعنى بذلك موقفَ « بنذتى » سفيرِ فرنسا فى ألمانيا وسَعيَه لعقد تحالُفٍ مع ألمانيا وتركه صورةَ ذلك التحالف مع بسمارك . . . وكان أساس التحالف ضمَّ مملكة بلجيكا . . . التهامَها وأكلَها وهضمَها . . . ولن يترك بسمارك صورةَ محالفة كهذه تحت يده للساعة المناسبة دون أن يستفزّ بها غضبَ بلجيكا وغضب انجلترا المتاخمة لبلجيكا

وقد كان ! وقت أتت تلك الساعةُ . وأتت سريعاً

كانت أسبانيا تُرشّح البرنسَ ليو بولد البروسىّ لعرشها . وكانت فرنسا لا تريد ولا ترى مصلحتها فى هذا . وقد تُبودلت مُكاتبات من فرنسا ناصحةً امبراطور ألمانيا بأن يبذُل نفوذَه لدى البرنس ليو بولد ليعدِل عن قَبول الملك . . . ويظهر أن الامبراطور نشَر بياناً أو أعدّ بياناً للنشر كان بلغةٍ غير مناسبة فانتهزَ بسمارك الظرفَ وزاد الطين بِلَّة . ولعِبت يدُه السياسية فى هذا البيان فنُشر بشكل ألهبَ الحماسةَ فى قلوب الطرفين

يقول البيانُ الأصلى ما مُؤدّاه : إن الملكَ طُلِب منه تأكيدٌ بعدم تشجيع أىَّ أمير بروسى لعرش أسبانيا ، وأن جلالتَه يرى أنه ليس فى المقدور ولا من العدل

البتَّ فى ذلك ولا سيما وأن ألمانيا لا تعلم عن شيء ما من هذا الموضوع إلاَّ عن طريق فرنسا نفسها . وأن الملك قد أشير عليه بعد هذا كله من مُشيريه، بعدم وجودِ ما يدعو الى مقابلة سفيرِ فرنسا للتكلم فى هذا الموضوع .

أما البيان الذى أعده «بسمارك» فبعد أن ذكر المقدمة الأولى انتهى بما يأتى : « قرَّ قرارُ الملك بعدم مقابلة جلالته لسفير فرنسا البتة . وأرسل جلالتُه اليه أركانَ حربه لإبلاغه بعدم وجود شيءٍ لدى جلالته لإبلاغه الى السفير »

ويقول التاريخ : إن « بسمارك » تَعشَّى مع « رون » و « ملتكى » من القواد المُحَنّكين وسألهما عن مبلغ استعدادهما وعن استعدادِ البلاد وقوتها . . . وقد خطب « بسماركُ » فى مجلس النواب خطبةً قال فيها : « ان فرنسا تُخيّرنا بين أمرين لا ثالثَ لهما . . . تقول لنا : إمّا الحربُ وإما الذل . . . »

ويقول التاريخ : إن النصرَ كان لألمانيا التى تمت لها وحدتُها ونُودى بملكها وليم الأول امبراطوراً عليها فى نفس العاصمةِ الفرنسية . وإن ذلك كان نتيجةً لتلك الجهودِ المستمرةِ القويةِ التى بذلها بسمارك . ويقول أيضاً : إن الملك قد أعرض عنه فى أُخريات حياته، وانه قضى أيامَ شيخوخته فى عُزلة وأسًى . وكان بُودّنا أن نستطرد الى إثبات ما لبسمارك من آراء فى الصحافة والمُعاهدات وشتّى الشئون لولا أن البحث قد طال جداً . ولكننا نختم هذا البحث بالرد على أولئك الذين يقولون إن «بسمارك» قرر بأن «الجرائد حبرٌ على ورق» انه كان مع ذلك شديدَ الاهتمامِ بالدعاية السياسية. كثيرَ العنايةِ بما تكتبه الصحف . وقد قال لبعض الذين نصحوا له بعدم الاهتمام بكتابة الصحف : « ليس فى مقدور السياسى ألا يهتمّ . . . لأنه يعتمد على رأى الجمهور فيما يعتمد عليه من مُختلف القوى . ذلك لأنه اذا ساء رأىُ الناس فيه فلِزامٌ فى عنقه ان يعمل على إصلاحه ، وإلا فانه يُصبح غيرَ قادرٍ على نفعهم، ولا مُوَفّقٍ لخدمتهم . »

حول بطل زنجى كبير

توسان الفاتح

(١)

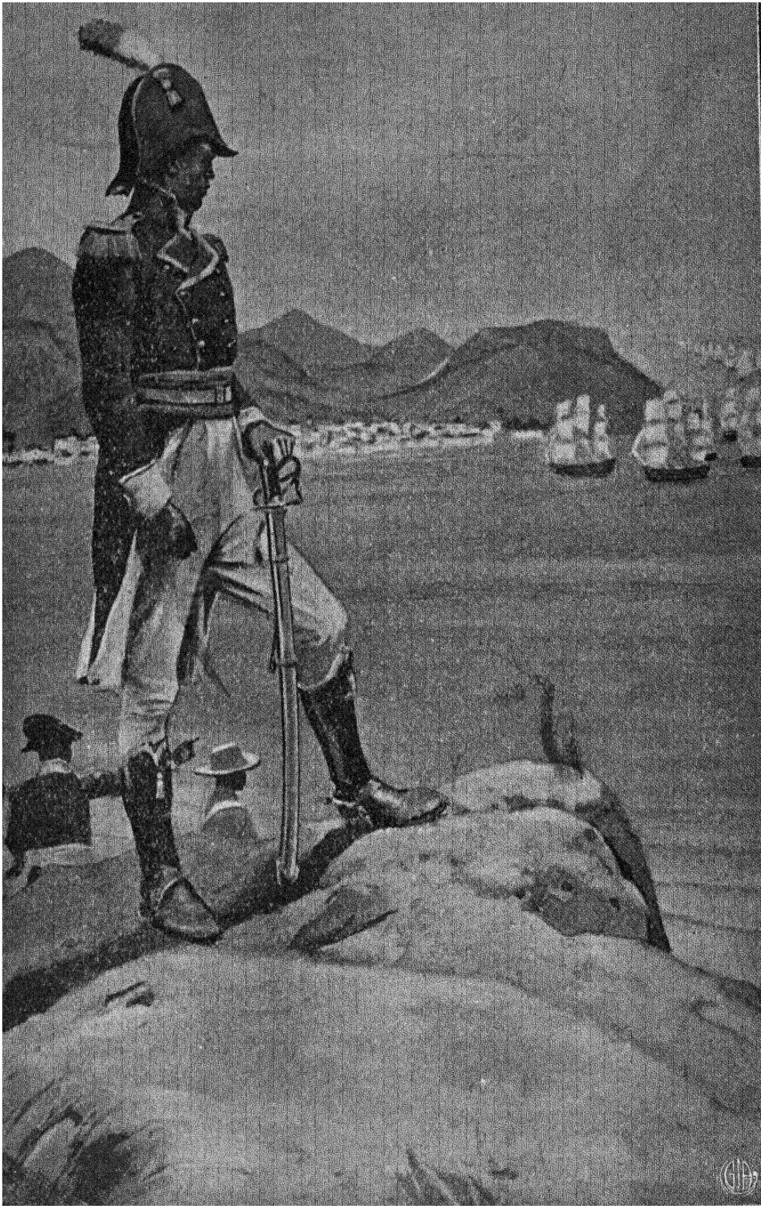
الحياة سريعةُ العَدْو . وإن اختلف الناسُ من فلاسفةٍ وسُوقة ، جَهابذةُ أفهام ، أم طَغامُ أحلامٍ ، فى ماهيّة عَدْوها ، أهو يَمنةً أم يَسْرةً ، أو هو إلى الأمام أم إلى الوراء ، فقد أجمعوا راضين أو كارهين على حركتها ونشاطِها ، كما أجمعوا على استحالتها وتَغيُّرها ، ما فى ذلك ريبٌ .

بَيْد أن الحياةَ السريعةَ العَدْو ، الحافلةَ بكلِّ شىء ، من نافع للإنسانية أو مُؤْذٍ لها ، مُغَذٍّ للروح أو قاضٍ عليها . هذه الحياة المُصطَخبةُ المتلاطمة ، قد تتطلّب منا بعضَ وَقفات للتَّرْوِئة والتدبر . فكم فيها من دروسٍ ، وكم فيها من عِبَر !

بل نحن بحاجة الى وقفات التَدَبُّر هذه ، لأن سرعةَ عَدْو الجيلِ الذى نعيش فيه كاد يخلق منا آلاتٍ ميكانيكية ، قِوامها المادة ، والحياةُ بالمادة ، وفى سبيل المادة ، وإذن فيجب أن نقتطع لحظاتٍ قليلات ، وَوَقَفات قصيرات ، لحياتنا الروحية على الأقلّ .

وإذا كانت الحياة سريعةَ العدو ، فهى سريعة النسيان أيضا . ولكنها مع سُرعة عَدْوها ، وسرعةِ نِسيانها ، ليست بعاقّةٍ ولا جاحدة . بل هى بَرّة مُقدّرة ، وإن كان بِرّها وتقديرُها يمشيان مِشيةَ السلحفاةَ لا مشيةَ الأرنب !

وقد تُثير الحياةُ أثناء سرعة عدوها غُبارًا كثيفاً يغمُر البعضَ ، ويحجُب عن النظر بَهْرة الضياء وسَنا النور . وقد يبتلع الغبارُ مَنْ يبتلع ، ويصوّر من الأشكال ما يصوّر ، ولكن الضياءَ لا بدّ أن يسطَع . وأما الزَّبَدُ فيذهب جُفاء وأما ما ينفع الناسَ فيمكث فى الأرض .



توسان الفـــاتح

(٢)

وهأنذا شبابَنا الناهضين أخاطبكم الآن فى بضع صفحاتٍ قليلةٍ من هذا الكتاب ، عن شخصٍ حَجَبَه عن أنظارنا فيمن حَجَبَ غبارُ الحياة وان كان عظيماً . وإن كان قد رثاه « وردسورث » الشاعر الانجليزى النَّابه . وان كان « آرثرمى » الكاتبُ المعروف قد اختاره أحدَ أبطاله الخمسةَ عشرَ ليُمثِّل به رَمزَ الحرية ، وليكون قُدوةَ التضحية ، فى الذَّوْد عن الوطن . ووضَع اسمَه الى جانب « ابراهام لنكلن » و «جان دارك » و « جارسون » و « سقراط » و « لويزستيفنسون » وغيرهم من رُسُل العدالة ومُحبّى الوطن ، وخَدَمةِ الإنسانية، ودُعاة الحقّ ، وزعماء العَباقِرة !

(٣)

تعرفون جزيرةَ «هايتى» فى الهند الغربية بالمحيط الاتلنتيكى . وقد تعرفون عنها أنها جَبليةٌ إذ أنها تُنبت القطنَ أو الأرز أو البن أو السكر . . . ولكننى أُحب لكم أن تعرِفوا عنها، الى جانبِ معارفكم الجمة، أنها أنبتتْ «توسان» قبل أن تعرِفوا أن مُكتشفَها « كولومبس » مكتشفَ أميركا . وقبل أن تعرفوا أنها أنبتت القطنَ فعندنا منه الكثيرُ ، وقبل أن تعرفوا أنها بلاد القَهوة فما أكثَرَ المقَاهى فى بلادنا ... أما « توسان » وصِنْف توسان فنَوَدُّ منه الكثيرَ فى بناء صرح الوطن ، قوياً مُشمخراً ، وحرًّا مستقلاً .

وقد تعرفون أن جزيرةَ «هايتى» هذه كان يحكمها أقيالٌ خمسة حين اكتشفها «كولومبس» وأن سُكانها حين ذاك قد بلغوا مليون نَسَمَةٍ . وقد تعرفون أن التاريخ الحديثَ يزعُم لكم فيما يزعم أن الهمجيةَ كانت ضاربةً بجرانها على الأهلين ، وأن العَسْفَ كان ناشراً جَناحيْه ، وأن الحكمَ المُطلق مُمسكٌ بالتَّلابيب . كما يزعُم أن «كولومبس» وجماعةَ الأسبان الذين معه ، قد حسَروا عن ساقهم فى بناء المدن

وتخطيط القرى ، ولكنّهم تركوا الحبلَ على الغاربِ ، وتركوا الدارَ تَنْعَى من بناها . وقد يكون فى هذا شيءٌ من الصحّة ، ولكن الصحيحَ الملموس أن المِليونَ قد تضاءل الى ستين ألفاً ، وأن كلَّ ميلٍ مُرَبَّع كان لإِنسانٍ واحد ، أو كل إنسان واحد يُوازى ميلاً مربعاً . وأن فرنسا قد وضعت يدَها على الجزيرة للاستعمار أو الاتجار . وأن خمسمائة من البيض قد سَلَّطهم القدرُ لحكم تلك الجزيرة الغنية . ولحكمها فى أيام نابليون ، أو فى عصر الثورةِ الفرنسية . . . عصرِ الحريةِ والإِخاءِ والمساواة !

وستفترضون أن عصرَ الحرية والإِخاء والمساواة فى تلك الأيام ، لا يختلف عن عصرنا الحاضر ، حيث لا تزال أممٌ يجرى فى عروقها دمُ الحياة وحبُّ الوطن والحرية ، وهى راسفةٌ بعدُ فى رِبْقة الانتداب ، وواقعةٌ بعد فى بَراثن الاستعمارِ مع وجود عصبة الأمم وبعد صَرخة « ولسن » فى حقِّ تقرير المصير ... ولكن المُهِمّ أن تعاموا اذا ماذكر بعضُ المؤرخين زيادةَ عدد سكان « هايتى » بعد الاستعمار الفرنسى حينذاك الى المليون ، كما كان قبل اكتشافها أن تُضيفوا الى تلك المعلومات شيئاً آخر قد ذكره التاريخ أيضاً . وذلك الشيء هو أن يدَ الاستعمار قد امتدت إلى إفريقية وملأت مئات السفن من القُطعان . وبعثت بتلك القطعانِ الى جزيرة هايتى الغنيّة . . . ولم تكن هذه القطعان المبعوثُ بها الى المَجزَرة بقطعان أغنام أو إبلٍ أو شاء ، بل كانت قطعاناً من الإنسان الأسود فى أعناقه الأغلالُ والأصفادُ . سَلَبوه من بين وطنه ومن بين صَحْبه وذويه قَسراً واغتصاباً ، ليكدَح فى سبيل غِناهم ، وليَفلَح الأرضَ فى سبيل نعيمهم ، وتَدْعيم ثروتهم .

(٤)

يقول التاريخ إن كثيراً من سراة « باريس » الفاتنة ، باريسِ الجميلة ، باريس المحبوبة من الجميع ، كانوا يعيشون فى أجوائها ، وينعَمون بلذّاتها ، ويرُوحون ويغدُون

فى غاباتها وبهَواتها ومسارحها من دم الرقيق الإفريقىّ الذى انتزعوه من أهله انتزاعاً ليعمل فى هايتى ليُبرد نَهْمتهم ويُطفىء شهوتهم . وقد يكون التاريخ صادقاً أو مبالغاً ولكنه لم يكذب ولم يبالغ حينما حدّثنا أن « توسان » الأسود قد خرج الى العالم من صُلب هؤلاء السّود الأرقّاء . وأن نفسَه العاليةَ قد تألّمت، وبَرّح بها الألمُ وهى تشاهد سوطَ العذاب يقع فى كل لحظةٍ على زملائه السود من سادتهم البيض !

يقولون إن « ابراهام لنكولن » قال كلمته المأثورة حينما شاهد الرقَّ وحالتَه : « إننى اذا أُتيحتْ لى الفرصة للقضاء على الرق فلأقضينّ عليه بشدّة » ولم يقل لنا التاريخُ ماذا قال « توسان » وانما قال لنا ماذا عمل .

مهما يُعذَّب العظيم فى حياته ، فان له من عظمته ما يُرَفِّهُ عليه ويَخلق له جوًّا يعيش فيه . والعظيمُ عظيمٌ فى كل شىء . فى شخصيته . فى جاذبيته . فى فُرَصه . فى عمله . فى أثره . وللعظيم سحرُه أينما حلّ وأينما وجد . ولن يقعد بالعظيم فقره أو عِوَزُه أو شقاؤه أو عذابه . إنه قوةٌ يُؤْبَهُ لها، ويحسّ بها أينما كان، وكيف كان.

(٥)

لذلك لم يكن من المستبعد أن هذا الإفريقىْ الذى بِيعَ بَيْعَ الرق ، وهو فيما قيل من سلالة ملوكِ إفريقية ، ووالده شيخ قبيلة من قبائلهم ، قد لفت نظر مالكه بفرط ذكائه ، وعظيم حَميته ، ومتقد جذوته . وأنه قد تزوّج زيجَةً رغيدة ، ورزق ثمانية أولاد ، وعَبَدَ الله بدلاً من الأصنام ، واعتنق المسيحية بدلاً من الوثنية.

ويقولون إن «توسان» قد برَع فى كل شىء . فهو السابح الماهر، والصائد النادر، والراكب القادر. وهو الى جانب تلك النواحى التى حَبّبته الى النفوس، والتى بذَّ فيها الأقرانَ ، كان نِعْمَ الزوج الصالح، والعامل الكادح، والوالد البرّ... وقد لاتدهشون اذا علمتم أنه قد تعلّم الفرنسيةَ الى جانب لغته الإفريقية ، لأن مولاه فِرنسىّ فلا بد

أن يلتقط منه الألفاظَ الفرنسية الفينةَ بعد الفينة . ولكنكم ستدهَشون بلاريب اذا علِمتم أن هذا الرجل الطموحَ قد بدأ يتعلم اللاتينية

ولننظرْ ما يقوله عنه « أرثر مى » وقد بلغ بطله ، فى الحرية، الرابعةَ والخمسين لتعلَموا أن السنَّ وان تقدمت لا تقعُد بالعظيم النفس عن تحقيق ما فيه كمالهُ ورقيه . ونفسُ العظيم لا تصيبها الشيخوخة . هى لا تهن ولا تعجِز . بل هى دائمًا فتيّة فى طماحٍ ووثوب . فيها حرارةُ النشاطِ ودمُ الحياة . يقول : « لما بلغ الرابعة والخمسين دفع الى جندى قبضة من النقود البورتغالية ليعلّمه القراةَ والكتابة ، وكانت الأيام أيامَ الثورة الفرنسية . وكان من المُجدى أن يكون « توسان » مُلِمًا بالقراءة . ولقد قرأ تاريخَ الرقيق، كما قرأ كتابًا آخرَ مَلأه بالأمل فى قرُب يوم يُحرّر فيه شعبُه . وكان ذلك الكتاب هو الكتاب المقدَّس »

(٦)

أين « كروبوكتن » و « كارليل » لأهمِس فى أذنيهما أن الثورةَ الفرنسية التى شادتْ بحقوق الإِنسان ووصل صداها الى « هايتى » المعذَّبة المسكينة . هايتى التى أرادت أن تُسهم بنصيبها فى تلك الحركة العالمية نحو تحرير الانسان من ربقة الانسان ، فبعثت بوفد تحت رئاسة مندوب من العبيد — ولا يُهمنى ولا يُهمكم ماهيّة هذا المندوب أكان مندوبًا فوق العادة أم تحتها ! — وإنما الذى يُهمنى ويُهمكم انه من الصميم، من أعماق الأعماق . . إنه وفدٌ من أَهالى هايتى ليُعبّر عن مشيئة أهالى هايتى وكفى. والذى يُهمنى ويُهمكم أن تعلموا أن هذا الوفد ذهب الى باريس ليطالب بالحرية السياسية . ليطالب بوضع العبد الأسود على قدم المساواة مع السيّد الأبيض . أليس القوم ينادون بنشيد الحرية والإِخاء والمساواة ، فلماذا لا يقابلُ الوفدُ رئيسَ البرلمان وأعضاءَ البرلمان ورجالَ الحكومة . ولماذا لا يَعِـد هؤلاءِ

الرجالُ بحرية هايتى . ولماذا لا يعد أصحابُ الاقطاعات فى جزيرة هايتى من سراة الفرنسيينَ وأعضاءِ البرلمان فى باريس بقَبولهم تلك المطالبِ القومية العادلة ؟

أقول أين « كربوكتن » و « كارليل » لأهمِس فى أذنيهما أن رئيس ذلك الوفد قد أُعدم عند عودته إلى مسقط رأسه فى هايتى ، لما كان من دعوته ودعوة الوفد فى باريس ؟

(٧)

لا يَخْدِمُ الحركاتِ القوميةَ قدرُ الشدة والعُنف ، ولا يُذكى حماستَها ويُضرم نيرانها . . . مثلُ الجَوْرِ والعَسْف . وهكذا كان فى جزيرة هايتى أثرَ إعدام رئيس الوفد المُطالبِ بالمساواة والحرية لها . فقد انفجر بركانُها ، وثارت ثائرتها ، وجُنّدت كتائبُها ، وسارت فى معاركها الحربية أمام فرنسا من نجاحٍ الى نجاح .

وهنا ظهر « توسان » وليدُ الحركة التحريرية . وزعيمُ النهضةِ القوميةِ . ظهر ايقودَ وطنه . وكان للرجل من سنّه وثقافته وتجاربه وتقديراته لمختلف الاعتبارات ما جعله يحول دون مجزرةٍ تقع على البيض من الثائرين ، مهما كان من هؤلاء البيض أو من قومهم . ظهر رسولاً للحرية ، ونبيا للوطنية ، وزعيماً للبلاد ، وقائداً للعباد . ظهر فكسّر الأغلالَ والأصفاد . ظهر فكاد الأهلون يُنادون به ملكاً ، بعد أن نزل الحاكم الفرنسى على إرادة الشعب وأسماه بحاكم الجزيرة الثانى ، ومحرّرِ شعبه ، والمنتقمِ لأبناء جِلْدته ! ظهر فكان أقدرَ منبّهٍ للحرية الحقة ، والثقافة الصحيحة ، وقدرةِ بلاده وظروف قومه من نفوس الفرنسيين .

وقد تندهِشون إذا علمتم أن الحاكم الفرنسى قد رغب فى أن يمنح الحريةَ السياسية لأهل هايتى طَفْرة فبدأ دَوْرُ « توسان » البعيدُ النظر الذى لا تغُرّه الظواهرُ ، ولا تخدعه القشور ... فبعث بولديه الى فرنسا ، ليتعلّما فى تلك الأمة وسائلَ حضارتها .

وأخذ فى إعداد المُعدّات فى سبيل الحرية السياسية بأن ينالهـا زملاؤه فى خمس سنوات ، ولـكنَّ الحاكم الفرنسى ، الذى وجد من توسان شخصية فذّةً ، مخلصةً لبلادها ، محبوبة من بنى وطنها ، واقفةً على بواطن الأمور ، مُطَّلعة على خَفِيات النوايا ، غُلِب على أمره أخيراً ، ولم يُفلح فى كل دسائسه ، وقفَل راجعاً الى مسقط وطنه ، بعد أن أثار عليه جماعة أنصاره ، اسمها جماعة « ريجود » وهو حزبٌ يجمع بعض البيض والسود بدعوى أنه من الخائنين المفرطين !

(٨)

ولـكن هذا الحـَكم كان من الأجنبي ، وما كان الأجنبيّ بالحـَكم العَدْلِ فى وطنيةِ من هو وطنى ، ولا فى تقدير إخلاص من هو مخلص . وان عاطفةَ الشعب وسَمْعَه وطاعتَه وقلبَه ويقينَه لا تكون إلا مع من هو منه . فقد اجتمع الشعبُ نحو زعيمه الذى آمن به ، فقاده « توسان » وكتّب كتائبه ، وجمع جنوده ، وفتح المدنَ ، وامتلك الحصون ، ولما وقعت جماعة « ريجود » فى قبضته أخذهم إلى الكنيسة ليعظَهم ووهبَهم طعاماً ولباساً وإيواء . . . !

أجل ،كان هذا الحـَكم من الأجنبي . . . . وقد صدر تصريح سياسىٌّ . . . . بيانٌ مطبوع ، وُزِّع على الناس باتهام « توسان » بتفريطه فى حقّ الوطن . . . . وطبعاً كانت يد الأجنبى هى المُحرّكةَ ، ولـكنّ عينَ الشعبِ تحدو زعيمَها بكلَئِها ورِعايتها . وعينُ الشعب لا تنى ولا تغفل . عينُ الشعبِ لا تنامُ .

سُحب ريجود بأمر نابليون ظاهراً ولـكن الواقع الصحيح أنه غُلب على أمره . ثم وافق نابليون على أن يحكم الجزيرةَ « توسان » ولـكنها مُوافقةَ اضطرارٍ ، ليس فيها من الموافقة إلا لفظها وظاهرها !

(٩)

وهنا قصة رائعة، عن وطنية رائعةٍ، فى هذا الزنجىّ الرائع .

أظهر نابليون لتوسان رغبتهُ فى أن يُطبَع على عَلَم هايتى بحروف من ذهب هذه العبارة : « أذكروا معشرَ السود الشجعان أن الجمهورية الفرنسية هى التى منحتكم الحرية » . ولم يكتف نابليون بإظهار رغبته تلك بل أصدر أمره بها . . . !

شىء جميل حقًا !

ولكن ماذا كان موقفُ « توسان » الذى اتّهمه الأجنبي بأنه متساهل ، وأنه ضعيف ، وأنه مفرط ، وأنه خائن ؟

هل قَبِلَ توسان ، الثاقبُ البصيرة ، الملتهبُ الغيرة ، النزيهُ الطّعمة. الشريف الشّمْعة ، الصادقُ الوطنية . . . هل قبل توسان أن يصدَع بأمر نابليون فيكتب على علم وطنه ما يُشعر بالتّبعِيّة ، وفَضْلِ الغير على أبناء جِلْدته ؟

وهل صحيحٌ أن الحرّية السياسية قد مُنحت لأهل هايتى من فرنسا ، أم انتزعت منها انتزاعًا ؟

وهل الحريةُ القوميةُ مِنحةٌ تُمنح ، أم هى حقّ طبعىّ للجميع ؟

الواقع أن توسان قد رفض مطلبَ نابليون . رفض أن ينقُش أكذوبة كهذه على علم بلاده . رفض أن يُطبَع ما لا يُشرّف قومَه على عُنوان كرامتها ، وصَفحة نهضتها . وكتب لنابليون بذلك . . . ثم أصدر بيانًا يدعو فيه الى الوِئام . الى الوَحْدة . الى الطمأنينة . الى التسامح . الى السكينة . ولكنه مع ذلك كلّه رفض فى إباءٍ مطلب نابليون

كان توسان يُقدّر الدسائس التى تحاك ضدّ بلاده فى باريس، فبدأ يكتب لنابليون فى سبيل قَضيّة بلاده ، وكان توسان فى ذلك نِعمَ المحامى القدير ، ونعم الوطنِىّ العظيم

(١٠)

ما تزال البلاد تتصل بفرنسا القوية . فرنسا التي دَوَّخت أوربا في تلك الأيام. أيامَ الثورة الفرنسية . أيامَ نابليون بونابرت . وما يزال لفرنسا سفيرٌ سياسيٌّ ، وإن كان الحاكم توسان الوطني العظيم .

بل ما تزال دسائسُ الدولة المستعمرة مُستمرّة لا تنقطع . وما يزال السفير يتدخّل في أمور البلاد الداخلية . . . واذا لم يتمكن من شيء من تصريف أمورها طِبقَ مشيئته ، أو لم يتمكن من خَلْق أحزاب تُناصره وتؤيده ، أو تُعاكس توسان وأعمالَه الوطنية ، فإذن الى الدسّ والخَتَل ، والى خَلق المشاكل والمعضلات ؛ فماذا كان من توسان الوطنيّ العظيم ؟

لم يتردد في وَضع حدٍّ لهذا كله . . . وأخيراً اضْطُر الى القبض على السفير الفرنسي ، ووضعه على باخرة لتَقِلّه الى بلاده . . . الى فرنسا ؟

توسان الحاكم الزنجي يطرد سفيرَ فرنسا ثم يقال عنه من حاكم فرنسا السابق قبله في بيان يُذاع بين الأهلين : إن توسان وطنيٌّ خائنٌ ، ومفرّط فاتر .

(١١)

ولكن توسان الزعيمَ الوطني ، قد وهبته الطبيعةُ ذكاءً سياسياً مفرطًا . لقد وجد لاسبانيا اقطاعات أسبانية في وسط البلاد الهايتية . واذا كان لفرنسا صِلةٌ سياسية انتدابٌ أو استعمار . أو حكم أو ما شئت . ما صفة أسبانيا ؟

ولماذا لا يغزو هذا السياسى المحنّك تلك الأراضي ليضمّها الى بلاده لأنها قطعةٌ من بلادها ؟

ستقوم عليه أسبانيا وهو في نفس الوقت قد أساء الى فرنسا إذ قبض على سفيرها وطرده طرداً . ثم أساء الى نابليون إذ رفض كتابة العبارة الذهبية المسيئةِ

لكرامة قومه مهما كان نوع عَسْجدها وقيمة ذَهبِها . فماذا يفعل إزاء تلك المشاكل الحَرِجة الدقيقة ؟

وجد الزعيمُ الوطنى حلاًّ حكيماً يتفق والظروفَ السياسية التى تُواجهها بلادُه ، وهذا الحلُّ الحكيمُ يقضى أن يطرُد أسبانيا باعتبار أن صِلةَ البلاد قائمةٌ مع فرنسا . . . ولو فى الظاهر . وهكذا فعل وبهذا وُفّق ونجح !

(١٢)

ولكن شيئاً آخر يُريده . يريد دستوراً كاملاً . وحريةً كاملةً الآن يريد أن يستفيد قومُه برجالاته وأقطابه . يريد المساواةَ السياسيةَ الحقّةَ . يريد أن تكون شِرْعة الزواج قُدسيةً . يريد أن يجعل مرافقَ البلادِ للجميع . ثم يريد شيئًا آخر لا ريبَ فى أنه أفزَع فرنسا وهالها . وذلك الشىء الآخر هو حرية الاتجار مع الغير . وكيف تقبل فرنسا ذلك وهى تعتمد فى ذلك الحين على خيرات تلك البقرة المُدِرّة ؟

أجل! لقد كان «توسان» أولّ من فكر فى حرية التجارة قبل السير روبرت بيل بخمسين سنة . . . أو على الأقل كما يذهب الى ذلك مؤرخه « آرثرمى »

ولقد كتب « توسان » بكل ذلك الى فرنسا . وبعث بمشروعاته الى نابليون، الذى ضاق به ذَرْعا . والذى لم يجب على عشرين كتابًا له .

ضاق نابليون ذرعًا بكل هذا . فقد وجد رأيا عامًا جديداً يجترف تلك الجزيرة اجترافًا . وجد فى باريس فى برلمانها صرخات من هؤلاء الزنوج ووجد شيئًا جدّيًا ليس بهَزْل ولا لَعِب . وجد دعوة متأصلةً ، وحماسًا قويًا ، وإيمانًا راسخًا ، ورجالاً يُحفل بأمرِهم ويُحسب حسابُهم .

ضاق نابليون ذَرْعًا بكلّ هذا ، فقرّر إرسالَ تجريدة لتربية هذا الزِنجىّ الثائر

فى الواقع . المطالب بحقوق قومية فى ظاهر الأمر . وقرّر أن تكون التجريدةُ قويةً لتردع القومَ لأن الدعوة القومية قد تأصّلت فى النفوس . فإذن يجب أن تكون ثلاثين الفاً من خِيرة جُند باريس . وإذن يجب أن ترحل تلك القوةُ الى «هايتى» ، ويجب أن يكون على رأسِها شخصٌ يثِق فيه نابليون . وإذن يجب أن يكون ذلك الشخصُ زَوْجَ شقيقته الجنرال « لـكلرك »

(١٣)

نعلم أن لتوسان ولَدَيْن يتعلّمان فى باريس . فلماذا لايستغِلّ نابليون، المعروف بانتهاز الفُرص ، وأنه ماكيافلىّ النَّزْعة ، أو مُعاوِىّ السياسة . لماذا لايستغلّ الظرف ؟

أليس فى مَقدُوره أن يدعو ولَدَى توسان الى وليمة وأن يُهدى إليهما ما لذّ وطاب ، وما جُمل منظرُه ، وإن ساء مخبرُه ؟

أليس فى مقدوره أن يبعث بهما مُـكَرّمين مُعزّزَيْن برسالة أو هَديّة أو كتاب وُدّ ونُصح ، على باخرة ثم يُتبعها فى التوّ واللحظة بذلك الجيش العَرَمْرم، تحت إِمْرة صِهره ، الذى يحمِل أمراً رسمياً « ديكريتو » بإعادة حالة جزيرة هايتى الى ما كانت عليه قبل عام ١٧٨٩ ؟

وما معنى ذلك ؟

معناه أن نابليون بجرّة قلمٍ ، قد حكم بإعادة الرقّ والعبُودية على أهالى تلك الجزيرة ، لأنها تُطالب بالمَزيد من حقّها الطبعى فى الحياة والوجود .

وهكذا فعل وقد أضمرَ فى نفسه أن يتخلّص من هذا الزعيم الوطنىّ العظيم .

(١٤)

سِتّون باخرةً تحمِل زَهرة الجنود الفرنسية قد رَسَتْ الآن الى جزيرة هايتى وقد خفّ « توسان » لاستقبال ولديه بعاطفة الأب ، فماذا رأى ؟

رأى «لكلرك» وقد دفع خنجره تحت ردائه وفهم ما وراء عِصام، فأُسقط في يده، ورفض أن يستقبل الأسطولَ، وإن كانَ يحمل فَلَذات كبده وسُويداء قلبه.

وقد حاول لكلرك أن يُقنع الوالدَ عن طريق ولديه بمَنْصِب القائد العام إن سلّم وأناب، ورجَع وتاب . . . وإلا فهو خارجٌ عليها، وعليه حكمُ الخوارج العُصاة. ففضّل الثانيةَ على الأولى وكان لوطنه من الأوفياء المخلصين.

أعلن الفرنسيون الحربَ. وكانت حرباً ضَرُوساً أَبْلَى فيها «توسان» وأبناء وطنه البلاءَ الأَوْفى حتى غُلِب الفرنسيون على أمرهم، واعترف «لكلرك» مُرغَماً بحرية البلاد، كما كانت، وبسلطان حاكمها الوطني توسان كما كان، وعاد السلامُ الى رُبوع هايتى، بعد أن وَعَد القائدُ الفرنسى باحترام حقوق البلاد، وترْكِ تصاريف شئونها جميعاً الى زعيمها الوطنيّ توسان.

ومن الممتع أن نقرأ لتوسان قوله للقائد الفرنسى وقد سأله من أين يجمع الأسلحة ليحارب بها الفرنسيين فأجابه: «أغتصب الأسلحة منكم أنتم! . .»

(١٥)

لنترك ذِكْرَ الطاعون الذى أصاب الفرنسيين والوطنيين فى تلكم الأيام لأنّه من يد الطبيعة وصُنْع القدَر، ولنذكر طاعوناً آخر أشدّ خطراً على الآدمية من فتك ذلك الطاعون الطبعى . . . . لنذكر ذلك الطاعونَ الخلقيّ . . . طاعون الخِبّ، والخَتل، والدسّ، والخديعة، اذا ما ذكرنا كيف سِيق توسان، وأولادُ توسان، وأسرةُ توسان، الى فرنسا ليُلْقى بزعيم تلك البلاد فى غَياهب السجن، لأنه كان وَفيًّا لبلاده مُخلصاً لقومه.

يقول «آرثرمى»: إن نابليون زعيمَ البيض لايستطيع أن يحتمل توسان زعيمَ السود. أوأن عصرَهما لا يمكن أن يحتملَهما معاً . . . . لذلك استدرج «لكلرك»

القائدُ الفرنسى « توسان » الحاكمَ الوطنى الى حُجرة حيث أُختفى فيها عشرون ضابطاً مُدجّجين بالسلاح ومن ثمّت الى الباخرة .... الى فرنسا . وهنا يجب أن نذكر طاعوناً آخر .... هو شقيقة نابليون وزوجةُ القائد لكلرك .... فقد كانت مُستهترةً غيرَ حافلة بشيء إزاء ملذّاتها ومَسراتها وسهراتها وحفلاتها ... !

وهنا يجب أن نذكر مَوْقفاً مشرفاً لصديق توسان وأحد أتباعه وهو « العجوزُ كرستوف » وقد طلب اليه أحدُ الضباط أن يَشْرب نخباً فقال له : « ألا تعلم أيها الشيء الأبيض التافه، أنى أشرب دمك أنت ودمَ قائدك ... » ثم انفجر مِرْجَلُ غضبه ، وطالت خطبتُه وحملته، حتى انفرط عِقدُ الاجتماع ، وقد تملّك الفزعُ الجميعَ .. ولايعلم إلا الله ماذا كان من أمر شقيقة نابليون. وإن كان التاريخ يقول: إنها سافرت الى فرنسا وحدَها، لأن زوجها قد أصيب بالطاعون أخيراً ، ثم دفن مع العظماء فى «البانثيون» ، وكان الأجدرُ أن يُدفن فيه مُقارعه الكَمِىّ الباسل ، ذلك الزنجىّ الوطنى العظيم الذى تُرِك فى معقل « جوكس » حيث وجدت جثته بعد أيام .

(١٦)

وانكم سائلونى بلا رَيْبٍ عما كان من أنصار « توسان » العظيم . لقد ثاروا ولعلكم قد قرأتم ما فعله « دسالين » وغيرُه من كُماتِهم . لقد قَتّلوا فى الفرنسيين شر تقتيل ، وشَرّدوهم هنا وهناك فى أنحاء تلك الجزيرة ، ولم يُهلعهم قتلُ ستةَ عشرَ من صناديدهم ، ولا اعتقالُ من اعتُقِل من زَهرة رجالهم . ولم تهجَع لهم عين إلا بعد أن رحل الفرنسيون تحت رحمة المراكب الإنجليزية ، عن تلك الجزيرة المقدّسة لذكرى بطلها الوطنى العظيم . الذى كتبنا لكم مُوجزَ حياته للذكرى . وللذكرى فقط . والذى اقتبسنا جُلّ ما فيها من حقائق ووقائع مما دَبّجته يَراعةُ مُؤرّخ انجليزىٍ مُنصفٍ هو الأستاذ « آرثر مى » لا من عندياتنا ولا من مخيلتنا؛ وكتبناها هنا للتاريخ وعظة التاريخ .



ادوار بوك

تاريخ صحفى عصامى خطير

ادوار بوك الهولندى الامريكى

(١)

هى قصّةٌ تدعو الى الإكبار كما تدعو الى الأقتداء ؛ وكيف بكم لا تكبِرون الإرادة القويّةَ فى الرجل القوىّ الذى لا يعبأ بالحياة وصِعابها ، وما إليها من جلادٍ وكِفاح وأتراح وأفراح . ثم لا يدفعكم إكبارُكم الى الأقتداء بها وهى من المُثُل العُلْيا فى القدرة على الدأب وراءَ الغايات فى غير مَلَل ولا كَلَال ، وفى إدراك المرءِ واجبَه نحو نفسه وشعبه . ثم فى القيام بها على خير مثال .

هى قصّةٌ تدعو الى الإكبار كما تدعو الى الأقتداء . أمّا عن الإكبار فحَسْبُكم عنه الجهودُ العظيمةُ التى بذلها صاحبُها فى تكوين نفسه ، وفى شقّ الطريقِ لها وَسَطَ مُحيطاتٍ مُدلهِمَّةٍ ، وأجواءٍ قاتمة ، وعَوَزٍ وخَصَاصَة ، وفقرٍ وإضاقة ، وفى بلادٍ ليس له فيها « ناقةٌ ولا جملٌ » محتملاً من الأعباء كلّ ثقيلٍ وعسير . حتى بنى لنفسه مجداً باذخا ، واُسما نابهاً ، وجاها عريضاً . وأما عن الأقتداء فخليقٌ بمن كانت هذه جهودُه أن يترسّم كل محبٍّ للكمال خُطاه ليبنىَ لنفسه مثلَ هذا المجدِ الباذخِ والجاهِ العريض .

تلك هى قصّةُ المهاجرِ الهولندِى « ادوار بوك » صاحبُ كتاب «تاريخ حياتى» ذلك الكتابُ الممتعُ الذى نشره على الناس « ثورنتون بتروورث » وقدّمه اليهم الراحلُ الكريمُ « اللورد نورثكليف » شيخُ صحافةِ البريطانيين عن شيخ صحافة الامريكانيين .

(٢)

هىَ قصةٌ تدعو الى الإكبار حقا كما تدعو الى الأقتداء ويكفى أن تعلموا أنَّ « اللورد نورثكليف » الذى أرجو أن أحدّثكم عنه قريباً ، والذى لا تزالون أنتم وملايين الناس، تَسْتَمتِعون فى ساعات فراغكم بما تستمتعون به فى سواع فراغكم من قراءة صحفه العديدةِ الواسعةِ الأنتشار ، فى رُخْص ثمنٍ ، وجزيلِ نفعٍ ، وتعدّدِ موضوعات . يكفى أن تعلموا أنّ نورثكليف هذا شَدَّ ما يتمنى بكلِ ما فى مقدوره من حَوْلٍ وطَوْلٍ ، أن يضع فى حَوْزة كلّ شابٍ — داخلٍ فى مُعْترك الحياة لأُقتحام صِعابها ، وأرتياد مَجاهلها ، وتكوين مستقبله فى معمعتها وميدانها — قصة ذلك المهاجرِ الهولنديّ الذى حطّ رحاله مع أُسْرته وهو لم يَعْدُ السابعةَ من عمره فى الولايات المتحدّة ، وقد عَضّ الدهر أُسْرته بنابه الأزرق ، وتنكّرت لهم الأيام بعد صفاء ، فأضاعت ما لهم من نَشَبٍ وثَراء ، أو إن شئتم فقولوا أضاع الوالدُ بمشروعاته الفِجّة[1] العقيمة ، ومُخاطراته الطائشة ما كان لهم من مالٍ وعَقار . وأصبحت الأُسرةُ الكبيرةُ العَدَد : من والد ووالدة وصِبْيَة أربعة ، يعبث بهم القَدَرُ القاسى عَبَث النَّكباء بالعود .

بل يَكفى أن تعلموا أن « ادوار بوك » صاحبَ قِصّتكم هذه بدأ حياته بعمل لا يُصيب منه إلاّ العُلالة قَطْرةً قطرةً ، حيث كان يَنحت من جُلْمود الزمن ما لا يزيد عن العشرة القروش عدداً فى جَهْد سبعة أيام . بدأبٍ ونشاطٍ ، وكدٍّ وإعنات ثم انتهى به مَطافُ جُهده المتواصل ودأْبُه الدائم الى أن أصبح شيخَ صحافة الأمريكان، والرجلَ النافذَ الكلمة الذى يُشار اليه بالبَنَان .

(١) الفجة : التى لم تنضج ولم تتهيأ بعد .

(٣)

ما أقسى يدَ الزمن ، ولكن ما أعدلَ ميزانَ القَدَر ! تُصيبُ الإنسانَ الضائقةُ وينزلُ بساحته الإعوازُ ، ويُعَذبُ بنيران المَتْربة والإعسار ثم تَصْهَرُه الحاجةُ والفاقةُ — كلّ هذا صحيحٌ لا ريبَ فيه ، بَيْدَ أنه يخرج من هذا كلّه ، إن كان ممن أُوتوا العقلَ الرجيحَ ، والنفسَ الوثّابة ، والبصيرةَ الثاقبةَ السديدة ، وقد تسلّح للجهاد بأسلحة لا تُفَلّ ، وهمّةٍ لا تَكِلّ ، وعزيمةٍ لا تَخُور ، وجَلَدٍ لا يَنْصَرِم ، وذخيرةِ إرادةٍ لا تَنْضُب ولا تَنْعَدِم .

وقد تُعطِى الدنيا باليمين وتأخُذُ بالشمال ، ثم هى لا تجود بمعاونتها وميسرتها إلاّ فى القليل وبالنَّزْر التافه ، ثم هى مع قِلّها وشُحِّها ، ومع تلوّنها وتنكُّرها تُخْرِج من فوريقتها ما يدعو الى التجلُّد ، ويبعث على الأمل ، مع ما فيها من إضاقات وغُصاصات ، ومع ما يحِفّ بطريقها من شدائدَ وصعوبات .

أليست الحاجة تدعو الى السعى ؟ ولعمرى إن السعى ليحمل على أكُفِّه العَبِلَةِ أو الواهيةِ نُجْحًا أو خيبةً . فان كان نُجْحًا فهو وسيلة التوفيق ، وإن كان خيبة فهى الأمّ الولود لكل توفيق .

ألا إنّ المالَ مصدرُه العُدْم . والخطأَ طريقٌ الى الصواب . وما كان التوفيقُ إلاّ بعد تجاريبَ مُستمرّة من كبواتٍ وهفواتٍ وفَشَلٍ وخَطَلٍ ، وما كان النجاحُ إلاّ بعد عِثارٍ يتلوه عِثارٌ . وعملٍ فى إثْر عمل؛ فلا تنالنّ الصعوبات من قلوبكم وحَزْمكم وأصالتكم، ولا تتضاءلون إزاء الشدائد والإحن، فلعمركم إنّ اليأس ليُذهب إرادتكم شَعاعًا ، ويُذيب نفوسكم التياعًا ؛ بل إنكم لجديرُون بأن تترقّبوا من الخطأصوابًا ، وبعد كَبْوة الدهر استقامة وانتصابًا، وإنكم لجديرن بألاّ تخشوا الفقرَ وإن تتقوه ، وأن تخشوا الغنى وإن أردتموه ، وجميلٌ بكم أن تقولوا فى إيمانٍ «لأحبُّ الينا أن نولد فقراء

فنسعى ، من أن نولد أغنياء فنضِلَّ ونطغى ، أو نتبلّد فنشقى »

تلك صفحة ستقرءونها بعين رَويَّتكم من تاريخ ادوار بوك الذى ستعلمون ما كان من أمر مُخاطرة والده بماله ، واضطرار الابن للكفاح صِفْر اليدين إلاّ من حَوْليهما وقوتيهما ، خاليَ الوِفاض إلاّ من إرادةٍ مُرْهَفة ماضية ، وعزيمةٍ قويّة وثّابة ، وروح فيّاضة ناهضة ، ومن ثَمَّ قد آن لكم أن تُلِمّوا إلمامةً موجَزةً بصنوف كِفاحه ، وأن تَطَّلِعوا معى على فَصْلٍ من مُسببات نجاحه .

(٤)

نعلم أن صحفيّنا الأمريكيّ الكبير هولنديّ الوطن ، وأنّ مدينة «هلدر» الهولندية لها الشرف العظيم من بين مُدُن هولندة الجميلة ، إذ أنجبت « لادوار وليم بوك » بطلَ موضوعنا فى اليوم التاسع من شهر اكتوبر سنة ١٨٦٣ ؛ ونعلم أن والده رحل بأسرته الى الولايات المتحدة ولمّا يتجاوز « بوك » السابعة من عمره ، وأنّ طفلنا كان يدرس بمدرسة « بروكلن » نهارًا ، وفى غيرها ليلاً . وقد نعلم ما بعد تلك المراحِل من حياته من صنوف جهوده القيّمة الجليلة ولكنّا بأمسّ حاجةٍ لأن ننظر نظرةَ إنعام وتَرْوية ، ونظرةَ عَطْفٍ وحَنَان إلى البيت الذى نشأ فيه وترعرع ، وإن كان السرّ فى السكّانِ لا فى المكان كما يقولون ! فى ذلك البيت الفقير الحقير الذى تنطق مبانيه فيما تنطق عن فَقْرٍ وعَوَز ، ونُضُوب مَعِين ، وقلّة مال

بدأ « بوك » منذ السابعة من عمره مع شقيقه الأكبر يساعدان ربّة المنزل فى عملها المنزلى ، وما كانت ربّة المنزل إلاّ أمّه المسكينةَ التى اُضطرها سوء الحال ومَتْربة الزوج ، وقِلّة الرزق الذى ما كانوا يصيبون منه إلاّ القَطْرة بعد القطرة ، الى استخدام ولديها ساعات البكور ، وعَهِدت إليهما بإيقاد النار ، وإنضاج الطعام وغسل الأوانى ، وشتّى المطالب المنزلية . ولَعُمْرُكم ما كانت فَتْرة راحَتَيْهما إلاّ حيث

كانا يذهبان الى المدرسة حتى إذا ما عادا ، وأُنهيا من استظهار دروسهما ، وأداء واجباتهما المدرسية ، واصلا فى الأصيل ما بَدَأَاه فى البكور من عملٍ يراهُ البعض مُزْرِيًا وأراه نبيلاً مُشَرِّفًا ، وقد آن أن ينظر الجميع الى كل عملٍ ما دامَ منتجًا نظرةَ احترام وتقدير ، فطاهى الطعام فى مطعمه ، والخادم فى بيته ، ومنظِّف الملابس فى عمله ، وكلّ أولئك فُرِضَ علينا احترامهم وتقديرهم ، لا نبذهم واُحتقارهم ، بِدعْوَىٰ انحطاط ما يتناولون من أعمال . فالعملُ[1] وإن قَلّ وصَغُر ما دام الى الخير فهو إكليلٌ من الشرف ، وشعار الفَخَار على رأس العامل أَنَّى حلّ وأَنَّى اُرتحل .

ولَتَعْلَمُنّ غيرَ مُعَلَّمين أنّ سنّ الطفولة مع الفقر أو الغنى لهى سنُّ الصَّخَب والضوضاء ، والسعادةِ والهناء . هى سنُّ العَبَثِ والمَرَح ، والضجيج والفرح ، ولكنّ العملَ الدائمَ ، العملَ المستمرّ ، العملَ من حيث هو ، سواءٌ أكان عملاً يدويًّا ، أم عملاً عقليًّا ، لهو خيرُ مدرسةٍ تَهْذِيبيَّةٍ تَغْرِس فى الطفل صفاتِ الرجولة وإن كان لم يتجاوز بعدُ سنّ الطفولة ، وتراهم كالفروخ بعد خروجها من البيض ، ينبت العمل لهم ريشًا من الخبرة يقيهم عواصفَ تلك السنّ المَرِحةِ الطائشةِ ، كما أنّ لهم منقارا صلْدا قويًّا يلتقط الرزق التقاطًا ، وأرجلاً شديدة المِراس تحملهم إلى حيث الكَلأ والمرعى . وأجنحةً غِزارًا تطير بهم الى كلِّ مكانٍ حيث يُصِيبون منه شِبَعًا وريًّا .

فاذا كان « بوك » قد تعذّب فى طفولته وهو ينْفُث بأنفاسه الحارّة فى أعواد الحطب ، وقد تخلّل الدُّخَانُ عينَيه وخالطَ رِئتَيْه ، فقد وُفّق بعد أن أفلح فى إنضاج طعامه بيديه ، أن يُصيب فى مستقبل أيامه رزقَه الوسيع بذينك اليدين الماهرتين أيضا

(١) يقول المثل العربى : « كاب اعتس خير من كاب رابض » يضرب فى التشويق الى السعى والكسب

(٥)

ولنُلْقِ الآن نظرةَ عِظَةٍ واعتبار إلى طفلنا الدءوبِ وهو فى طريقه إلى المنزل حيث وقف أمامَ ألواحٍ زجاجيّة فى حانوت خبّاز .

وقد يَدُور بخَلَدكم أنّ عوَزه وقصورَ يده عن تناول ما لذّ وطاب من شهىّ الحلوى وجَوْدة الخبز مما حرّك فيه الشهيّة ، وأسالَ منه اللعابَ . وهو لا يزالُ بعدُ طفلاً ، وللطفولة رغبة جامحةٌ لا يَرْدَعها عقل ، ولا يَفُلّ من حدّتها حزامة ، ولا ينقع من غلّتها بَرَدُ القناعة ، ولا تنزل بساحتها حكمةُ التجلد، ولا يُلَطِّف من غَرْبها مَرْهَمُ التأسّى وتِرْياق الأمل . وقد تكونون مُصِيبين فى فِراستكم الى حدٍّ بعيدٍ لأن الطبيعة البشريّةَ واحدةٌ فى مَنْحَى تصرّفاتها ، ونزولها عند مضطرم رغباتها . بَيْدَ أنّ الواقعَ فى موقف بَطَلنا الصغير غيرُ ما تصوّرتم ، فقد وقف ينظر الى زجاج الخبّاز يتخيّل له من ورائه مَنْفَذَ عَمَلٍ ليُصيبَ منه رزقا ، عساه يستطيع به مَعُونة أمّه ، وعساه يُوَفَّق بعد أدائه إلى توسيع رزقها ، وترفيه حالها ، وترغيد عيشها .

فماذا رأى ؟

لقد رأى الزجاج بحاجةٍ إلى النظافة ، ورأى أنه فى مقدوره . وهو لا يزال بَضّ الإهاب لم يعدُ بعدُ مَيْعة الطفولة أن يغسله ويُلمعه . ويعملَ على إزالة أَدْران الذباب من صفحته ؛ فلم يتردّد فى الدخول على صاحب الحانوت والإفضاءِ اليه بمقترحه ، وعَرَض الخدمة عليه ، فقبِلَ الرجلُ رأيه ، وعَمِل على استخدامه فى تلك الدائرة الضيّقة ، واُتفق معه على أن يعطيه خمسين سنتيما كلّ أسبوع على أن ينظِّف الزجاج فى خلاله دَفْعتين .

باشر طفلنا عملَه بهمّة الراغب فى تحسين حاله ، والاستفادة من ظَرْفه المُتَاح ، ثم حَدَث أن تغيّب الخبّازُ بُرْهَةً عن حانوته وعاد بعدها فلاحظَ ما أقرّ عينَهُ ، وأثلجَ منه الفؤاد .

لاحظَ طفلَنا الصغيرَ يلُفّ الفطائر بإحكام وإتقان ، فرأى ألاّ تُفْلِت الفُرصةُ من يديه ، وعملَ من فَوْره ولحظته على استخدامه بعد ظُهر كل يوم فى مساعدته على حركة البيع والشراء . نظيرَ منحه ريالاً فوقَ أَجْره الأصلى ، واغتبط الطفلُ بعمله الجديد سَوَاء فراغه من دراسته ومن عمله المنزلىّ ، إذ تمكَّن فيهما أن يفيدَ أُسرته ويُسعدَ والدته . ولم يتردّد البتّة فى الاتفاق مع الرجل على الحضور يوميا بعد كل ظهر ، على أن يستريح بعد ظهر كل سبت ، حتى لا يُحْرم طفولته وأُسرته مِمّا يعود عليه وعليها من رياضة أو راحة ، أو استئناف خدمة هم بحاجة اليها .

(٦)

ولكنَّ همةَ الطفل لم تستمرئ راحةَ السبت . وسواء أجاءت هذه العُطْلة وفْقَ طلبه هو ، أم لأَن العادة قد جرت بإقفال الحوانيت بعد ظهر ذلك اليوم ، فإنّ الطفل قد فكّر طويلاً فى طريقة تُمكّنه من العمل والربح ذلك اليوم ، إذْ هو أيضاً يومُ عطلةٍ مدرسيةٍ .

وُفِّق الطفل أخيرا الى الانتفاع بتلك العطلةِ فاستغلّها فى توزيع الصحف ، وتناولَ على ذلك ريالاً آخر . وبذلك أصبح أجرُ طفلنا فى ساعات فَرَاغه من الدراسة ومن العمل المنزلى ريالين ونصف .

أجل ! استطاع ذلك الطفلُ الصغيرُ الجسم ، الكبيرُ العَزْم ، أن يستفيد ويَزيد فى دخل والدته ما يقرُب من جنيهين كلّ شهرٍ ، ومع ذلك لم تقف همته عند حَدٍّ ، بل راح يُفكّرُ فى المزيد .

وهأنذا مُوَافيكم بما فكَّرَ وفيما عمل : —

إلى جوَار منزل أُسرته ، تقف الخيول التى تُستخدَمُ فى جرّ عربات السفر من « بروكلى » الى ما جاورها من المدن والقرى . وهناك مَسْقًى لشربها ، فلماذا لا توجد هناك مسقًى أخرى لشرب الرجال ؟

تطوّرت الفكرة فقام يحمل بنفسه الماء للعَطْشى من المسافرين ، فأصاب من ذلك حوالى ستّ ريالات أسبوعيًّا وكان يقوم بذلك بعد ظهريْ الأحد والسبت ، فأفاض على أسرته أخلافَ الرزقِ مِدْرارا .

فما عتم طفلنا الصَناع « بوك » أن أضحى حديثَ المجالسِ والبيوت ، حتى أنَّ صغارَ الأطفال الذين فى سنّه قد ساقتهم أمهاتُهم الى تقليد « بوك » فأصبح له فى عمله الجديد مُزَاحمون عدّ ، ومنافسون كثيرون . فماذا فعل ؟

هل تسرّب اليأسُ الى قلبه فترك ذلك العمل أم هل حَسَرَ عن ساقه ، وقدح زناد فكره ، بما ينقذ الموقف ، وبما يحفظُ عليه رزقهُ ؟

لقد ذاق حلاوة الربح بعد متْربة لَفَحتْهُ بلَظَاها ، وحرقته بأُوارها ، فمحالٌ على مَنْ فى مثل همّته أن ييأس ، ومحالٌ له أن يترك الحبل على الغارب ، ويستنيم للظروف وولادتها ، وللأيام وسوانحها ! وهذا ما فعله طفلُنا العزيز ، فقد رأى أنَّ خيرَ طريق منتجة للقضاء على منافسيه أن يقدّم للمسافرين شرابًا حُلْوَ المذاق . . . ليمونادة بدلاً من الماء . . . وأن يجعل ثمنها كثمن الماء أو أقلّ . . . ونادى من قلبه « كوبة الليمونادة بثلاثة سنتيم » وكانت النتيجة طبعًا ، أن انهزم المنافسون ، وأحرز صاحبنا قَصَبَ السّبْق ، وكان له ما أراد من احتكار ربح السوق !

(٧)

العظيم دائماً فى تفكير ، وتفكيره دائماً فى نُضُوج ورجاحة ، ثم هو يحدو بصاحبه مُدَارجةً دائماً إلى الأمام ، ذلك لأنه بعمله المتواصل ، ودأبِهِ المستمرّ ، يقترب شيئاً فشيئاً من مثله الأعلى ، وهو فى جهاده ونشاطه لا يرضى بما هو فيه من حياة مهما كانت فى مجموعها أرقى من حيـاة أمثاله وأنداده ، وإنما هو فى اُنتقال مستمرّ ، وتقدُّم دائم .

تلك كانت حال غلامنا الصغير الذى لم يَقْنَع بما وصل اليه من أخلاف الرزق المدْرار فى ربحه المتواصل !

ألاَ إنّ فِـكْرَ العظيم ليدخل بصاحبه فى نهاية تطوافه حديقةً أُنُفًا حسّانةً تتعانق أغصانُها ، وتَشْدُو طيورُها . وتتلاعبُ نسماتُها ، . . . وجِمَاعُ القول هى خَصْبةُ التُرْبة ، وَفِيرةُ الثمرة ، مُورقة الشجرة .

أجل ! هو كذلك حقا . فقد أخذ طفلُنا يروّض نفسه وهو فى خيال مستمرّ ، وتأمّلٍ بعيد ، وتفكيرٍ متواصل ، على أن يصيب المزيد الى جانب عمله المنتج ، مع اُحتفاظٍ بالطَّرْف . واُقتناصٍ للفرصة السانحة ، الى أن أُتِيحت له فُرصةُ الوجود فى مجتمع . . . . وكثيراً ما أُتيح لمثله الحضور فى مثل ذلك المجتمع . ولكنّ النادر جدًّا أن يَعْمل أمثاله ، أو يفكّر لذاتُه فى مثل ما فكَّر فيه « بوك » وعَمِله !

لقد طرأ على ذهنِهِ الناضج ، ذهنِه الذى يربو على سنّه بمراحل — طرأ عليه نوعٌ من التفكير مهما كان ساذَجا وبسيطا ، فإنه يدُلّ فى جملته على اُستعداده بفطرته لعمله الصحفىّ العظيم الأثَر .

وما الذى طرأ على ذهنه يا تُرى ؟

لقد افترض «بوك» أنه فى جَمْعه أسماءَ الحاضرين فى ذلك المجتمع وبعثِهِ بأسمائهم

الى الصحيفة المحلية ، ونشر تلك الصحيفة لأسمائهم أثناء وصفها لاجتماعهم مَدْعاةً لاغتباط الحاضرين من المجتمعين ، ومَدْعاةَ لرضى أصحاب الصحيفة لأفتراضهم أنّ من نُشر اُسمه فى عدد ذلك اليوم سيبادر بشرائه ، وفى ذلك رواجٌ جديد لجريدتهم .

وسَرْعان ما نفّذ « بوك » ما فكر فيهِ ، وسَرْعان ما تحقّق عمليًا صدقُ فِرَاسته فقد استخدمه أصحابُ تلك الجريدة ليكتب لهم الأخبار المحلّية وقرّروا له أربعة ريالات عن كل عمود يبْعَثُ به اليهم .

لقد كان سنّ « بوك » الآن حوالى الاثنى عشر عاما وكم كان نَشِطًا مُنتجاَ فى ذلك السنّ . وكم أغرى الشبابَ من أترابه أن يُخطروه بكلّ اُجتماع وكل نبأ وكل مُغْرِيَةٍ من الأخبار ، ومُدهشةٍ من الحوادث . وكانت مهمته أن يصوغ ذلك كلَّه فى أَسلوبه الفِطْرىّ . وفِطرته الاستغوائية ، فقد كان فى أسلوبه الصحفىّ بائعَ المياه الذى يستغوى المسافرين ، وبائع الليموناده المثلّجة التى تثلج الصدور . . . وها هو ذا الآن الصحفىّ الأخبارى فى سن العبث واللهو والمجون ! .

(٨)

الربح كثير ، والعمر صغير ، وليس من شك فى أنّ مَنْ كان مِثْله فى ربحِهِ وسنّهِ وظروفِ أُسرتهِ يكون له من ذلك كلّه مَقنعٌ أىّ مقنع . ولـكن النفسَ الطمُوحة والروحَ الدءوبةَ لا يُقنعهما الاستقرارُ على حال يعتبرها السُّذَّج «والعاديون» من سواد الناس وجمهور الطَغَام : حالَ رغد وثَراء ، ويُسْر وهناءة .

لقد بلغ « بوك » الثالثةَ عشرةَ من سِنِى عمره ، ورأى أن أمامه فرصةَ العمل بدار « التلغراف » وأنه قادرٌ على الدأب معه فى تحصيل العلم ، والانكباب على الدرس ، ووصلِ المذاكرةِ والأطلاع ؛ ليكون له من وراء علمه واُطلاعه العُدَّة والعَتَاد فى تحقيق أَمله الزاهر ، وإسعافه بطَلِبَته فيما يرجوه لنفسه من مستقبل ناضر .

ولعلكم سائلونى عن نوع الدرس الذى أكبّ عليه صاحبنا أثناء حياته «التلغرافية» ووقت قيامه بتلك الوظيفة التى تُشبه من كلّ ناحية حياة الوظائف الكتابيّة . ولستُ بباخلٍ عليكم التحدثَ فى شىءٍ من الإسهاب فى هذا الصدد ، إذ شَدَّ ما يحتاج شبابنا عامّةً سواءٌ أكانوا من الراغبين فى حياة الوظائف ، أم من الطامحين فى حياة الحرية والاستقلال ، حياةِ الجهاد والإنتاج ، حياةِ الاعتماد على النفس وشقّ الطريق لها بالمجهود الفردى لا التوظفِ الحكوميّ — شَدّ ما يحتاج شبابُنا إلى الاقتداء « ببوك » وترسّم خطَوَاته ، واستنان سنّته ، وتتبّعه فى مسيره وشقّ نفس طريقه .

إن « بوك » قد أحبّ القراءة ، وأكبّ عليها بشوق قائم ، وحبٍّ هائم . . . ولكنه اختصّ النوع الذى يفيده ويَعنْيه ، ويرشده ويهديه . . . وهو تاريخ حياة الأبطال . . . ولا سيما أولئك الذين ارتفعوا من ضَعَة وأثْرَوْا من مَتْرَبَة ، وظهروا من غير أصولٍ فارعةٍ ، وتسابقوا فى غير أُرومةٍ ، واشتهروا بارادة هى من حديد ونار ، وعَزْمةٍ وثَابة لا يُشقّ لها غُبار !

إنه فقير ذاق الأمرّين من فاقتهِ ، وتجرّعَ الصابين من خصاصته . وما هو بغنيّ ولا نبيل ليعتمد فى شقّ طريقه على سُؤْبان[1] ثَرائه ، وعَرَاقة أُسرته ، وهو بحاجةٍ إلى الكِفاح وإلى التذرّع بعُدّته ، وهو متلهّب شوقًا إلى أن يكون صاحبَ المقام الأوّل فى أمته ، الأمر الذى حدا به إلى استيعاب سيرة العظماء من أبناء جِلْدته ، وإلى قراءة تاريخ حياتهم حيث يجدُ اللذّة التى لا تعدلها لذّة حينما يقف على بداية متواضعة مثل بدايته ! .

أتعرفون ماذا كان يقرأ وفيما كان يطالع ؟

(١) فى الأمالى للقالى : سؤبان ثراء ورعية مال يقال عن إصابة الغنى والثروة

لقد بحث — وبحث طويلاً — حتى عثرت يداه على دائرة[1] المعارف الأميريكية الجديدة . بيْدَ أنّ ثمنها فوق طاقته . . . كلا ! بل كان ثمنها مما يحتاج الى إمعان فِكرته ، وقوىّ إرادته ، وصادق رغبتهِ . . . كان ذهنه بحاجةٍ إلى شهىّ الغذاء ولذيذه ، كما هو بحاجة الى متاع اللذّة . . . والقراءة لعَمْرُكم هى ذلك الغذاء وتلك اللذّة للذهن الانسانى ؛ ما فى ذلك رَيبٌ ولا شِبْهُ رَيبٍ . . . فلماذا إذن لا يختزل من طعام البطن ولذّتها بما يسعفه بطَلِبَته فى طعام الذهن ولذّته ؟

على أنّ الذهن بحاجة بعد كدِّ اليوم وعملِهِ إلى الراحة والتنعُّم بلذّتها ، والاسترواحِ برياضتها ، والاستمتاع بنَسَماتها ، بقَدْرِ ما يحتاج الجسمُ إلى مثل تلك الراحة فى الرياضة . فلماذا لا يقطعُ طفلُنا مسافةَ الأميال الخمسة من منزله إلى دار التلغراف ، ومن دار التلغراف إلى منزله سيراً على الأقدام ، لا ركوباً فى السيّارة أو الترام ، حتى يوفّر أجر الركوب وهو فوق هذا قد نال الحُسنيين : نُعِّمَ برياضة الجسم ، وتمكّن من الحصول على ما يروّض به الذهن ويريحه . والقراءة لعمركم من خير الوسائل وأنجعها إذْ تجدى على الذهن وهو يرتاضها ويستسيغُها رَوْحا ولذّة وحُبُوراً .

أجل ! إنّ ذلك كله ما فعله صاحبنا بنصّه وفصّه . مع مباشرة واستمرار ، مع الإخلاص والوفاء فى المضىّ قُدما لا يلوى على شىء ، مُؤدياً على أتمّ الوجوه وأكملِها واجبات الليل والنهار ، حتى حَصلَت يُمْناه على دائرة المعارف الأمريكية الجديدة ، فحَظِىَ بحصولها واقتنائها على غاية المُنَى ومُتعة الأوطار .

(٩)

والآن سأحَدّثكم فى إيجازٍ واختصارٍ عن مشروعٍ جديد قد ولّدته قراءاتُه المتواصلة فى تواريخ العظماء ، وسِيرَ الزعماء ، وفذلكاتِ الأبطال ، وأعمال الأقطاب

(١) New American Cyclopaedia.

وكان ذلك المشروعُ لعمركم مما أذاع صيتَ بطلِنا الصغير ونَشَر اُسمه، وأكثر معارفه، وأغزر مكاسبَه.

أتعرفون ما هو ذلك المولود الجديد ؟

ليس من ريب فى أنّ روحه قد تحمّست وازدادت حَمِيَّة ونشاطًا حينما وقف من سير الأبطال على أنهم فى طفولتهم كانوا مثله وصِنْوَه، وأنهم إنما أَثْرَوْا بكدِّهم وارْتقَوْا بجدِّهم، وفاقوا الأقرانَ بمثابرتهم، وبذُّوا الأتراب بأعمالهم

وليس من ريب فى أنّ الاستعداد النفسيّ كان موجوداً فى الأصل، وأن النَّزعة كانت فِطْرية، وكل ما فعلته القراءة أنها أذْكَت منه تلك الروح الفطرية ودفعته الى الشروع فى جَمْع مُلَخَّصات عن تلك التواريخ وطبعها فى بطاقات صغيرة توضع فى علب « السيجارة » ! !

لم يكتف « بوك » بما أصاب من علم ومعرفة بِسِيَر العظماء من دائرة المعارف الأمريكية الجديدة . . . بل كتب بنفسه الى الأحياء من هؤلاء الزعماء، طالبًا منهم مُوجزًا عن حياتهم، وطُرَفا من صُحُف أعمالهم . وكم ارتاحوا لمطلبه، وبادروا بإجابته الى سُؤْله، وتأييده فى مُهمّته .

وقد تسألونى كيف خطرت « لبوك » فكرته تلك وما منشؤها . . . ؟ والأمرُ ميسورٌ تفسيرُهُ، وليس فيه تَعْمِيةٌ ولا غموضٌ، ولا سرٌّ ولا إبهام، لأنه ليس بلغزٍ ولا أُحجيَّة . بل هو جدّ ساذج فى يُسْر وسُهُولة .

لقد عثر فى علبة « سجاير » على صورة ممثلة هيفاء . ولما قلّب البطاقة وجدها بيضاء، ففى لَمْحة بَصَرٍ حضرته فكرةُ كتابةِ المُوجز التاريخيّ عن البطل أو البطلة .

« أى شبابنا الناهضين !

« عليكم أنفسَكم فقَوِّمُوها، وقلوبَكم النابِضَة فبالعلم عَمِّرُوها، وأيديَكم اللَّدْنَة

فبالعمل قوّوها، وعزماتكم المضاءة فبمُرْهف الإرادة انهضوها».

«أى شبابنا الناهضين!

«بادروا الى العمل الصالح ما استطعتم، واتركوا التردّد ما قدرتم، واقتحموا الأبواب ما أمكنكم، وتجشّموا الصّعاب أنىّ كنتم».

«أى شبابنا الناهضين!

«شمّروا عن سواعد الجد، واعملوا فى صمتٍ وسكون. اعملوا فى مغداتكم ومراحتكم عملَ المحسنين، لا عمل الهازلين. واُخلعوا جلبابَ الحياء المُزْرى بهمتكم، المنتقص لكرامتكم، والمُخْمِد لحماستكم إن كنتم فى النُجْح المُوزر راغبين، وفى التبْريز المؤمّلِ طالبين».

بهذه الموعظة الحكيمةِ عمل شابّنا الجادّ. فبحث ونقّب حتى عرَف اسم الشركة التى تطبع تلك البطاقات. وكان الكمِىّ الجرىءُ فى عَرْض مشروعه على الأنظار. ولم يبرح غرفة مديرها حتى أبْرم اتفاقا بإعطائهم مائةً من تلك الفذلكات متضمنةً طرَفا قيّما من تواريخ الزعماء والأبطال. على أن يتقاضى ثمانىَ ريالاتٍ عن كل واحدة. وسرْعان ما نجح المشروع. فطالبته الشركة بمائة أخرى. ثم بمائةٍ ثالثة... وهكذا دوَاليْك.

كثُرَ العملُ على صاحبنا. فلم يقْهَر ولم يخذل. ثم فى الوقت نفسه كان ثاقبَ النظر، رجيحَ الحِصاة فلم يتكالب على العمل بحُمْق الأشعبىّ. بل رأى أن إسعاف الشركة بطلباتها المتواصلة يستدعى أيديًا عاملةً أخرى الى جانب يده، فلم يتردّد فى الاتفاق مع أخيه على إعطائه جنيها عن كل مُوجزٍ يقدّمه اليه لطبعه على ظهر البطاقة.... ولم يحْجِم عن الاتفاق مع لفيفٍ آخرَ من الصّحفيّين فى إمداده بما يحتاج اليه... وهكذا استطاع «بوك» أن يمُدّ الشركة بتلك الفذلكات دون

أُنقطاع ، وكلما كثرت الأيدى العاملة معـــه كلما تضاعف ربحُه واُتّسع صيتهُ ونَبُهت مكانتُه .

تلك بديهية طالما تدق على أنظار الشيوخ ، فهم لعظيم جدواها من الغافلين . وهكذا استطاع هذا « الحمولىّ » مُوَزِّع المياه ، أو إن شئت بائعُ الليمونادة الناقعة لغلّة الحرّ أن يكون حمّال أعباء ، وطَلاّع ثنايا ، وأن يتاح له فرصة إمداد العالَم الأمريكى المتسع الأرجاء بعلمِ مستطابٍ ، وعرفان مستساغ ، مع سهولة تناول ، ومتعة ناظر ، وفى مجانيّة ثمن .

(١٠)

لتَعْلَمُنّ شبابنا ، رعاكم الله . وحاطكم بعنايته ، أن المشروع الصغيرَ بخدمته بالعمل المستمرّ ، يخلق مشروعًا أكبر ، والعملَ الناجحَ بالدّأب عليه ، والاستمرار فى أدائه ، يُنتج عملاً أكثر نجاحًا ، وأغزرَ توفيقا .

لقد تفتّح المجالُ على مِصراعَيْه أمامَ « بوك » وأُنهالت عليه الطلبات من كل صَوْب ، وأزدحمت أمامَ ناظره العُروض من كلّ حَدَب ، حتى أُضطر صاحبُنا أن يتعلّم الاختزالَ فى مدرستين فى آنٍ واحدٍ ، ليُتقنَه على أسرع وجهِ . . . وهنا يجدر بنا أن نقف وقفة إكبارٍ وتقديرٍ إزاء تلك الإرادة الحديدية فى اكتساب العلم واكتساب الوقت معاً .

أجل ! لقد تعلم بطلنا الصغير فنّ الاختزال فى مدرستين فى آنِ واحدِ ، ولم يتبطَّر على عمله بدار « التلغراف » بل جعله بَعْضَ نصيب عمله النهارىّ ، إلى جانب عمله التاريخىّ ، وأما فى الليل فدرسٌ للاختزال ، وقراءةٌ لتواريخ الأبطال ، مع إعدادِ لنفسه ليكون صحفيًا بارعًا ، ومُنشئًا خطيراً .

أى شبابنا الناهضين ! لتعاموا ، رعاكم الله وبيّاكم : «أنّ الكفاءةَ تُطلَب ويُنَقّب

عنها أنَّى وُجدت . والرجلُ الكُفءُ تسعى اليه أسرابُ الأعمال ، وتنهال عليه أَمطارُ الطلبات ودَيْم العُروض » . وهكذا كان شأنُ صاحبنا المؤرّخ الصحفىّ الشابّ ، فقد اُحتاجت الصحيفة المحلِّية إلى علمِه ، كما احتاجت إلى اُختزاله ، وعَهِدت اليه أن يبعث إليها بخطبتين سيُلقيهما رئيسُ الولايات المتحدة فى « بروكلَن » ، ولكنَّ « بوك » الحديثَ العهد بالأختزال ، لم يَستطع التقاط كلمات الخطيب السريع الإلقاء ، فضاعت منه كلماتٌ وجُمَلٌ ، وهو يريد ألاّ تفلت فرصة أخذِ الخطبتين كاملتين بنصّهما وفصّهما . ليكون عملهُ متقناً ، ومجهودُه كاملاً ، خدمةً للصحيفة التى ندبته ، و بناءً لمستقبله الذى ينتظره .

أتعرفون ما كان منه ؟

هل خَدَع نفسَه ، وخَدَع أصحاب جريدته فبعث بما وصَل إليه ، وا كتفى بما سطرت يمناه ؟

هل اقتنع بما وصل إليه مجهودُه ، أو تلكّأ هنا وهناك ليسألَ زملاءه من مخبرى الصحف عما اُلتبس عليه وفاته ؟

كلا وَرَبِّكم ؛ بل تفرّسَ فى شخصيّةِ رئيسِ الجمهورية ، فوجد فيهِ عظمةَ العظيم ، وبُطولةَ الرجلِ الكبير ، والعظيم لعمركم دَوْمًا يميل الى استحثاثِ العزَمات ، ويحِسُّ بنبوغه على معينِ الكفايات ، فذهب إليه رأساً وأدلى إليه بمُجْمَل حاله ، وأفهمه أن مستقبَله الصحفىّ متوقفٌ على إظهاره خطبته كاملةً غير مُنتقَصة ولا مبتورةً ، وأخيراً سأله فى رشاقةٍ وكياسةٍ أن يَسمح إليهِ بصورة من خطابه . . . !

ولقد تفرّس فيهِ الرئيسُ من نَبرات صوت كلماته ، ومن سُؤله وإلحاحه . . . الشابَّ الطموحَ للعُلى ، الراغبَ فى الرقىّ ، المخلصَ فى أداء الواجب ، فأسْعَفه بما يريد وناولَه ما رغب .

وهكذا استطاع بوك الصغيرُ أن يكون الصحفيَّ الوحيدَ الذى نشر فى صحيفته الخطابَ الكاملَ لرئيس الجمهورية من بين الصحف جميعاً .

(١١)

الصحفيُّ بنشأته يخلُق الظروفَ للتحدّث إلى القرّاء بكلّ طريف ومُستحبّ ، ولا ينتظر النَّواهزَ حتى تَسنَح له ، بل هو يحلِّق فى السماء ، ويضرب فى الأرجاء ، باحثاً مُنقباً عن كل مغرية من الأخبار ، وكل مُثيرة للخواطر ، وجذّابة للأنظار . فهو فى انتقال وارتحال ، وإدْبار وإقبال ، لا يعرف للسكون معنىً ، ولا للخمول طعْماً ، وإنما هو النشاطُ المستمرُّ ، والعملُ الدائمُ .

لقد سافر شابُّنا إلى « بوستن » فى إحدى الإجازات ، قابل الكاتب الأمريكى النابهَ « أوليفر وندل هولمز » ثم اصطحب مع مؤلف « هبواثا » المؤلِّفِ المعروف المستر « لونجفلو » إلى المسرح ، رفيقاً وزميلاً . . . ثم تحدّث إلى مُدَبِّج البحوث وكاتب المقالات المستر « رالف والدو أمرسن » . . . ثم قابل العَديدين من الشخصيّات البارزة ، وحَملة اليَراعات النَّابهة ، حتى أُتيح له أخيراً رئاسةُ تحرير مجلة « بروكلن » المحلّية التى ازدانت بظهُور مقالاتٍ قيّمة لأسماء بارزة فى عالم الصحافة والبيان .

بَيْدَ أنّ عمَله النهارى فى « دار التلغراف » لا يتفق فى طبيعته وعملَه الصحفىّ ، فسعى الشابُّ سعيَه الموفَّق بمعاونة رئيسه فى التلغراف حتى عَثَر على وظيفة بدار أخرى للنشر والإعلانات .

والجميلُ هنا أنّ رئيسه لم يتردَّد فى مُعاونته على ترك عمله ، والانخراطِ فى عملٍ آخرَ أكثرَ مُلاءمةً لميوله ، وموافقةً لِنزَعاته ، بدلاً من وُقوفه عَثْرةً فى طريقه ، فكان نعمَ المُعينُ والمُساعدُ ، ونعمَ الظَّهير والمؤازر ، ونعمَ الرئيسُ ساعة الحاجة ،

وكان فى تصرّفه الحكيم دليلٌ آخر ينطق فى وضوحٍ وجلاءٍ ، على أَنّ المرءوس كان متحلّياً بأَطْيبِ الخِصَال ، وأنبلِ الصِّفات .

ويَظهر أَنّ الجهُودَ العظيمةَ التى بذلها صاحبُنا فى إصدار المجَلَّة فى ثوبٍ قَشيب من الإتقان ، وإقبالِ الكثيرين على قراءة بُحُوث كُتَّابها المُتَعَدِّدين ، كان من شأنها إغراءُ سَرِيّ من السَّراة على شراء مجلة « بروكلن » لا لغايةٍ فنيّة أو صَحفيّة ، وإنّما لتكون مصدرَ عملٍ لأبنه . . . وكانت النتيجة طبعاً أن أصبح « بوك » بلا عملٍ ليليّ فماذا كان منهُ يا تُرَى ؟

هل اكتفى بما كان يُصيب من رِزْقٍ فى عمله اليومىّ بدار النّشر والإعلان ؟

كلاّ ! فقد مات والدُهُ وأضحى فى عنقه مسئوليةٌ مزدوجةٌ من ناحية ، ومن ناحيةٍ أخرى فإن « لبوك » شخصيًّا وجهةَ نظر ، كانشديدَ التدقيق فى الاستمساك بها ، والجَرْى على سَنَنها ، والعملِ بكل ما أُوتىَ من قوّة وحَولٍ على تنفيذها — تلك كانت ضرورةَ قيام الشخص بعملين ليُدِرّا عليـــه رزقين ، وليُصيبَ من ورائهما أجرَيْن .

لقد أصبح بوك الخبيرُ بأمر المقالات وكُتّابها ، العليمُ بشتَّى البحوث وأصحابها ، الواقفُ على حاجيّات الصحف وأذواقها ، المطّلِعُ على طلبات القرّاء ونزعاتهم ، فلماذا لا يفتح مكتباً أو نِقابةً تأخذ على عاتقها جمعَ المقالات ، وتوزيع صور منها لتُنشر فى وقت واحد ، ولا سيما أن فى ذلك نوعاً طريفاً ليس له فيه من مزاحم ولا مُنافس . ثم هو على أحسن صلةٍ بشيوخ البيان ، وأئمة الصحافة ، وفى مُكنته أن يُفيد ويستفيد ، بل فى قيامه بذلك العملِ الخطيرِ خير عوضٍ له عن عمله الصحفى السابق الذى هو ضَيِّق النطاق ، قليل الأرزاق .

وهذا ما فعله صاحبُنا ووُفِّق إليه ، وافتتح لأجله مكتباً فى نيويورك ذاتها . . .

وهنالك أيضاً اشترك مع دار « سكريبنر » للنّشر والإذاعة . وهنالك أيضاً فكّر في مشروعه الهامّ صدقاً ، مشروعِهِ الذى عاد عليه بطائل الأرباح حقّاً ، نعنى به إصدار جريدة نسائية ، كانت الأُولى فى البلاد الأمريكية ، ولا غَرْو فمن غيرُ « بوك » يكون مصدرَ مشروعات ، وصاحب تفنينات ، ومُنْتج مقترحات !

لقد رأى بنافذ بصيرته . وسديد نَظْرته ، أنّ البُحوثَ النسائيّة ، وموضوعاتِ الجنس اللطيف بحاجةٍ إلى عنايةٍ وتوحيدٍ ، وجمعٍ وترتيب ، وتنسيق وتبويب ، فمن غيرُه يكون ابنَ بَجْدَتها وصاحبَ عُذْرتها ؟

ألم يكن « بوك » هذا هو نفسُه ذلك الطفلَ الصغيرَ صاحب مشروع « الليمونادة » وبيعها بينما كان اللّدات والأقران حملةَ ماءٍ قَراح ، فبذّهم فى نِفَاسِهِ السّديد بتقديم أشهى المشروبات التى تُردّ الأرواح، فى أجمل آنيةٍ وأنْظف أقْداح ؟

أتعرفون ماذا كانت سنُّه وهو المُضْطَلع بكلّ هاتيك المشروعات ؟

لقد كان بوك حينذاك فى الحادية والعشرين، ولم ينهزم أمامَ تعدّد أعماله، وشتّى واجباته ، بل رتب أمورَه ، وأكثرَ الأيدى العاملة معه ، وشارك أخيه «وليم» فى مكتب الصحافة الذى اُفتتحه ، واشترك مع « سكريبنر » فى دار النشر ، واُستخدم الأقلامَ البليغة ، والرءوسَ المفكرة ، وأصحابَ الأذْواق السليمة فى إصدار مجلته النسائية . . . كل ذلك وهو فى الحادية والعشرين من عمره .

أليس فى ذلك ما يدُلّ على الكفاية النّادرة ، والقَريحة الوقّادة ، والعَزْمة الوثّابة، والإرادة الماضية ، والشخصية البارزة ، والرّوح القويّة ، والنفس الكبيرة ؟

ثم أليس فى ذلك كلِّه البرهانُ القاطع على ما ذهبنا اليهِ أوّلاً من أنّ الصحفىّ بالنشأة يَخْلُقُ الظروف للتحدّث الى قُرّائه ، غير منتظِرٍ للنّواهز حتى تسنح، بل هو يُحلّق فى السماء ، ويضرب فى الأرجاء ، لايعرف للسكون معنًى ، ولا للخمول طَعْمًا

أجل ! والله إن الصحفيّ وغيرَ الصحفيّ ممن امتاز بالمواهب الفائقة ، وممن أُشْربت نفوسُهم معانيَ الرُّجوليةِ والحياة ، ليعملَ في كدّ واُجتهاد ، وفي نشاطٍ ومُثابَرَةٍ واُتئاد ، حتى يصل إلى المطلوب ، ويحقِّق كلّ مرغُوب ، وهو يُحيلُ من العُسرِ يُسْراً ، ومن القفْرِ نباتاً وثَمَراً .

(١٢)

توقَّل « بوك » في سُلَّم الرقيّ ، وتدرّج في درجات التقدم . . . . فزاد إيرادهُ ، وتَضَخَّمَتْ أعمالهُ ، وذاع صيتهُ . . . ولم يتوانَ لحظةً عن مُضاعفة جُهوده ، والإكثارِ من منتجاتهِ . . . بل أخرج كتيبًا مصوّراً في خمسٍ وأربعين صحيفةً . . . كل هذا وهو لم يعدُ بعدُ مَيْعة الشباب ، وريق الصِّبا . إلى أن سعى اليه المستر كرتس صاحب مجلة السيّدات المنزليّة التي تصدُر في فيلادلفيا ، وكانت بحالِ رُكود ومَوْت ، يَطْلب إليه أن يتولى رئاسة تحررها ، ومعنى ذلك أن يترك أعماله العديدة في نيويورك ، وأرباحُهُ فيها مضمونةٌ ، ومركزُهُ فيها ثابتٌ ، وقدمهُ فيها راسخةٌ . . . . فماذا كان منه ؟

أمّا ما كان يُنْتظر من سواهُ « العاديين » فمعلوم طبعًا ، وهو الرفض بلا ريبٍ لذلك العَرْض الموهوم الرِّبح، المشكوكِ النّجاح ، لأنَّ روحَ المخاطرة تنقصهم ، وصدق الفراسةِ تُعوِّزهم ، ونور الايمان يفتقرهم ، وفضيلة الاعتماد على النفس لم تُعَمِّر قلوبهم . و « بوك » على نقيضهم؛ ولكنه مع ذلك رأى أن يأخذ بالحزامه والكياسة أمره ، فجنح أوّلاً على دَرْس العَرْض ، ودرس أسباب الفشل ومُهيئات النجاح . . . وكان من جَرَّاء إمعانه في درسه ، وتوفّره على بحثه ، أن قبِل العَرْضَ ، وتَخَلَّى عن كلّ عملٍ في يديه ، ونَزَح الى فيلا دلفيا . . .

عجيب والله أمرُ هذا العصاميّ . . . ؟

إنه الفِراسةُ مُجتمعة، والذّكاوة مُنطلقة، والجُرْأةَ مُتوثّبة، والشجاعةَ متحفزّة والروح مُتوقّدة، بل هو الحَزَامة والحَصَافةُ، والإِرادةُ والأصالةُ، لا يعرف للتردّد معنًى، ولا للتشكّك استساغة، وليس للوهن ولا للتضاؤل أو التشاؤم لديه طعمٌ ولا مذاقٌ.

لقد سافر الى «فيلادلفيا» وأكبّ على عمله الجديد إكبابَ الراغب فى إحْيائه، والعاملِ على نجاحه، وطرقَ كلَّ باب لرَواجه، وبذلَ كلَّ جُهد لتَدْعيم أَركانه، وتقويةِ صُرُوحه، واُستخدم الأقلامَ النابهة لتَدْبيج المُلَح والطُّرَفَ، وتنْسيق المقالات والنُّتَف ... واُستمرّ فى رياسة تحرير تلك المجلّة — التى نَعلم عن أهميتها وقوّتها وسعة انتشارها فى وقتنا الحاضر ما نعلم — حوالى الثلاثين عاماً حتى أصبحت أولى المجلات النسائية فى العالم قاطبةً.

أتعرفون أىّ مجهود صَحَفىٍّ بذَل؟

نعلم أن إدَارات المطبوعات، ودُور الصحافة الحكومية فى البلدان الغربية، تجمع بين جُدرانها الخُبراءَ والأَساتيذ والفنيّين والعلماءَ، ليُمِدّوا بمعلوماتهم كُل مُستفسِرٍ وسائِل. وهم جُهَيْنة كلّ فنٍ وبابٍ، وجهابذة كل فرعٍ وعِلمٍ. ولكنّا لم نكن نعلم قبل درسنا لتاريخ حياة «بوك» أَنّ صحيفةً واحدةً تُعْنَى بأَن تجمع بين أركانها أمثال تلك المجموعة المنتقاة من خيرة الكفايات لتكون على الدوام فى خِدمة السائلين والسائلات، من القارئين والقارئات، فلا غرو إذنْ أن تتدرّج صحيفتُه بدلاً من (٤٤٠,٠٠٠) بين قارىءٍ وقارئةٍ إلى درجة كان يوزع معها من أعدادها حوالى مليونين.

(١٣)

استمرّ «بوك» فى جُهوده الصحفيّة ثلاثين عامًا إلى أن اعتزلها عام ١٩١٩ لا ليُخلدَ إلى الدّعة والرَّاحة، بل ليشُقَّ طريقه فى البحث والتأليف ليَخْدمَ الشبابَ

بوقفهم على أَسباب النّجاح ، وليهديَهم إلى وسائل التوفيق ، وليبُثَّ فى أرواحهم اللَّدْنَة رُوحَه القويّة المضطرمة حياةً وحَمِيّة ونشاطاً .

ولعلكم قد عثرتم فى أنباء بعض الصّحف أنّ جائزة پولتزر مع المدالية الذهبيَّة كانتا من نصيب كتابه « كيف أصبح ادوار بوك أمريكياً » . ولكننى أودّ أن أوجه نظركم السديد ، ورغبتكم المتعطّشة الى كلّ نافع ومُفيد ، إلى أنّ صحافيَّنا العظيمَ لايزال حتى عامنا المنصرم يخرج للقرّاء كتباً قيِّمة من تعاليمه السامية آخرها « ربما . . . أنا » وقبلها أصدرَ كتابَه المعروف « ثلاثين وثلاثين » وقبلها أصدر كتابه الممتع « شخصان » . . . إلى غير ذلك من المؤلفات التى تبدأ من سنة ١٨٩٥ « شطر النجاحِ » والتى لا تزال المطابعُ تُمطرنا بدِيَم فرائدها ، وجليل فوائدها حتى الآن .

على أنه من الضرورىّ أن تعلموا أن بائع « الليمونادة » ومُوزّع المياه قد استطاع فى سنة ١٩٢٣ أن ينشئ لجنةً أمريكية للتحكيم فى السِّلم ، مع تقديم جائزة قدرها ١٠٠,٠٠٠ ريالٍ لمن يقدّم أحسن مشروع عملىّ تستطيع بأتباعه الولاياتُ المتحدةُ أن تشترك مع غيرها من الدول ، للمحافظة على السَّلام فى العالم ، على أن تُدفعَ نصفُ الجائزة عند قبول المشروع من المحلفين ، ونصفُها الآخر عند صُدور قرار النقابة بالاعتماد . وقد نال تلك الجائزة الدكتور ت . ا . ليفومور العضو بجمعية السلام بنيويورك .

(١٤)

فى كتاب « ادوار بوك » عن تاريخ حياته ، وفى سلسلة كُتبه التى كتبها أخيراً ، يشعُر قارئُها بروحِ الحياة العملية تتمشّى فى عروقه ، ثم يقف بعد فترةٍ وأخرى على أصدق النصائح ، وأسَدّ المواعظ التى تفتح أمام ناظره طريق الأمل ، وأبوابَ العمل

تعالَوْا معى إلى قوله فى تاريخ حياته : إنه لم يعتمد فى أداءِ واجباته على مواقيت الساعة ، ولـكنَّه كان يؤدى تلك الواجبات على أكمل الوجوه وأحسنها ، غير ناظر لما يتطلّبه أداؤها من ساعات ، وما تتطلبه من أوقات .

ثم تعالَوْا ، رعاكم الله وكلأكم بعنايته ، ودقِّقوا النظرَ فى شتَّى تصرُّفاته ، ومَنْحَى حياته ، وكيف يقتطع الثوانى واللحظات من نفيس وقته ، وكيف يَفْتِقُ الحيلة ، ويَنْحَت من جُلْمود الزمن ما يَفِىء عليه بجزيل النفع ، وعظيم الجَدْوى فى رَوْحاته وجيئاته ، وفى إصباحه وإمسائه . وكيف لا يتبطَّر على عملٍ أيًّا كان نوعه ، وكيف يقدُم فى جُرْأةٍ وشجاعةٍ ، وفى كياسة ولَباقةٍ ، على كلّ ما يُجدى عليه بعد إتمام فحصه ، واستقصاءِ بحثه ، وزنته الصادقة لأوجُهِ نفعهِ التى يجب أن تربُو دوامًا على أوجُه ضرره .

بل أنظروا إلى طريقته فى معيشته إزاءَ كثْرة أرباحه وطائِل مكاسبه . تَرَوْن أنه لم ينظر البتّة إلى زيادة دخله فيزيد فى إنفاقه . . . بل كان كلما إزداد ربحه عمل على الزيادة فى الاقتصاد .

على أنى آمل أخيرًا أن يَسْتغلّ طالبُ النجاح ثمين وقته ، وتوفُّر صحته ، وزهرة شبابه ، وأفانينَ عامه ، وقوة تصوّره كما استغلّها جميعًا ذلك الصّحفىُّ العِصامىّ ، الذى يجب أن تكون حياتُهُ درسًا لشبابنا ، وقِبلةً لأنظار أبْنائنا ، ومثالًا حيًّا يترسَّمه صَحفيُّونا وكتّابنا .

حول تاريخ عصامي كبير

الاميركى فرانك ولوورث

صاحب الملايين وآلاف المتاجر

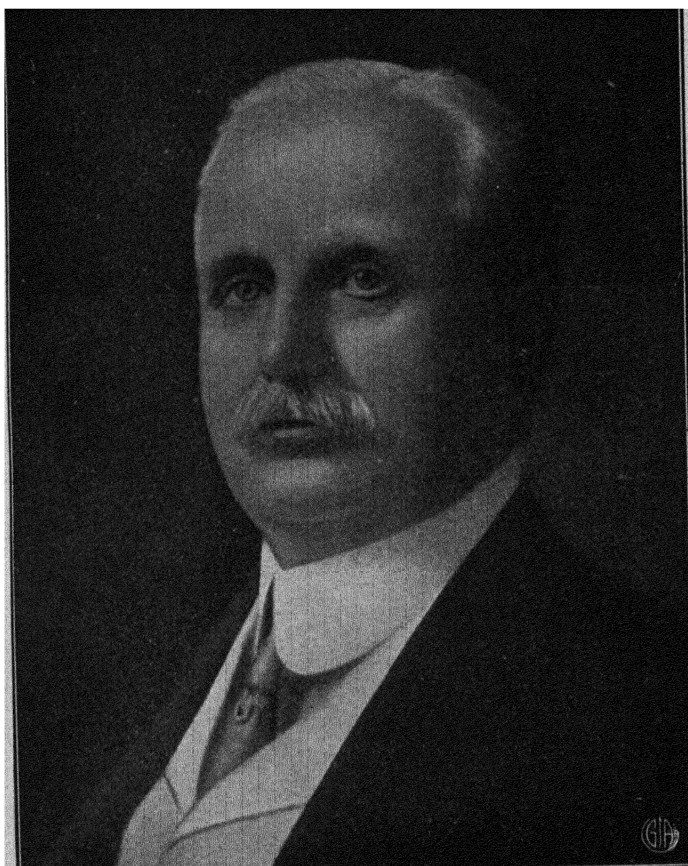
(١)

هذا درسٌ ضروريّ لشبابنا ، لا لأنه يُرشدنا إلى الطريق السلطانى المعبَّدِ لجمع الثروة والمال ، ولا لأنه يتعلّق بعصاميّ أميركيّ أرغمَ النجاح على أن يُذْعِن لإرادته صاغراً مطأطئَ الرأس ، ولا لأنَّ نواحيَ البطولة فيه متعددةٌ وبارزةٌ فى وقت واحد ، وإنما لأنه من النوع الذى يجب اعتبارُه بخلاصة التاريخ وزبدتِه ، وجوهرِه وعصارته .

لم تقم فلسفة التاريخ على ذكر الحروب وأَشْلاء القَتْلَى ، ولا على إثبات المواقع والانكسارات ، والتغلُّبات والانتصارات ، ولا حُكْم أمة على أمة ، ولا فَتْح دولة لدولة ، ولا استعباد شعب لشعب .

كلا ! لم تَقُم فلسفة التاريخ على شيء من ذلك كله ، ولم تقم على إغارة مَلِكٍ بجحافله وجيوشه على منافس له أو على زميل ، ولا على قيام أُسْرة وانقراض أسرة ، ولا على اغتصاب قائدٍ أزمَّةَ الحُكْم من ملك توقَّل سدّة الحكم إما بالوراثة أو بالغَلَبة أو بالانتخاب أو بالحظ وابتسام الدهر القلَّب الحوّل . . !

إنما قامت فلسفة التاريخ على عِبَره وعِظَاته ، وحِكَمه وآياته ، قامت على تَفَهُّم حياة الشعب ودراسة شئون تقدّمه وفلاحه ، وسعادته ونجاحه . قامت على الوقوف على أسباب رُقيّ الأمة اجتماعياً واقتصادياً وأدبياً وسياسياً . قامت على الدراسة الدقيقةِ لحياة الزعماء الحقيقيّين . قامت على الرغبة الصادقةِ فى الاقتداء



فرنك ولوورث

الصادق للمُثُل الصادقة . قامت على الحرْص فى الاستفادة من تجارب الغَيْر ، وصُوَر الحياة لِمِحَن الغير وسعادة الغير .

(٢)

الحياة قد تكون عَذْبَةَ التكاليف ، ميسورةَ الأعباء ، وقد تكون ثقيلةً مَقِيتة مُسْتعصاة .

ولكن الرجلَ الصبورَ الدءوبَ يخلُق من أُجاجها عُذوبة ، ومن عُسرها يسراً ومن شامس صعبها كلّ سهل ذلول !

الرجل الناضج المكتمل لمعانى الرجولية هو الذى يُمسك بقبضة إرادته القوية الشكيمة دَفة سفينة الحياة ، فلا تخُور نفسه أمام زوابعها وأعاصيرها ، وأمواجها وجلاميدها . إنه يتخطى بحكمة ولباقة ، وصبر وَجَلادَةٍ كل ذلك فى حزامةٍ وأصالةٍ حتى يصل إلى بر السلام ، وشاطئ النجاح ، ومَرْسى تحقيق الرغبات والآمال ، وصولَ واقع ماموس ، وحقّ محسوس ، لا سرابَ خيال ، ولا معسول مقال .

وهكذا كان الرجل العِصَامىّ الكبير ، « فرانك ولوورث » صَاحبُ ناطحات السحاب بنيويورك ، والمالكُ لألفَيْ محلٍّ تجارى فى الولايات المتحدة وانجلترا ، وصاحب الملايين من الجنيهات ، والمعروف لدى ملايين الملايين من عملائه العديدين المستفيدين من مشروعاته ومجهوداته .

(٣)

التجارُ منّا وغيرالتجار ، الشباب مناوالكهول ، الأبناء والآباء ، المُعدِمون والأغنياء ، السُّوقة والأعيان ، الكلُّ بحاجة لأن يتفهّمَ بطلَنا الأميركى « فرانك ولوورث » من صميم الصميم . الكلُّ بحاجة أن يخترق بثُقُوب بَصيرته ، ونَفَاذ ذكاوته ، ما وراء المال والثَّراء ، وما وراء دكاكينه التى بلغت الألفين ، وما وراء ناطحات

سحابه وصُروح بنيانه . وماوراء شُهرته وجاهه وبُطولته . الكلّ بحاجةٍ لأن يدرُس هذا العصاميّ الكبيرَ فى فشله . فى فقره . فى تصميمه . فى عَدم انهزامه ، فى ثِقتِه بنفسه . فى إيمانه بنَجاحِه . فى مُواظبته . فى جهوده فى إمسائه وصَباحه . فى عدم دَعَتِه ورَاحته . فى حركته ونشاطه . فى دَأبه واُستمراره . فى إكبابه على العمل نَجَح أو فَشَل ، وأخيراً فى اقتطاعه أمدَ ترَقُّبه للنُهز والفُرص . فى العملِ فيما أتاحه حاضرُه بلذة المُعدِّ لنفسه ما هو أرغدُ وأهنأ فى مستقبله .

الواقع أن حياة « فرنك ولوورث » مليئةٌ بتلك المُثُل العلياء ، والواقع أنها مُترعةٌ بأبلغ الحُلول سَداداً ، وأكثرِها رَشاداً ، وأعمِّها توفيقاً ، وأَجْداها نفعاً .

(٤)

فى مزرعة متواضعة « برودمان » بولاية نيويورك وُلد عِصاميُّنا الكبير فى ١٢ أبريل سنة ١٨٥٢ وما كان يُهمكم ولا يهمنى معرفةُ يوم ميلاده ، ولكن الذى يُهمكم ويهمنى أن تسمعوا منه وصفَه الصادق لحال أسرته فى سِنِى طفولته كما حكاها لنا بلسانه الأستاذ ب . ث . فوربس فى أحدِ كتبه « الرجال الذين بهم حياة أميركا » قال : « كنّا فقراء ، فقراء جداً إلى درجة انى لم أعرف البتَّةَ معنى الحصول على « معْطف » يَقينى زَمْهريرَ البرد القارص ! » وقال فى مكان آخر : « لم أعرف مطلقاً كيف أزْلِج ، ذلك لأنه لم يكن فى مُكْنتى شراءُ نعل الزَّلْج ، فلقد كنت أمضى السنةَ فى حذاءٍ واحد من جلد البقر . بل الواقع أنى كنت أقضى نصفَ السنةِ مُنتعلاً ، ونصفها الآخرَ بلا حذاء !

ولقد قضى « ولوورث » أيامَ دراسته الأولى وهو يتحرّق شوقاً إلى العمل . . . والى تحقيق حُلْمه الجميل ، وهو أن يحصُل على عملٍ كبائع فى مَتْجر .

ولما بلغ السابعةَ من عمره انتقلت أسرتُه من قرية رودمان إلى « بند » الكبرى



ناطحات السحاب بنيويورك

بنفس ولاية نيويورك وفى « بند » الكبرى وُضِع الحجرُ الأساسىّ لتكوين شخصيّة « ولوورث » التاجرِ العصامىّ الكبير

(٥)

تسائلونى عن ماهيّة ذلك الحجرِ الأساسىّ الذى كوّن شخصيةَ ولوورث فى «بند» الكبرى وإنكم لتفترضون طبعاً ضُرُوباً من الأعمال والتجارب مَرَّ بها ذلك الصبىّ المُعدم الذى كان يئِنُّ تعباً ونَصَباً تحت عِبء غِرَارة البطاطس الثقيلة الوزنَ التى كان يحملها لأبيه من المزْرعة إلى سُوق البلد لبيعها ، والعيش على ما يجنيه وراء ذلك من ربح ، وانكم لمحقون بلا ريب فيما تفترضون ، ومحقون طبعاً فى أن الفقر يَحْدو إلى العمل . وأن العملَ يُكوّن الشخص . وأن الثبات على المكاره واُحتمالَ الأعباء ، ينْبتان تلك الدَّوحة الباسقة التى تمُدنا بخشبها المتين ، لنصنع منه سُلَّم العظمة ومَدَارج البُطولة .

لقد كان ذلك الحجرُ الأساسىُّ عِبارةَ عن فُرصة يحتقِرها الكلُّ، لأنها لا شىء ، ولكنّها كلُّ شىء . تلك هى فرصة اُتصاله بناظر محطة «بند» الكبرى .

ولا يُهَولنكم اسمُ ناظر محَطة تلك القرية ، فى تلك الأيام فما كان فى منزلته اليوم ولم يكن تحت اشرافه غير عربة واحدة متواضعة ، تافهة الأجر جداً ، حتى أنهم كانوا يسمحون لعاملها أن يشتغل بعمل آخر ، فكان يفتح متجراً بسيطاً فى المحطة ويضع فيه صبياً بلا أجر أو بأجر طفيف .

اتصل عصاميّنا بمَتجر ناظر المحطة وقَبِل الاشتغال فيه من غير أجر . وربما دَهِشتم عن تَسْميتكم لهذه الصلة بأنها الحجرُ الأساسىّ لتكوين شخصية . وهى التى لم تُدِرّ عليه مالاً ولا ربحاً . ثم هى مع هذا حقيرة وتافهة وصاحبُها أشبهُ ما يكون بالخادم الأجير والكَمِّ المُهْمل . ولكن يجب ألاّ يفُوتنكم أنها هى الفرصة الأولى

التي أتاحت له بطريقة عمليّة تَعلُّم البيع والشراء للمرّة الأولى . ولا يَغرُبَنَّ عن ناظركم أنها هي الفرصة الأولى التي غرست في نفسه بُذورَ حُبِّ الأتجار والأستغلال ، وربما جاز لكم من غير تَورُّطِكم في المبالغة والإغراق إذا افترضتم أنّ بطلكم العظيم قد بدأ بالفعل في ذلك المَتْجَر الفقير الذي لا يبيع بأكثرَ من شلنات قليلة جداً في اليوم كان مهد آماله ومصدر مشروعاته .

ستقولون إنَّ بطلكم العِصاميّ قد درسَ في مدارسَ عامة ، وإنه قد تَخَرَّج في مَهدٍ تجاريّ في « واترتون » بنيويورك عام ١٨٧٣ وإن تعليمَه المدرسيّ جعله مُستعداً بالنَّزعة والدرَاسة للعالم الاقتصادي، والكفاح في الوَسَط التجاريّ ، وهذا من الصواب بمكان ، ولكن لا يفوتنا أن اشتغاله بلا أجر في ذلك الحانوت الحقير عند ناظر محطة « رودمان » خلق من ذلك الاستعداد قوّة عملية ، وصبغ تلك النزعة بالصبغة التجارية الحقة .

(٦)

سلسلةُ تجارب الحياة أجزلُ نفعاً من سلسلة معارك الكتب . والإنسانُ الكثيرُ التَّجارب في تَعلُّم مستمرّ ، وفي سني دراسةٍ مُتواصلة . ثم هو متواصلُ النَّجاح، مُوَفّق الخُطُوات، اذا كان متيقظاً إزاءَ وَابلِ الحوادث، مستفيداً من قديمها في جديدها

ومن الحقّ أن نُثبت هنا أنّ « ولوورث » كان من ذلك النوع المستفيد من خِبْرة أمْسه في عمل يومه . أنه كان يَقِظ الذهن والنظر معاً . وأنه من صِنْف أولئك الرجال القليلين في الحياة الذين يُعِدُّون للمستقبل عُدَّته ، والذين لا تَقْعُد بهم لذةُ الحاضر دون احتمال المكروه في سبيل لذةٍ أوسع نطاقاً في المستقبل ، والذين يستهينون باُحتمال ألم الحاضر دَفعاً لألمٍ أبلغ في المستقبل ، والذين يشربون الدواء بغَضاضته وقَذَاه في سبيل شِفاءٍ عاجل ، وثَوب من الصحّة قَشِيب كامل .

أَجل ! هو من ذلك النوع تماماً. فقد جَدَّ واجتهد حتى وَفّر لنفسه خمسين ريالاً من لا شيء ، بل وفّرها مما هو أغلى من كل شيء ، فمن إرادته اُقتطعها ، ومن دَمه صاغها، وبحرَارة قلبه ، وأُوَارِ حماسه، وجَذْوة تَوَقّده كوّنها، لتكُونَ عُدّةً فيما اُختطه لنفسه من مُستقبل تجاريٍّ خليق بكفايته ، جدير بنشاطه .

أتعرفون ماذا فعل بها ؟

هل اشترى بها أسهُماً تضيف إلى تلك الريالات التى لا تساوى عشرة ربحًا لا يزيد عن بضعة قُروش فى السنة ؟

هل غامر بها فى شراء وَرق يا ناصيب حملت له فى ادرانها الثروة بالهيل والهيلمان ؟

هل اشترك مع الغير بها وهو لم يَعْد الحاديةَ والعشرين من عمره فى فَتْح مَتْجَرٍ صغير كالذى عَمِل فيهِ عند ناظر المحطة ؟

كلا ! فإنهُ لم يفعل شيئًا من ذلك ، ولكنهُ بحث عن مَحلّ تجارىّ عظيم الشأن . وقَبِل أن يشتغل فيهِ لمدة ثلاثة شهور بلا أجر ، وأَعَدّ نفسَه أن يعيش من رأس المال الذى فى حَوْزته . أعَدّ نفسه أن يعيش من الخمسين ريالاً التى اقتصدها فى مَدَى عشر سنوات . والتى اكتسبها من مختلف الأعمال سواء أكانت من المزرعة أم غيرها .

لعلكم تسائلونى عن معنى هذه المخاطرة من شابنا العِصامىّ الكبير ؟

إن معناها سام جدًّا . معناها الثقة بالنجاح ، وتَوَفُّرها عندذلك الصبىّ الطرىّ الإهاب . معناها المُجازفةُ بكل ما يملك ، والتقتيرُ على نفسه فى إقامة أَوَدِها بما لا يتجاوز ثلاثةَ ريالات ونصفاً أسبوعياً لمدة الثلاثة الشهور التى قَبِل الاشتغالَ فيها بلا أجر ، وترك الحكم على مستقبله والبَتَّ فى كفايته للمقادير ، بل تَركها لهمته

ونشاطه، وثقتهِ فى اكتساب ثِقة غيره، وعطف غيره، وتقدير غيره .

ألم يكن من الجائز — اذا لم يكن أهلاً لثقتهِ فى نفسه ولصِدق فِراسته — أن يعود أدراجه الى بلدته ومَسْقط رأسه مُفلساً مُشرَّداً مُتسوِّلاً ؟

ولكن الإيمانَ الصحيحَ صادقُ الفِراسة . سديدُ الحكم . مأمون المَغَبَّة . مُنْتِج الثمرة . عادِلُ الجزاء .

(٧)

مضت سنتان ونصفٌ على صاحبنا وصل فيهما راتبُه إلى ستّة ريالات فى الأسبوع، وهو راتب، وان كان قليلاً لمن كان فى مُنتصف الرابعة والعشرين من عمره بَيْدَ أنّ الخِبْرة التى نالها من وراء الأشتغال فى ذلك العمل كانت فى حدِّ ذاتها كبيرةَ المَدَى، عَظِيمةَ الجَدْوَى .

لقد تَفتّح أمامه بابُ السّعة فى الرزق رُوَيْدًا رُوَيْدًا، والتحق فى عمل جديد يدِرُّ عليهِ عشرة ريالات فى الأسبوع .

طَفْرة لا بأس بها من حيثُ الراتب ومن حيث العمل . ويظهر أنّ صاحب المَتْجر الجديد قد بدأ يُسيء الى صاحبنا فى المعاملة وفى انتقاص الراتب . بل قد انتقص الراتبَ فعلاً ريالين كلّ أسبوع . ويظهر أن صاحبنا رأى نفسَه مظلوماً ومُرْهقاً . ويظهر أنه من الكاظمين الغيظ الصابرين على المكاره . ويظهر أن إرادته، وان كانت قد تغلَّبت على كلِّ صُعوبة وأذًى، لم تستطع أن تتغلَّب على حالتِه الصحية التى ساءت كثيراً، والتى اضطرته إلى اعتزال ذلك العمل .

وكان صاحبُنا قد تزوّج حِينما بلغ راتبُه عشرة ريالات . وكان لابد له من إعالة أُسرته من ناحية، واكتساب ما يُقيم بهِ أوَد حياته من ناحية أخرى . بَيْدَ أنهُ قد

ضاق ذَرْعًا بالمتاجر وأصحابها بعد ما ذاق الأمَرَّين من سُوء معاملة صاحب المتجر الأخير، فماذا فعل ؟

الرجلُ العظيم يَخْلُقُ الفرص . أو هو على الأقل يخلُق من طَرْفه الحالك شُعاعاً من النور، أو هو على الأقل يمهد وسط الجبال والأشواك طريقاً للسير والتَّرْحَال .

الرجل العظيم لا تَفُلّ حَدَّ إرادتهِ الشدائدُ والكوارث، والأمراض والمِحَن . إنهُ فى صراعٍ مُستمرٍّ معها ، أو هو فى معالجة ومُوَاتاة ومُجالدة ومُباشرة لعُقَدِها ومشاكلها ، وإِحَنها وشدائدها .

لقد ساءت أعصابُ صاحبنا فلماذا لا يذهب الى الريف . ثم لماذا لا يشتغل فى الريف ؟

ولكن بأى شيءٍ يشتغل فى الريف ؟

أليس فى مقدوره أن يُقيم فى مَزرعة يُنبتها ، أو يعيش من خضرواتها . ثم يَربِّى فيها الطيورَ الداجنة ، ويَستَغلّها للحدّ الأقصى ؟

وهذا ما فعله . وهذا ما ألجأته اليهِ الظروفُ القاسيةُ من زَوْجيّة جديدة . وصحّة مريضة . ومُعاملة سَيّئة . واُهتضامٍ للحقوق والكفَايات .

ومن هنا استطاع صاحبُنَا أن يستخرج من جُلْمود الزمن الصّلْد ماءً رَوَى تُربته وأقامَ أَوَدَه . وليس بهامّ أن يكون الماءُ أُجَاجًا أو غيرَ أُجاج . نَميرًا أو غيرَ نَمير . فقد أَلْفَى فيهِ ما يَشفى الغُلَّة ، وينقَع الحُرقة ، ويُنتج الثمرة ، ويُسعف الطَّلبةَ !

(٨)

الرجل الكُفْء لن يُهْضَم حقُّه ، وإن هُضِم حقه رَدَحًا من الزمن فلن يُهضم طويلًا ، وإن هُضِم طويلًا فلا مفرّ من الإعتراف بفضله وما قام بهِ من جليل الخدمات للانسانية عامّة ، ولجيله ودولته خاصّة بعد مماته .

قد يُغمط حقّ الإنسان، أو يُحَطّ من قدره، ويُنتقص من شأنه. والأشملُ والأعم، أن يَعْتورَ طريقَ العظيم الصعابُ والمضايق، ويكتنف سبيلَه الوعورُ والمهالك، وتنزل بساحته الكوارثُ والشدائدُ. ولاريب فى تَسلّقه لها، واحتمالها بأعبائها، ونفوذه فى صلدها، وتفتيته لجُلمودها، وإذابتهِ لحديدها. وربما يستريح فى نهاية تَطْوافه وينْعَم بطيّب الأُحْدوثة ولذّة تحقيق الآمال والرغبات. وقد تَنْعَم ذريتُه وأمتُه ويُحرم هو. بَيْدَ أن المحقَّق الذى لا يحمل شكاً ولا رَيْباً أن غُبار الشدائد يَنقشِع أخيراً، وأن العدالة المُتَّئِدَة الخُطوات تَصِل لصاحبها إنْ حيًّا وإن ميتاً.

لقد مرت شهورٌ أربعة على مَراهقنا العِصامىّ، وهو يَفْلَح الأرضَ وينبُت الخضرواتَ، ويُربّى الدواجن والفراخ . . . مضت عليه شهور أربعة وهو يَنحت رِزْقَه من صخر الزمن المُغالب نحتا لا يَنِى ولا يَكِلّ

إنه متزوجٌ. ومسئول عن زوجته. ثم هو مملوءٌ حياة وحرارة ونشاطا، فكيف يَسْتكِنّ، وأَنَّى له الدّعة والركون!

العمل لا يَعيب مهما كان نوعُه. وصاحب الكفاية يُعترف بكفايته اذا ترك مكانه خاليا . . . أو اذا شُغل مكانُه بسواه، وبضدّها تَتَميزَّ الكفايات أليس كذلك؟

أجل! لقد شَغل مكانَه فى المتجر الأوّل عاملٌ آخر، ولكن أصحابَ المتجر بعد أن شاهدوا وجرّبوا وقارنوا بعثوا رُسلَهم إلى عصاميّنا وعَرَضوا عليه عشرةَ ريالات كلّ أسبوع ليعودَ إلى عمله فى قسم الملابس.

فلنذكر إذن أن العامل لن يُهضم حقُّه طويلاً، ولن يُغمط شأنه طويلاً، ولنذكر أنّ الأعترافَ بالجميل مهما كان بطئَ الخطوات ومهما كان سُلَحْفِىَّ الطبيعة، فهو بمثابرته وَاصِلٌ إلى هدفه، عائدٌ إلى وَكْره، لائذٌ بموطنه. مهما كان الزمن وطال به الأمد.

(٩)

يقول مؤرخو ولوورث إنه قاسَى طويلاً .

يقولون إنه كان يبدأ عملَه فى المتجر من السابعة صباحاً ، ويمكث أمام منضدته إلى العاشرة ليلاً .

ولكنّ ذلك العملَ المُضنى وما قاساه وذاقه . ولكنّ دأبَه ونَصَبَه ، وعناءه وتعبَه ، كل ذلك كان له الفضلُ الأوّل فى تكوينه وتخريجه وفى نجاحه وتوفيقه .

لقد اشتغل مُراهقنا فى ذلك المتَجَر اشتغالَ المُخلص لواجبه ، المُحِبّ لعمله المُتعشّق لفنّه ، واُستمرّ فيه الجادَّ الدَّءوبَ إلى سنة ١٨٧٩ حيث بدأ فى تحقيق خَياله الأسْمَى . وما كان ذلك الخيالُ سوى فَتْح مَتْجر يَبيع من الأصناف والحاجيات ما يُقَدّر ثمنُه بخمسة (سانتيمات) أى حَوالىْ ثلاثة بنسات ، وهـذا ما يوازى ١٢ مليما تقريباً .

وقد فتح صاحبُنا بالفعل أوّل متجر له فى « يتكا » بمقاطعة نيويورك من ماله الخاصّ بعد أن أقام بتجارب فى بيع تلك الأصناف فى المتْجَر الذى كان يشتغل فيه ونال كلَّ تشجيع من صاحب ذلك المتجر المستر « مور » الذى مدّه ببضائع لبيْعها لحسابه تبلُغ قيمتُها السبعين من الجنيهات .

(١٠)

على أن شَهوة الجُمهور فى شراء تلك الأصناف الرخيصة الثمن قد خمدَت نوعاً — فلا غَرابة إذن أن يَفْشَل عملُ ولوورث فى المتجر الأول — ولا غرابة فى أن يرجِع ولوورث إلى المستر مور صاحبِ متجره الأول آسِفاً كسيرَ القلب .

وأنتم وأنا — كلنا كان ينتظر أن « مور » يُصْدم بأخبار فَشَل مشروع ولوورث .

وأنتم وأنا . كلنا ينتظر أن « مور » لا يمدّ ولوورث بمَعونة مالية جديدة . ولكن

« مور » الذى تأكَّد من بولورث وكفايته ، والذى وَثِقَ بنشاطه وأمانته ، لم يتردد فى تقديم كلَّ ما يحتاج اليه من بضاعة ومال لفتح مَتْجَر آخر فى لانكاستر بمقاطعة « بنسلفانيا » وكان نصيبُ ذلك المتجر النجاحَ الكلىّ .

فتحَ متجراً ثالثاً ففَشِل فيه . فتح رابعاً فنجح . وهكذا استمرّ قدماً فى فَتْح المتاجر طِبقاً لمشروعه إلى أن وصلت متاجرُه إلى الألفين ، وبلغ رأسُ ماله حوالى ستة ملايينٍ من الجنيهات حين حَضَرَتْه الوفاةُ فى نجلن كوث فى ١٨ ابريل سنة ١٩١٩

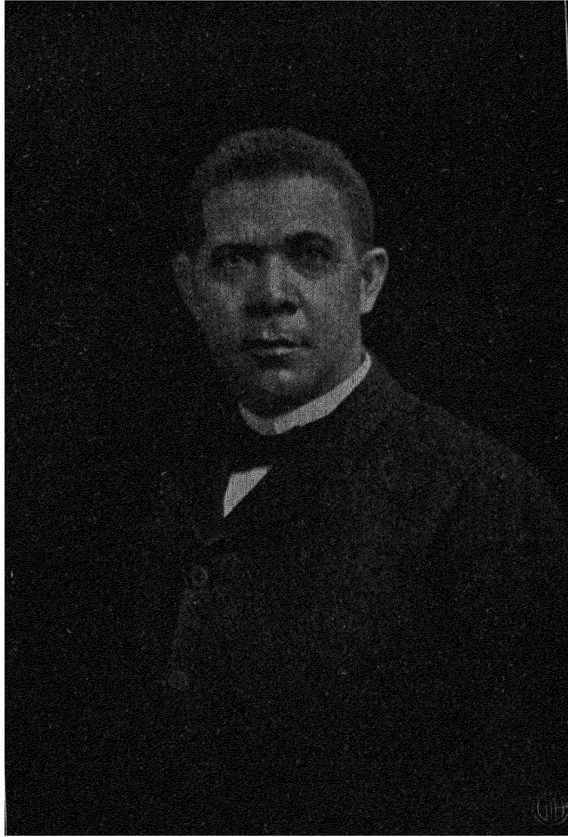
(١١)

من أين هذه الثروة المُتَدفقَة تَدفقَ الطوفان ؟ .

ألا إنكم على حقٍّ إذا ما قلتم انها من إرادته القوية . إرادته التى شَيَّدَت لنا ناطحة سحابه ، تلكم التى كَلِف « كاس جلبرت » بإخراجها له ، والتى يبلغ ارتفاعها ٧٦٠ قدماً وفيها ٥٧ دوراً . والتى لا يزيد عنها فى الطول الاّ بُرْجُ ايفل فى باريس

أجل! انها من إرادته القويّة. إرادتهِ التى لم تنهزم إزاءَ فَشله المتواصل، وصَدَماته المتوالية . إرادته التى حَتّمت عليه ألاّ ينِيَ ولا يستريح ، ولا يقومَ بإجازةٍ مدةَ سبع سنوات . إرادته التى خلَّفت له من السبعين جنيهاً التى اُقترضها والتى أضاعها عَدَمُ نجاح المشروع أوّلاً رأسَ مال مَكَّنَ وَرَثَته فى عام ١٩٢٠ من أن يبيعوا من أصنافه تلك ما بلغ مقدارُه ١٤٠,٩١٨,٩٨١ ريالاً ومن أن يربحوا فيها ٩,٧٧٥,٢٥١ ريالاً أى حوالى مليونين من الجنيهات فى سنة واحدة . إرادته التى أدرّت على شَرِكتهم تلك فى العام الذى قبلَه ربحاً مقداره ١٠,٣٦١,٥٥٧ من الريالات

شبابَنا الناهضين : لتعلموا غير معلّمين أنّ النجاح من الفشل ، والصوابَ من الخطأ ، والفوزَ من الخيبة . . . لتعلموا أن مصدر البطولة هو فى الايمان الخالص . فى المُثابرة الدَّءوبة . ولتثقوا ، رعاكم الله ، أن سِرَّ الزَّعامة فى احتمال المكاره ، ومُجالدة الخطوب ومستحصد الهمة ، ونفوذ العزيمة ، وقوّة الإرادة . .



بوكر وشنجتن

حول مرب شعبي كبير

بوكر وشنجتون

(١)

لا تكون المدنيّة كاملةً إلا إذا كانت الإنسانيّة كاملةً . وكمالُ الإنسانيّة فى كمال المُساواة بين أفرادها . وربما كان من الحقّ أن نقول : إنَّ الصِّراع القديمَ بين الأمم وأترابها من جهة، و بين بعض الأفراد و بعضهم من جهة أخرى ، ينطِق وحدَه بما أصاب الإنسانية فى الماضى من نقصٍ محسُوس فى توافر المُساواة العَادلة حين ذاك . وربما كان من الحقّ أيضاً أَنَّ شِبْهَ الصِّراع الحاضر ينطِق بانتفاء المُساواة الكاملة بين مختلف الألسنة والعقائد والألوان .

على أنهُ مِن الحقّ الجدير بكلّ تقدير ، والخليق بكلّ اعتراف ، أن الثَّقافة الكاملة وذُيوع الثَّقافة يُنْتِجان طُمَأْنِينَةَ التسامح التى يُثَبِّت أركانها ، ويَعملُ على توطيد دَعائمها ، سُهولةُ المُواصلات بين مختلف الشعوبِ . كما أنه من الحقّ الجدير بكل تقدير أن نعترفَ بأن انتشارَ الاختراعات الحديثة ، وسُهولة استعمالها ، وذُيوعَ استخدامها ، مما يُؤدى مُدارجةً إلى تذليل عقباتٍ يُؤْبَه لها ، ومما يَعملُ على التقريب فى كلّ شيءٍ : فى المسافات والأَبعاد . فى الصِّلات والاحتكاكات . فى الاجْتماعات والمُلابسات . وربما يجوز لنا القولُ أو التكهُّن بالقول : إن اختلاف الألسنة والعَقائد والألوان آخذٌ فى التَّضاؤل والزّوال من حيثُ زنة الأشخاص ، وكِفايات الأشخاص وإن القيمة الحقيقية للرجل ستكونُ أكثرَ ارتباطًا بمقياس جُهوده وإنْتَاجه وعملِه ، من مِقْياسها بلغتِه وديانتِه وجنسيّتِه . .

تلك حقائِقُ عامّة يُؤَيدها التاريخُ فى الماضى القريبِ والبعيدِ ، وهى فى الحاضر ميسورةٌ مُستساغةٌ لا تَتطلّب منك برهنةً ولا تَدْليلاً .

على أنا لم نصِل إلى تَضاؤل أثرِ اختلاف الألسنة والعقائد والألوان من حيثُ زِنَة الأَشخاص وكِفاية الأشخاص فى غَمْضة طَرْف . ولم يكن الطريقُ سهلًا مُعَبَّداً بطبيعة الفِطْرة وطبيعة الاجتماع . وإنما كانت ثَمّت قُرْبانات عديدة ، وضحايا وَفيرة ، تَقدَّمت بها الإِنسانية راضيةً أو كَارهةً ، فى سبيل العَدالة العامّة ، أو المُساواة العامّة ، أو فى سبيل انتصار الفِكْرة على أقلّ تقدير . وربما كان من الحق أن نقول : إنَّ الإِنسانيّة لا تزال فى مُنتصف الطريق ، ولكن من الحق أيضاً أن « بوكر وشنجتون » قد وقف حياتَهُ المُنتِجة ، وشَخصيّته العاملة فى سبيل الانتصار العمليّ لتلك البَديهية العادِلة التى تُقرِّر أن القيمةَ الحقيقيةَ للرجل لهى أكثرُ ارتباطاً بمقياس جُهوده وإنتاجه وعملِه ، من مقياسها بلُغتهِ وديانتهِ وجِنْسِيتهِ .

بل إنّ حياتَهُ المُنتجةَ ، وشخصيتَهُ العاملة لَتنْطِقان فى كلّ أثرٍ من آثاره ، وكلِّ مَنْحًى من مناحِى تَصرُّفاتهِ بصحّة تلك البديهية . وتنطِقان أكثرَ من ذلك بأنّ العبقريّة تهبط على مَنْ تشاء ، وفى أى بقعة تشاء ، وأنها ليست احتكاراً لجنس دُونَ جنس ، وليست أسيرَةً لدولة دون أخرى ، وإنما هى مُشَاعةٌ للعاملين ، ميسورةٌ للمُحْسنين ؛ وأنها فى تَنَاوُلِ كلّ صائد ماهر ، وعامل قادر . وتنطِقان أكثرَ من ذلك بأن البُطولة الحقة لا تُكتَسَب بالميراث ، ولا بالمجد التالد والطارف ، أو الحسب والنسب ، ولا بزُخْرف المَديح وقَصِيدِ الشعر ، ولا بجمال الجاه ونَضْرة المال وحُسْن البَشَرَة ، وإنما بالعمل الصامت . العمل المُستمرّ . العمل المُجْدِى . العمل الذى يُنْطِق الافواه من حيثُ لا تريد ، ويُطلق الألسنةَ من حيثُ لا تقصِد ،

ويُكثر الأتباعَ والشيِّعة، ويَكْسِب الأفئدةَ ويَملِك القلوبَ . وأخيراً يحترِف ما أمامه بالحقّ لا بالباطل .

(٢)

وإنك لواجدٌ في حياة « بوكر وشنجتون » الزعيم الامريكيّ الأَسود ما لا تجد إلاَّ القليلَ منهُ في الزعماء البِيضِ ، لأنَّ زَعامته قد قامت بالعمل المُتواضع ، والإِيمان المتواضع ، والفِكرة المتواضعة . ولستَ في حاجةٍ إلى أن أقولَ لك إن الزَّعامة الخالدةَ متواضعةٌ في كلّ شيء ، وإن الزعيم الفَذَّ من يفتَح لك الباب على مِصْراعيه لتدخُلَ إلى قلبه ، ولتعاشرَه في ساحةِ نفسه ، ولتغدُوَ وتروحَ في خَلَجاته وتفكيراته ، ومَسرّاته وإِضَاقاته ، وأَنّاته ولَذَاذاتِه .

لستَ في حاجة إلى أن أقول لكَ : إنَّ الزّعامة الخالدةَ لا تشعُر بهَنةٍ ، ولا يعلَق بها وَضَرٌ ولا دنَس ، إذا أطلعتْك على ما يَعتَورُ طريقَها من صِعاب ، وما يقف في سبيلها من عِقاب ، لأنها وهي تُذَلِّل ذلك كلَّه بمُرْهَف إرادتها ، وتكتسحه بتَيّار عَزْمتها ، تشعُر بواجبها المقدّس أن تصف لك الداء والدواء ، وأن تُخلص في تشخيص الحالة لتترسّم النفوس العالية ما اختطت لنا من خطط ومعابر ، وسُبُلٍ ومناهج ، لأنها أنارت السبيل وبدّدت الديجور[1] !

وأخيراً لستَ في حاجةٍ إلى أن أقولَ لك : إن القُشُور تعصفها الرياحُ ، وإن الزخرف تُحرِقهُ أشعّةُ الشمس ، وإن الطِّلاء لا يبْقى مع الزمن . وإنما هو اللُّباب قد كُتِب لجوهره الخالص كلُّ حياةٍ وخلود وبقاء .

الإِنسانية تمرّ في طُرُق من ضعفٍ وَخوَرٍ ، ونَقْص في المال والجاه ، وتَمُرّ في أدوار من الْجهالة والعوَز ، وليس لها من نَجاحٍ إلا بعد فَشل ، ولا من قُوّةٍ إلا بعد هُون ، ولا من ثَرَاء إلا بعد إضاقة ، ولا من نشاط إلا بعد فُتور ، ولا من

(١) الديجور : الظلام .

توفيق إلا بعد شَطَط . فلماذا لا يطَّلع الإنسان على حقيقة زَميله الإنسان ، ولماذا لا تُقَدَّم لمرضَى الإنسانية العِلاجاتُ الصحيحة لأمراض الانسانية الحقة بلا بَرْقَشة ولا تَزْوير ؟

الإنسانيةُ بحاجة إلى « العلم والعمل » فلماذا لا يكون المُتَمَدِّنُ عاملاً إلى جانب علمهِ . والإنسانية بحاجة الى التَّكاتُف العامّ بين أفرادها ، فلماذا لا يعيشُ الناسُ فى وِفَاق ووِئَام . والإنسانية بحاجة إلى ضروبٍ شَتّى من الإصلاح الروحىّ والعلمىّ واليَدَوى ، فلماذا لا تقِف أوقاتَها لذلك كلِّه بدلاً من الطّلاوات الكاذبة والتكاليف الكاذبة ، والأوضاع الكاذبة . !

ويظهر أن الشرق فى نهضته بحاجةٍ إلى أن يقف على تاريخ ذلك الزعيم العمليّ الكبير لا لأنهُ زِنجىٌّ أسود قادَ أمةً وحرَّر شعبا ، ولا لأنهُ بطلٌ متواضع يُميط لك اللثام عن حقيقة نفسه ، وَيقِفُك على دقائق حياتهِ ، ولا لأنّ حياتَه مرآة نقيّة للخُلُق النقىّ ، ولا لأنّ إرادته حَديدية لا تكلّ ولا تَنِى ، ولا لأنّ جُهودَهُ أبديةٌ لا تخمَد ولا تَفْتُرّ . لا لهذا فقط ، ولا لما هو من طبيعة هذا فقط . وإنما لأنهُ مُرَبٍّ شعبيّ لا مثيل لهُ ، قد امتاز « بالعلم والعمل معًا » . . . وفيهما معًا نجاحُ الإنسانية ، واستقلالُ الأفراد ، وتحريرُ الشعوب .

(٣)

يقول لنا « بوكر وشنجتون » : إنهُ وُلد إمّا فى سنة ١٨٥٨ أو ١٨٥٩ فى مَزْرعة مقاطعة فرانكلى بفرچينيا ، وإنهُ لا يذكر المكان تماماً ، ولا تاريخ الميلاد بالدقة . وإنما يذكر أنهُ وُلد عبداً رقًّا ، ويذكر أن بداية حياتهِ كانت شقيّة تَعِسة ذاق فيها الأَمَرّيْن . وأنهُ كان يقطُن كوخًا من الحطَب حقيراً مع والدته وأخيهِ إلى ما بعد الحرب الأهلية وقتما أُعلن تحريرُ العبيد جميعاً .

ثم هو لا يذكر عن جُدوده لا القليلَ ولا الكثيرَ، وجِمَاعُ ما سمع بهِ هَمْسًا فى أحياء زُملائه العبيد أنّ القومَ قد احتملوا سُوءَ العذاب فى نَقْلهم من إفريقية إلى أمريكا حيث بيعُوا بَيْعَ السائمة، وأنّ والدته فيما يُفترض قد اُسْتَرْعتْ بشخصها نظرَ مولاها الذى اشتراها كما يشترى حِصانَه أو بقرته

ثم يقول لنا: إنهُ لا يعلم عن أمر والده شيئًا!

أجل! إنهُ لا يعلم عنهُ إلا اليسيرَ مما تناقلتهُ الأفواهُ. فقد زعَموا أنهُ كان رجلاً من البيض كان يعيش على مَقْرَبة من مَزرعة القوم، وأنهُ لم يَحفِلْ بشأن ولده «بوكر» هذا وأغفل أمره. ولم يحمِل له ولدُه إزاءَ هذا الإهمال منهُ سَخيمةً ولاَ حِقْداً، بل اغتفر زلّته ورَثَى لفعْلته، وعزَاها إلى سَطْوةِ التقاليد المتّبعة حين ذاك.

أما والدته فقد ذكرَ عنها أنها كانت طاهيةَ المزرعة. وقد سَرَد لنا سَرِقتَها لصِغار الفراخ من سادتها واُستحضارها لأطفالها ليلاً تُطعمهم ما لم يذُوقوه. فقد كان طعامُ العبيد خبزاً وإداماً. وقد دافع عن سَرِقتها دفاعا منطقيًّا برّر بهِ ظروف فِعلتها وأسبابَ تصرّفها قائلاً: إنها كانت هى نفسُها ضحيّة من ضحايا نظام الرِّقّ وقتئذٍ. ولم يذكرلنا «بوكر» أنهُ نام على سرير إلا بعد إعلان التحرير، وأما قبل ذلك فقد كان ينام مع أخيهِ الأكبر جون، وأخته «اماندا» على فَرْشة قشّ على الأرض، وبعبارة أدق كانوا ينامون فوق الثرى على خُلْقان قَذِرةٍ مُهَلْهَلةٍ

(٤)

ماذا كان يفعل فى طفولته؟

لقد كان القوم يستخدمونهُ فيما أرهقهُ، وفيما قد ترك فى نفسه المعذّبةِ الكسيرةِ الأثرَ العميقَ والذكرى المُمضّة

يقول لنا بوكر عن تلك الفَتْرة التى قضاها فى براثن الرّقّ: إنه كان صبيًّا قليل

الجَدْوَى ولكنه مع طراوة إهابهِ قد ناط بهِ القومُ عمليةَ التنظيف وحَمْلَ المياه الى المزارعين فى الحقول ، كما ناطوا بهِ الذهاب كل أسبوع بالحنطة لطحنها على بُعد أميال ثلاثة من المزرعة

ويقول لنا بوكر : إنّ القوم كانوا يضعون الغِلال لهُ على ظَهْر الدابّة ويقسمونه على جانبيها لسهولة حملها . وكثيراً ما يختلّ التوازُن بين قسمى الغلال فى الغِرارة فتسقُط ويسقُط معها من على ظهر الحصان . قال : ولما لم أكن بالقوىّ القادر على إعادة وَضْع الغِرارة فى مكانها . فكثيراً ما كنتُ أنتظر الساعات حيثُ أنا الى أن تتاحَ فرصة مرورِ عابرِ طريقٍ يأتى لتقديم يد المساعدة فى محنتى . وكنتُ أقضى ساعات الأنتظار فى « البكاء والعويل » وأخيراً يذكر لنا عودتَهُ من المِطْحَنة متأخّراً فى الليل ، ومبلغَ فَزَعِهِ من مقابلة الجنود الفارّين الذين لا يرحمون آذان الغِلْمةِ السُّود ، وما ينتظره فى المزرعة من صنوف التأنيب أو الضرب جزاءَ تأخرهِ الاضطرارى

وهذا نمطٌ مما مرّ بطفولتهِ ينطق بما هو من معدنهِ ، وما هو على شاكلته . وعظماءُ الرجال أشقياء فى طفولتهم ، وكبار الأرواح قد صُهِرَت فى مُهودها ، وعُذّبت فى تجاريبها . وتكوين القادة لا يكون فى فُرُشٍ وَثيرة ، وبُسُطٍ ممهدةٍ مغروسة على الجانبين بالأزهار والورود ، بل بالحَسَك[١] والأشواك والقَتَاد[٢] !

(٥)

ستقول لى ماذا تعلّم « بوكر » حينما كان عبداً ؟ وإنى أنتظر هذا السؤال منك ، وأترك الزعيم يتكلم بصراحته فإنه يميط لك اللثامَ عن حقائق جديرة بالاعتبار .

(١) الحسك : أسلاك كالشوك تعمل من الحديد تلقى حول المعسكر لتنشب فى رجل من يدوسها من الخيل والناس الطارقين له . وهى المعروفة الآن « بالأسلاك الشائكة » . وهذه تسمية متجوز فيها فان أصله نبات ذو شوك (٢) القتاد : شجر صلب له شوك كالابر .

يقول لنا «بوكر» : إنهُ لم يدخل مدرسةً أثناء عبوديّتهِ ، وإن كان يذكر أنهُ ذهب مرة يحمل لسيدته الصغيرة كتبها حتى باب المدرسة . وقد قال صراحة : إنّ سعادة جنات النعيم فى نظره حين ذاك أن يدخل المدرسة وأن يدرس كما تدرس التلميذات فى غرفة التعليم ، وليس من شكّ أَن ذلك المنظرَ تركَ فى نفسه وَلَهاً وهُيَاماً ، وحُرْقةً وضِراماً ، أكثر بلا ريب من ذلك الأثر العميق الذى نالهُ من جاذبية « الكعك » وشهىّ منظره ولذيذ مأكله ، فقد استلبَ منه اللباب ، وأسالَ منهُ اللعاب . وكم عَقَد خناصر الرجاء أن يعمل على أكله يوم يتمّ تحريره ، تلك كانت أُمنيته القُصوى يوم كان فى الرِّقّ صبيًّا

ومن صريح اعترافات « بوكر » أثناء تلك الفَتْرة من حياته أنه لم يجلس على خوانٍ واحدٍ وأفرادَ أُسرتهِ ، وإنما كانوا يأكلون أكل الحيوانات الخارسة ، كلٌّ يلتهم نصيبه التهامًا ، وينفرد به قعودًا وقياماً

وكذلك يعترف لنا أنه قد عُهِد اليه فى القيام بعملياتِ شدّ الحبال لتهوية الْحُجُراتِ فى منازل أَسياده

يقول لنا « بوكر » : إنّ أوّل ما تعلَّمه هو عدد «١٨» وكان لكلّ عاملٍ عددٌ يوضع على نتاج عمله اليومى . وكان ذلك العددُ رمزًا لعميد أُسرته ، ومن ثَمَّت حَسَر الصبيّ عن ساقه فى حفظ الأعداد واستيعابها ، ثم تدرّج منها الى الكتابة والقراءة

ويذكر لنا أن أوّل كتابٍ حَصَل عليه كان كتاب التهجئة تأليف « وبستَرْ » وشدَّ ما كانت دهشتهُ من كيفية حصول والدته على هذا الكتاب له

ونظراً الى عدم وجود أحدٍ من أبناء جنسه يعرف القراءة والكتابة فى النواحى القريبة ، فقد صمّم الولد أن يبذُل جهده بنفسه فى حفظ تلك الأوليات

ويعترف لنا أنه وإن كانت والدته أمّيةً لا تعرف من الكتابة والقراءة شيئًا ،

بيد أنها كانت واسعةَ الآمال ، طموحةً لأن يتبوأ أولادُها مكاناً علياً . وأنها شاطرتْ ولدها فى طماعيته فى التعلم ، وعملت فى تعبيد الطريق له ليُسْعَف بطَلِبته

وكم كان « بوكر » يتضاءل خَجَلاً ووَجلاً كلما اقترب منه شخصٌ من البِيض ممن يعرفون القراءة والكتابة ، فقد كان شديد الرغبة فى السؤال عما لا يعلم ، والوقوف على ما لا يعرف ، وكان إذ ذاك قد التحق بمنجم مِلْح ، وهنالك اجتمعَ بأحدِ زملائه السُّودِ فى مدينة « مالدن » ممن تعلّم القراءة والكتابة فى « أُهَيُو » وقد شاهده يقرأ فى صحيفةٍ وحوله جمهورٌ من المستمعين رجالاً ونساءً ، وكلهم شديدو الرغبة فى تعرُّف ما تحتويه الجريدة من الأخبار والأنباء . وكان له من ذلك المنظر الذى ملأه أسًى وحُزناً ، ومن منظر سيّداته الصغيرات اللاتى احتمل لهنّ كتبهنّ الى مدرسة المزرعة ما ألهبَ ألهوبه ، وأضرمَ جذوته ، وأثار فيه كَمِينَ ميله الطبيعى الى تعلّم القراءة والكتابة ، وحَدَا به الى ما ينزع ويهيم من الإكباب[1] على التحصيل بنَهمٍ وتصميم جديرين بكل إعجاب. خليقين بكل تقدير

ومن الحتم علينا هنا أن نشير إشارة صغيرة الى ما فى احتكاك الأطفال الصغار بالمُثل العليا عامة من الأثر العظيم فى طبع تلك الصُّوَر المنتجة من نفوسهم اللدْنةِ[2] المفتونةِ بما تشاهد فى محيطها الصغير •

نفوسُ الأطفال أكثرُ ميلاً الى المجد واستساغة لمعانيه . وهى بطبيعة عدم مرانها ، وعدم اصطدامها بصِعابِ الحياة ، وعدم تذوُّقها لخيبات التجاريب تستسهل العِقابَ ، وتثب بخيالها السريع الى ما لا تَصل اليه الرقاب . فهى فى طِماحها وعَدْوها الى الذِّروة من كل شىء ، وهى فى وَثْبتها وعدم تَشْذِيبها وتعليمها ، وهى فى عدم تقيُّدها باعتبارات الأخلاق والعادات والطقوس ، هى فى كل ذلك أقربُ لُدُونةً

(١) أكب على الدرس : أقبل عليه ولزمه (٢) اللدنة : اللينة

ومُرُونةً واُستساغةً لتشرُّبِ تلك الصور العالية ، وتعشقاً لها واُقتداء بها وجَرْياً في منهاجها

فلا غرابةَ إذن وقد رأى « بوكر » منظر سيّداته الصغيرات وهنّ نظيفاتٌ كالملائكة ، مُكِبَّاتٌ على التحصيل كالطيور المغرِّدة ، يقرأنَ كتبهنّ كالبلابل الشجيّة ، ويَفْهمنَ ما لا يَفْهَم ، ويَعْلمنَ ما لا يَعْلَم ، أن يتحسَّر على حِرْمانه من ذلك النوع من السعادة ولا سيّما مهمّته التي تُذِلّ . فهو إما في المَنْجَم أو المَلاّحة ، وإما في طَحْن الغِلال أو شدّ المراوح أو حمل مياه الشرب لمن يريد اُرتواءً وسُقْياً

بلْ لا غرابةَ إذن وقد شاهدَ بعينيه تقدير أبناء جلْدته لمن قرأ لهم صحيفةَ الأخبار فقد احتاطوا به وفُتِنوا بعامه . وأُعجَبوا بشخصه . ولاَ ريب في أنه من دواعي إذاعةِ صفات البطولةِ ونَشْر محامدِ الخِلالِ ما تلقاه من تقدير الناس لصاحبها واُحترامهم لذويها

مستحيل ألاّ تُرغِم الناسَ صفاتُ البطولة على اُحترامها . إنها تغزو القلوب غزواً بلا اُستئذان ولا تعمُّد . وبلا محاباةٍ ولا مُدَاهنةٍ . إنها تفتحُ المعاقلَ وتصِل الى الصميم . لأنّ الإنسانية مهما كانت في الحَمأة من المادّية ومن الشهوانية ، لا تزال تَحِنّ الى المعاني الروحية . أو لا يزال للقبَس الروحي فيها ، ولو في لحظاتٍ قصيراتٍ . وفَيْناتٍ معدودات . حنينٌ الى معدَنه ، وتحليقٌ الى سمائه ، وأوْبةٌ الى وَكْرهِ . فلماذا إذن لا ينزع « بوكر » وروحه هذا معدنها ، وتياك تُرْبتها ، الى ما يتفق وقبَسه الروحي وكيانه النفسي ؟

بل الشاذّ والغريبُ أن يقع غيرُ ما وقعَ ، ويحدُث ما لم يحدث . أليس كذلك ؟

(٦)

وللجرّية حسناتُها ومباهِجُها . ومهما قالوا عن كَبَواتها وعَثَراتها فإنّها النعيمُ المُقيمُ ، والمثقِّفُ الأمين ، والساعد اليمين .

الحرّية إذا فُهِمتْ على حقيقتها، وأُستظَلّ الناسُ بظلّها الوَريف، فإنها تخلُق منهم الخَلْق الهانئ السعيد، فلا حُروبَ ولا خِصامَ، ولا سَخيمةَ ولا صِدام

لقد أُعلِن التحريرُ للسود. وقد ترك السودُ كلّ شيء مما يُذكّرهم بماضيهم، حتى المزارعَ التى كانوا يعملون بها، حتى الأسماءَ التى كان يُدْعَوْن بها، وخلَعوا إهَاب الرّق وجِلْبابَ العبُوديّة، وأُستنشقوا الهواءَ الطَّلْق، وتركوا العِنان لكلّ ما يشتهون. ثم عادوا أدراجَهم إلى مزارعهم وهم أكثرُ نشاطاً، وأوقدُ جَذْوةً وأشدُّ حَميَّةً.

بل إن خِدمتهم الماضيةَ لسَادتهم البِيض جعلتهم أقدرَ وأكفأ. وتركت البيضَ أقلّ جَلَداً وأضعفَ عزيمة.

بل إن العملَ له نعيمُه فهو يصقلُ النفوس كما يصقلُ الأَيْدى، والناجحُ فى الحياة هو بلا ريب العاملُ فيها، الدءوبُ على الاضطلاع بتكاليفها، الصبورُ على مكارهها، الممعن مُضِيّاً فى أحتمال أعبائها.

ولقد بُدِئ الآن فى المناقشة فى ضرورة تعليم السود، وفكّر الجنرال ارمسترنج وغيره فى فتح معاهد لتعليم السود. وأخذ هؤلاء السودُ يَفِدون زَرَافاتٍ ووحْدَانًا على تلك المدارس، وكلهم عِطاشٌ إلى نَميرها، وكلهم حَنينٌ إلى ورودها. حتى الشيوخُ وهم فى العِقْد الخامسِ من سِنِى حياتهم يريدون قراءة الكتابِ المقدّسِ لِيَلْقَوا الله سُعَداءَ، وليستقرّوا فى لحودهم سعداءَ.

فماذا كان نصيب «بوكر» من تلك الحركةِ التعليمية وليدةِ الحركةِ التحريرية؟

(٧)

خيبةٌ مُمِضَّةٌ صُدِمتْ بأثرها السيئ نفسيّةُ طفلِنا الوثّابةُ، ورُوحه النَّهِمة بالعلم والتعليم. تلك الخيبة هى موقف زوج والدتِه منهُ.

لقد فتحت مدرسةٌ فى « كناوها » وكان طفلُنا يشتغل حين ذاك فى « الملاَّحة » ويظهر أنّ الزوجَ تبيّن من عمل بوكر فى مَنْجَم الملح فى عدّة الشهور التى اشتغل فيها بِهِ أنهُ مصدرُ نَفْعٍ يدرّ عليهِ صبابة من المال هى بمثابة أخلاف رزق لديه

يقول بوكر: « لما فتحت تلك المدرسةُ أبوابَها قرّر الزوجُ أنهُ لا يستطيع التخلّى عنّى ، وكان لقراره سُحُبُ غيومٍ تراكمت على كلّ آمالى ومطامحى . وشدَّ ما عانيتُ من جرّاء قراره ، لأنّ مكان عملى كان على طريق المدرسة حيث كنتُ أشاهد التلاميذَ يَرُوحون ويَغْدون اليها .

« وزادتنى تلك الخيبةُ تصميماً على أن أتعلّم شيئًا على أىّ وجه ، وبأية طريقة . فأقبلتُ برغبة شديدة على امتلاك ناصية كتاب التهجية ، ولقد واستنى والدتى فى خيبتى تلك ، وبحثت بكل ما فى مقدورها على ما يُبهجنى . وعَمِلت جهدَها على إيجاد وسيلة لتعليمى ، فقمتُ بعد برهة من الزمن فى إعداد المعدّات لتحصيل دروس ليلية بعد قيامى بساعات العمل نهاراً . وكنتُ شديدَ الترحيب بتلك الدروس الليلية ، وأقبلتُ عليها أيمّا إقبال ، وحصّلْتُ فى خلالها أكثرَ مما يُحصّل التلاميذُ فى ساعِ نهارهم ، ولقد كان لى من تجاريبى فيها أن آمنتُ بجزيل جَدْواها وعميم نفعها ، وعمِلتُ فيما بعد على تعميمها فى هامبتون وتسكيجى

« على أن قلبى الصغير كان نَزّاعًا إلى ضرورة الذهاب إلى المدرسة النهاريّة ، ولذلك لم أترك فرصةً تمرّ دون اقتناصها إلى أن فُزْتُ أخيرًا بطَلِبتى ، وسُمِح لى بالذهاب إلى المدرسة نهاراً بضعة شهور على شريطة أن أَستيقظ مبكراً وأشتغل فى الملاحة حتى الساعة التاسعة صباحاً ، ثم أعودَ مباشرةً اليها بعد الظهر عند انقضاء العمل المدرسىّ لأشتغلَ فيها ساعتين أُخريين »

من جميل ذِكْريات بوكر فى هذا الصّدد ما كان يلقاه من صُعوبةٍ فى الوصول

إلى المدرسة فى التاسعة تماماً ، وهى بعيدةٌ عن مكان عمله الذى حتَّم عليه البقاء فيه إلى التاسعة ، فماذا يعمل ؟ لقد كان فى مَقرّ عمله ساعةُ حائطٍ ، وكان زملاؤه العُمّال جميعاً يعتمِدون عليها فى ضبط ساعاتهم وفى أمور عملهم . وكان بوكر مضطراً للَّحاق بموعد مدرسته ، وهو مضطرٌ أيضاً للبقاء فى العمل حتى التاسعة ، وكان مَيلُه الطبعىّ للدرس وتحصيله ، والمواظبة على حضوره شديداً وقويّاً . فوصلتْ به الحيلة إلى أن يقدم عقربى الساعة دقائقَ معدودة تُمكّنه من الوصول فى الموعد المضبوط إلى فِناء المدرسة . وأخيراً لاحظ العمالُ اختلالَ الساعة واكتشفوا فِعلتَه فقَفَلوا باب الساعة بإحكام ، فلم يكن له بدٌّ من إعنات نفسه للمحافظة على الوعدين .

(٨)

ولقد اتصل طفلنا بعد هذا بخدْمة سيدة طيبة القلب ، شديدةِ المُراقبة ، دقيقةِ العناية بالنظافة والنظام ، وهى زوجةُ الجنرال لويز زوفير . فلاحظت ميلَه إلى التعلم ونُزوعه إلى التحصيل ، فعمِلت على مُساعدته فى لَحَظَات فَراغه على فَهْم ما استغلق عليه . ثم كان افتتاحُ مدرسة همبتون التى افتتحها الجنرال ارمسترنج ، وكانت تُبيح للسّود العملَ لاكتساب نفقات تعليمهم . وهى بعيدةٌ عن قريته بُعداً شاسعاً . إذ كانت تبعُد عن مالدن خمسمائة ميل . ولكن النفوسَ العظيمةَ تستسهل الصعابَ من الأمور ، والإرادات القويّة لا تثنيها الشدائد ، ولا تقف بها دون تحقيق أملها العقبات ، بل إن النفوس العظيمة لتستمرئ المرّ فى طريق الأمل ؛ وتستعذب الصعب فى سبيل الغاية ، ثم هى من بعد ذلك لا تقنع إلا بالثمر الجنىّ والطعام الشهىّ !

أجل ! لم يكن فى حَوْزة فتانا نقودٌ تُعينه على قَطع مرحلته . فلماذا لا يقطعها بإرادته ، ولماذا لا يشتغل أثناءَ سَفْرته ، فإما ربحٌ يُمكّنه من رُكوب قاطرة

السكة الحديدية ، وإما امتطاء لنعليه وركوب لقدميه .

وذلك ما فعله طفلنا فقد قام من توه ولحظته يقطع المهامه والقفار ، فى البكور والأسحار ، إلى أن وصل إلى مدينة رتشمند وهو خالى الوفاض ، وقد ذاق الأمرين ، ورأى ألواحًا فوق حفرة الشارع العامّ وقد لعب الكرى بمعاقد الأجفان ، فانتظر هنيهة حتى انقطعت السابلة ودفن نفسه فى تلك الحفرة ليريح بالنوم جسمه اليقظان . وبحث عن عمل فى يومه التالى ووفق إلى سفينة تفرّغ حمولتها ، فواظب على العمل فيها نهاراً ، والنوم فى الحفرة ليلاً إلى أن وفّر بإرادته وعمله وإكبابه ومواظبته ما مكّنه من السفر إلى همبتون بالسكة الحديدية طبعاً . وإلى ما هو أكثر من ذلك ، إلى توفير نصف ريال فوق ما يريد .

(٩)

جميلٌ جدًّا أن نقرأ اعترافات بوكر عن أثر دقّة مسز روفنر من نفسه ، ومبلغ عطف والدته عليه ، ومقدار تلهّفه على التعليم ، وشدّة رغبته فى أن يكون كأولاد البيض لباساً وهنداماً ، وعلمًا وعرفانًا ، وشغفه بأن يلبس قبعة مثلهم . وجميلٌ أن تقرأ احتذاءه « للقبقاب » وارتداءه لما يشبه القماط . وجميلٌ أن تقرأ ما خطّه عن عوزه وفاقته . ولكن أجمل من ذلك كلّه أن تؤمن بأن نجاحه كان بقوّة إرادته !

لقد وصل إلى همبتون بادىَ الفاقة ، سيّء الحالة ، فكلّفه أساتذةُ المدرسة تنظيف حجرة الدراسة فسرْعان ما أخذها وكنسها مرةً وثانيةً وثالثة ورابعة

أجل ! لقد كنسَ الغرفة أربعَ مرات فرأوْا من هذا المخلوق العجيب عملاً عجيبًا عطّف القلوبَ الجامدة عليه ، فأكبروه مع رثيث هندامه وقبلوه مع حقارة شأنه .

بل إن نفسَ هذا التصميم منه فى إتقانه كلّ ما يكلّف أداءهُ ، وتلك العناية الطبيعية المنغرسة فيما بين جنبيه لهما السرّ فى قبول مسز روفنر لهُ دون غيره ، وفى

بقائه فى خدمتها دون سواه مع صرامتها ، وهى المعروفة بتغيير الخدم بين حين وحين .

وربما كان نفسُ هذا التصميم منه فى إتقانه كلّ ما يُكلَّف أداءهُ مما صَغُر أو عظُم ، قلَّ أو جلّ ، هو السرّ الوحيد فيما كتب له من نجاح فى مهمته فى الحياة ، وفَوْزه فى رِسالته للانسانية عامّة و بنى جنسه خاصّة .

أنظر ما يقوله بوكر فى هذا الصدد بالحرف الواحد : لقد مَسحتُ حجرة الإِلقاء ثلاث مرات . ثم أمسكتُ بريشة التنظيف ومررت عليها أربعاً .

أجل ! لقد مسحتُ الخشب الذى حولَ الحائط ، وكلّ مَكْتب ومِنضدة وقِمَطر ، وكلَّ قطعة من الرياش والأثاث رفعتها من مكانها الأصلىّ ونظّفتها ، كما نظفت كل رُكن من أركان الحجرة تنظيفاً تامًّا . وكنتُ أشعُر بأن مستقبلى يتوقّف على الأثَر الذى سأتركه من نفوس أساتذتى فى تنظيفى للحُجْرة . وعند ما انتهيتُ من مهمّتى أبلغتُ ذلك للمديرة ، وهى سيدة من « ينكا » تعرفُ أين تنظُر إلى موضع الغُبَار . فلما أبلغتُها دخلت الحُجْرة وفحصتْ أرضها وأفنيتها ، وأمسكت بمنديلها ومسحت بهِ الخشبَ فى الحائط والمكتب والمقاعد . ولما عجزت عن العثور على أثرٍ من الغبار لا على أرض الغرفة ، ولا على أثاثها قالت فى سكون : « أظن أنهُ فى الإِمكان دخولك للمعهد »

« ولقد كنتُ ساعتئذٍ أسعدَ مخلوقات الله على وجه البسيطة . لأنّ غسلَ تلك الحجرة كان بمثابة اُمتحانٍ لقَبُولى بالجامعة . وإننى أعتقد أنهُ ما من شابٍّ دخل اُمتحان القَبُول فى الإِلتحاق بجامعة هارفرد أويايل ، وأحسَّ بسرور أكيدٍ كالذى أحسستُ بهِ .

« لقد مررتُ فى امتحاناتٍ كثيرةٍ بعدئذٍ ، ولكننى كُنت أشعُرُ دائمًا أنّ ذاك الامتحان كان أدقَّ امتحانٍ مررت فيهِ . . . . . » اهـ

ثم انتقل تلميذنا الكبير فى اعترافاته الى بيان نوعِ حياته فى همبتون ، وكيفيةِ صداقته لمس مارى ماكى الناظرة ، وتقديرِهِ لخدمات الجنرال ارمسترنج صاحب ذاك المشروع ، وبيانِ أوجه كَدْحه واجتهاده فى العمل ليتسنَّى له إتمام الدراسة . وعَطْفِ أخيه عليهِ ، ووفاة والدته الرءوم مما تجده مفصّلاً فى تاريخ حياته الذى كتبه بنفسه بعنوان « من العبودية » مما لا يخرج عما اُقتبسناه لك فى تلك اللمحة الموجَزة .

والذى يهمُّنا توجيهُ النظرِ إليهِ مبلغُ حرصِ الرجلِ العظيمِ على إتقان كلِّ عملٍ يُعهد اليهِ بهِ مهما كان نوعُه ، ومهما كانت طبيعته . ليس بهامٍّ ولا كبير خطرٍ أن تكون كاتباً أو واعظاً ، قائداً أو طبيباً ، خادماً أو زارعاً ، صانعاً أو عاملاً — مهما كانت طبيعةُ أعمالك — وإنما الهامُّ أن تؤديها على أكمل الوجوه ، وأن تُخلص فى القيام بها . الهامّ أن تشعرُ بمسئوليتك فى إتقانها وتخريجها كما ينبغى وكما يجب ، إذا فعلتَ ذلك وآمنتَ بهِ فى صميم نفسك ، فأنت الرجلُ العظيمُ حقًّا .

لا عابٌ ولا نقيصة فى نوع العمل ، وإنما العابُ والنقيصة فى أداء ذلك النوع من العمل على وجهٍ ناقصٍ ، وبروحٍ فاترةٍ ، وحميَّةٍ خامدة . كلّ شىء يتوقَّفُ على الكيفية لا على الشكل على الجوهر لا على القشور : فى العمل ، فى الإخلاص ، فى المظهر .

ولعل هذه الصفة دون غيرها هى أساسُ بطولة العظماء ، لأنّ مصدرَها الإيمانُ بما فى عنق المرء من مهام . والإيمانُ هو أسُّ النجاح . وليس من شك أن رائدَ التبريز لهو التفانى فى الإخلاص ، والمواظبةُ على العمل ، والمضىُّ فى سبيل تحقيق الغاية ، والاستهانة بكل صعب ، والصبرُ على المكاره ، واحتمالُ كل أذى لأجل المبدأ أو فى سبيله .

(١٠)

حياتُه الدراسية والعملية فى همپتن كانت صحيفةً مُشرّفةً له ، وقُدْوةً خليقةً بالإكبار من كلّ طالبِ علمٍ وعملٍ . فلقد استهان بشتَّى صُنُوفِ المتاعب من عوَزٍ وإضاقة ،

وعُسْرٍ وفاقة ، وقَصْرِ يدٍ عن كل ما يقيم النفس ويكسى الجسد ، وحيرة المعدم وعجز ذى المتربة

صعوبةٌ فى كل شىء : فى تحصيلِ القُوت . فى التسربُل بالرثّ من الثياب . فى اقتناء الكتب والمراجع . فى دفعِ أجورِ الدرس والإقامة . بيدَ أنّ هذه الصعوبةَ البالغةَ فى حَرَجها وعُسْرها . وتعبها وعِبئها . وحَسَكها وقَتَادها . وحَلَكها وظلامها — كانت البوْتقةَ الحكيمة ، والمثقفةَ الرشيدةَ ، والمربِّيةَ السديدة . فقد خَرّجت منه العاملَ الدؤوبَ ، وكوّنت منهُ حمّالَ الأعباء الصبور . وأنضجت فيهِ الإرادة النافذة المضاء ، الحادّة الغرار . وأتمت لديهِ صفة الرجولية الجَلْدَة ، المستهينة بما يَعْتَوِر سبيلها من كؤود العقبات

أجل ! لا يكوِّنُ العظيمَ إلا ما يترَاكم فى طريقهِ من كثرة الخيبات والفشل ، ولا ينضجهُ إلاّ ما يلاقى فى سبيله من المرتقيات الوَعْرةِ المستعصاة ، ولا يتم لديهِ صفة الرجولية الجَلْدة إلاّ ما يعانيه من المكاره والنقص ، ومن تباريح تكاليف الوجود ، وأوضاع الاجتماع ، وتقاليد الوسط ، وحطام الحياة

ألا إنّ فى الحلكة والظلام . فى الفاقة والإعواز . فى المَتْربة والضيق . فى الدفع والجذب . فى العُدْم والجَدْب — فى هذا كله تخلق حيلةُ الإنسان ويد الإنسان من الظلام نوراً ، ومن الفاقة ثَرَاء ، ومن العُدْم عملاً . كذلك تفتق حيلة الانسان من الجَدْب خصباً ، ومن العَدَم وجوداً ، ومن الشدة لينا ، ومن السكون حركةً ، ومن الرمال جناناً ، ومن الأطفال رجالاً ، ومن الرجال أبطالاً !

لقد اضطر بوكر الى بيع بذلتهِ . ثم الى رهن ساعته . فى حياته الأولى . ولما أتمَّ درسهُ ونال من أسباب الثقافة والتهذيب ما أيقظَ فى نفسهِ الشعور بأنهُ إنسان . وأنهُ خُلِقَ ليكون إنساناً نافعاً أحسّ بعبءٍ عظيم مُلقًى على كاهله . ذلك أن يعمل

ما فى مقدوره ليجعل رفاقه السود مثله فى الإنسانية ، بدلاً من تركهم كمًّا مهملاً كبعض المقتنيات ، أو دونها قَدْراً وخَطَراً

(١١)

ما ألذّ نعمةَ العمل . بل ما ألذَّ نعمةَ الشعور بالواجب ! ألا إنّ نعمةَ الشعور بأداءِ الواجب مصدرُها راحةُ الضمير . والضميرُ إما أن يكون جامداً لا حَرَاكَ به ولا حياة فيه ، ولا نبضَ ولا حرارة . كلاَّ ! بل يكون وقتئذٍ مصدرَ رائحة عَفِنةٍ يتقزّز منها الجميع . وإما أن يكون جنةَ نعيم أو نارَ الجحيم . ولعمركم ليس أفضلُ ولا أنبلُ من سعادة الضمير أو عذابه . سيان طبعاً هناءِ الضمير أو عناؤه ، لأنهما دليلان على الحياة . على النبض والحرارة . على الحساسية والشعور . على المحاسبة والاحتكاك . وأخيراً على الُخلُق والكرامة والإيمان والعدالة . على فَهم ما يجبُ وما لا يجب ، وتعرُّف ما يليق وما لا يليق

ألا إنّ الأمة التى يُحِسّ قادتُها بما عليهم من واجباتٍ وتَبعاتٍ ويجعلون من حياتهم العمليّة مثلاً ناطِقًا وقُدْوة صالحةً ، لهم وحدهم عُنوان نهضتها ، ورَمْزُ حياتها . ومصدرُ سعادتها ، ومَوْئِلُ قوّتها . ذلك لأنّ حياةَ الأمم بالعمل قبل أى اُعتبار . وبالعمل وحدَه تُقاس الكِفايات وتمتاز الشخصيّات . ولَشعبٌ عارفٌ بما عليه من واجبات وتَبعات عامل بها أقدرُ شأناً فى مُعترك الحياة من شعب صارخ بما له من حقوق . لأن الكلامَ يضيع فى أرجاءِ الهواءِ ، وأما العمل فحركةٌ ونماء ، وحياةٌ وبقاء . وتقدّم وارتقاء

وقد كان « بوكر » مثلاً أعلى لتعرُّف الواجب . وقدوة سامية للعمل المنتج ، والحركةِ الدءوبة

لقد فتح مدرسةً لتعليم ثلاثين طالباً من لا شىء . فتحها بأقلّ من ريال ورهَن

ساعتَهُ وواصل مَغْدَاته بِرَاحِه ، وساعد كلَّ أسود وسوداء على التعلّم فى مدرستهِ أو فى همپتن . وعمِل على إتاحة فُرَصِ النجاح ، والعمل لـكلّ راغب من أبناء جِلْدتهِ . ثم ماذا ؟

لقد وقف « بوكر » على سرّ النجاح من أول لحظة . لقد فهِم الجوهرَ لا العرض. فهم أنّ المطلوبَ من العلم هو الإعداد الحقيقىّ لمعترك الحياة الحقيق . فهِم أن المدرسة يجب أن تكون صورةً مصغَّرة من ميدان الحياة ، وأنها يجب أن تُخرِج رجالاً للمزاحمة فى مناكب الحياة بأسلحة الحياة . فهِم أن التعليم الظاهرىّ لا يُفيد بل يضرّ . فهِم أن النظريات بحاجة الى العمليّات ، فماذا فعل ؟

انّ مدرستهُ بحاجة الى بنايات جديدة وعُدَدٍ ومُعدّات . وأدواتٍ وجهازات . ومَقاعد وحُجُرات . فلماذا لا يشترك التلاميذ فى إعداد ذلك جميعه . بل لماذا لا يقوم التلاميذُ بمختلَف الصناعاتِ سواء أكانت للمدرسة أم لحاجات الأهلين ؟ لقد نفرَ بعض الآباء من خُطته ، ولكنّ إرادته الحديديةَ نجحت فى النهاية . وقد فَشِل فى بناء قَمينةِ ضَرْب الطوب وغيرها أولا وثانياً ولكنه نجح أخيراً

لا امتهانَ فى العمل . بل المجدُ كلّ المجد فى العمل . وفى نجاح العمل تقدّم البشرية المطّرد . وبقدر التضحية يكون الجزاء . لقد نام فى العَراء حينما كان طالباً وضاقت المدرسة بطُلاَّبها ، وقبِل مع رِفاقهِ سُكنَى الخيام إرضاءً لرغبة « ارمسترنج » فى قَبول عدد من السود يزيد عما تحتمله حُجُرات المدرسة ، فلماذا لا يتقدم طلاّب مدرسته بمثل نوع عمله

لذلك رأى أن يخلُق على غِرَاره هو، وعلى خُلُقه هو ، وعلى مِثاله ونشأته من تلاميذه رجالاً مُتدرِّعين بسلاح العمل وخُلُق التضحية، مُدَرَّبين على العمل والكِفاح فى الحياة بسلاح العمل

أجل ! لقد كلّف بوكر وشنجتون طُلاَّبَه العديدين بكل أنواع العمل ، وأفهمهم بطريقة عمليّة أن العمل وإن قلَّ قدره ، وصَغُر شأنه تاجٌ يشرّف صاحبَهُ . كلفهم ضربَ الطوب ، وعمليات البناء . كلفهم مُختلفَ أنواع الصناعات والزراعات

لقد صمَّم « بوكر » على قَرْن العلم بالعمل . صمَّم على أن يتعلّم الطالبُ النظرياتِ من الكتب ، والعملياتِ من صناعات الوسَط الذى يعيش فيهِ ، والذى سيعيش فيهِ . صمَّم على أن يخرُج الطالب من معهده نافعاً لنفسهِ ، معتمداً على جهده ، مكتسباً رزقَه من يديه ومن عقله . ثم ثابرَ على ذلك إلى أن تمَّ على يديه إنشاءُ مدرسةٍ شاهقةِ البناياتِ والملحقات للعلوم ومختلف الصناعات ، أوجد بها حوالى الأربعين معهداً ، وما يزيد على ألف طالب ، وقد بنى طلبتها كنيسةً لهم

(١٢)

وهل اكتفى « بوكر » بذلك ؟ . هل قنع بإفادة ألف طالب ؟

لقد رأى أن أمته فيها ما لا يقلّ عن عشرة الملايين من أبناء جلْدته . وهم قد خيّم الجهلُ عليهم بجِرَانهِ . وهم فى مَتْربة مُودية ، وحالةٍ مهلكة . ورأى أنهم بحاجةٍ إلى رُسُلٍ وهُداة من خرّيجى مدرستهِ الذين اعتادوا العمل ، وقرَنوا العملَ بالعلم ، والذين أنضجَت التجاريبُ عقولَهم والعملُ أيديَهم ، والذين تهذّبت أخلاقهم ونَبُلَت ميولهم . فبذل الجُهْدَ الجهِيد فى جمع المال لتلك الغاية . وأسّس المدارس الليلية والنهارية . وخرَّج رجالاً عاملين ونساءً عاملات . وعلّم الرجالَ الهندسةَ الزراعيةَ والعلميةَ والعمليةَ وشتَّى أنواع الصناعات : من مُهمّات البناء ، ومنتجات الزراعة والصناعة . كالجبن والحلوى ، وأنواع الحدادات والحياكة والتصوير . كما علّم النساءَ جميع ما تحتاج إليهِ المرأة فى منزلها وحياتها الخاصّة .

من طريف نتائج تعليمه أنّ معمَلاً من معامل الزبدة والجبن أعلنَ عن حاجته إلى عاملٍ للزبدة فتقدَّم إليـهِ شابٌّ من السود من خرِّيجي معاهد بوكر، فرفض أصحابُ المعمل استخدامه لأنهُ أسود، وهم لا يشغلون إلاّ البيض. فقال لهم الأسود: إنني جئتُ إليكم لا لتستخدموا لوني بل لتستفيدوا من عملي وتجربتي، فسمحوا له بالمُكْث بينهم مدّة أسبوعين، على أن يحكموا بعدها.

ثم عُرضت زبدة المعمل من صناعة الأسود في السوق بعدئذ، فتدرّج ثمنها في الزيادة أسبوعًا بعد أسبوع. وزادَ الإقبال عليها مما أدَّى إلى استمساك القوم بعاملهم الأسود الجديد.

وهكذا استمرت معاهدُ بوكر على تخريج الأكفاء من رجالها السود ونسائها السود. وكان لاحتكاك هؤلاء وهؤلاء من أبناء رهطهم وبنات جلدتهم أحسن الآثار في ترقية شعبهم علماً وعملاً.

(١٣)

وكم كنت أودّ أن أخاطبكم عن بوكر الخطيب، وبوكر السياسي، وبوكر المؤلف، وبوكر المربِّي، وبوكر الزوج، وبوكر الأب؛ ولكنني أجتزئ لكم بما أسلفته من حياته العاملة، وأملي أن يكثُر بيننا هـذا الصِّنف من الرجال، وأن يعمَّ في ربوعنا هذا الصِّنف من التعليم. كما أرجو أن يجد شبابُنَا من إرادته الذخيرة الصالحة لآمالهم الصالحة.



هنری فورد

حول بطل عصامى وزعيم فى الصناعة

هنرى فورد

(١)

حياةُ المرء جُزْءٌ من حياة أمته . وحياةُ أمته متصلةُ الحلقَات بحياةِ المجتمع الإِنسانيِّ ، فإِمَّا أن يكونَ عالةً على أبناء جنسه إن أساء صُنْعًا وأفسدَ أمرًا ؛ وما كان الإِنسانُ لو تَدَبَّرَ وكان من المُهْتَدِين بكَمٍّ مُهملٍ خُلِقَ لِيُتْرَكَ سُدًى بَدَدًا لا يَعى ما يُراد ويُشاد ، وما كان بكِيانٍ مُسْتَقلٍّ ليطلقَ النفسَ على أرسانها ، وإنما هو مُسِيءٌ بجموحه الأترابَ والأخدان ، والشجراءَ والأقران ، ثم هو عابثٌ فى عبثه ذاك بمصلحة الأوطان ، مُعْتَدٍ أثيم على حقوق زميله الإنسان . وما كانت الحياةُ لعمركم بدار لَهْوٍ وعبث حتى نضيِّع فيها عُنْفُوَانَ شبيبتنا ، وخِدْرَ غرارتنا ، وكِنَّ صبوتنا فيما لا يعيد ولا يفيد . وإنّما هى دار جِدٍّ وعمل ، إن أهملنا فيها قاسَينَا أهوالاً تشيب النواصى ، وعانينا إعساراً يُزِيل الرواسى . وتجرّعنا صَابِها وعَلْقَمَهَا وكنّا فيها من الهَالكين . . . ! وإمّا أن يكون الانسانُ إن أحسنَ وأفاد ، وأبلىٰ وأجاد ، مصدرَ نَعيم مُقيمٍ . ومُتَفجّرَ خيرٍ جزيلٍ لنفسه وذريته ، وآله وعشيرته ، وأمته وإنسانيته .

وحياة « هنرى فورد » مترعةٌ بشَتَّى المواقف . ومئات الشواهد ، بما فى مقدورِ العضوِ النافع من خدمة المجموع خدمةً خالدةً ، إن كانت قد عادت بجزيل جَدْواها على شخصه الفانى ، وأفراد أُسرته الزائلين بما أصاب لهم فى سِنِى

جهاده من هَيْل[١] وهَيْلمان ، وسَبَدٍ[٢] ولبَد ، ومالٍ ونَشَب ، فقد عادت على امته والعاملين معه من شيعته بأجزل الثمرات ، وجنى المكافآت ، كما عادت على الإنسانية بما هو أبلغُ وأسمى ، وأعم وأجزَى ، وأشمل وأوفى .

أجل . . . ! فحياةُ « هنرى فورد » درسٌ خَصِيبٌ فى فلسفة الحياة العاملة الرشيدةِ ، قَمِينٌ بإنعام نظركم ، وحصاة تفكيركم ، ومتحفز همّتكم ، ومتوثّبِ إرادتكم . وهو درسٌ خُلقِيٌّ بليغٌ ، تنطق حروفُه قبل حوادثه ، بما فى مُكْنَةِ الرجلِ الجَلدِ الدءوبِ أن يكون بإرادته الصادِقةِ ، وإيمانه الخالِصِ ، وثِقَتِه فى ذخيرة نفسه ، وقوىّ إرادته ، واعتماده على مجهوده الفردى لا على طارفه وتالده ، ولا على نِجَاره وأُرومته ، ولا على حَسَبه ونَسَبه ، وعَقَاره ونَشَبه ؛ بل على عمله المتواصل ، وإنتاجه المُجْدِى ، ويَقَظَته وسَهَره ، فى مُكْنته أن يكون : « أمّةً فى رجل ، ورجلاً فى أمّة ، وعزيمةً مُرْهَفَةً فى إهاب ، وإهاباً صَلْداً قوِيًّا قد قُدَّ من صُلْبٍ وحديد ، وقوّةٍ وأَيْد ، وأُتْرِعَ بما فوق الأرض من عَزَماتٍ ماضيات ، وهِمَمٍ مُتَواصلات ، وعِبَرٍ وعظات ، وآثارٍ منتجات »

بل هى دَرْسٌ قَيِّمٌ من فلسفة العملِ المُثْمِرِ فى الحياة . كُلُّهُ نُورٌ وهُدًى ، وحكمةٌ وحِجًى ، وسَدَادٌ ونُهًى ، تَهِيبُ بمن اتعظ واتّقَى : « أَلاَ إن الوقتَ من ذهبٍ ، فحذار من تركه سُدًى »

بل هى اللسانُ الناطق لكل مَنْ تراخَى وتناعس ، وتوانَى وتقاعس ، ولكل سادرٍ فى مَرْعى بِطَالاته ، قَدْ أمْعَنَ فى تِيهِ إهمالاته ، وسَدَل ثوبَ تقصيراته . وهى الناصحُ الصادقُ لكل جامحٍ فى خُزَعبلاته ، مُضيّعٍ ثمين أوقاته ، مُفْنٍ فى

(١) الهيل والهيلمان كناية عن المال . ويقال لم يصب فلان هلة ولا بلة أى لم يصب شيئاً
(٢) السبد واللبد كناية عن المال أيضاً . وأصل السبد : الشعر . واللبد : الصوف

شهوات النفس ولذاذاتها الفانية سِنِى حياته وجماع تفكيراته . وكأنى بها تصيح فى وجه كل وباءٍ ، من أمثال هؤلاء[١] :

أنا النـــذيرُ لكم منّى مجاهرةً كَىْ لا أُلامَ على نَهْىٍ وإنذارِ
فإن عصيتم مقالى اليوم فاُعترفوا أن سوف تَلْقَوْن خِزْياً ظاهرَ العارِ
لَتَرْجِعُنَّ أحاديثاً مُلَعَّنَةً لَهْوَ المُقيمِ ولَهْوَ المُدْلِجِ السارى
مَنْ كان فى نفسه حَوْجَاءُ يطلبها عنـدى فإنِّى له رَهْنٌ بِإِصْحار[٢]
أُقِيمُ عَوْجَتَه إن كان ذا عِوَجٍ كما يُقَوِّمُ قِدْحَ[٣] النبْعة[٤] البارى[٥]

(٢)

حياة « هنرى فورد » هى من المُثُلِ العليا ، الناطقةِ فى قوّةٍ وجلاءٍ ، بما لفضيلة الصبر ، وقوّة الاُحتمال ، والاضطلاع بباهظِ الأعباء ، وثقيلِ التكاليف من أثرٍ ملموسٍ فى نجاحِ الرجل الجَلْدِ الصبُّور . وهى فى الوقت ذاته من المُثُل الحيَّةِ لما ينتجه العملُ الكثيرُ ، واليقظةُ الساهرةُ ، والعناية المتوفرةُ ، والالتفاتُ الدقيقُ الذى لا يلهو ولا ينام ، من ربحٍ دائم ، وهناءٍ قائم .

وإذا كان « نابليون بونابرت » قد قال كلمته المأثورة : أن لا « مستحيل » فى العالم ، وأشار إلى ضرورة محو هذه الكلمة ، وإزالتها من معجم اللغة ؛ فإنَّ حياة « هنرى فورد » اليومية — لا مأثور أقواله فَحَسْبُ — قد أثبتت بما لا يترك رَيْباً لمستريبٍ ، ولا غبار شكٍّ لمتشكك . أن العملَ المتواصِلَ ، والصبر المستمرّ يوصِّلان صاحبهمـا إلى تحقيق كل ما يرجوه ، وإبراز كل ما يتخيّله . وإنْ لم

(١) انظر أبيات قيس بن رفاعة فى كتاب الأمالى لأبى على القالى ح ١ ص ١١ طبعة ثانية دار الكتب سنة ١٩٢٦ . (٢) أصحر القوم : برزوا الى الصحراء ، أى بلا استتار ولا امتناع .
(٣) القدح : السهم قبل أن يسوّى (٤) النبعة : القوس (٥) البارى : الذى يبرى السهم

يَسْمُ به ذكاؤه فوق المستوى العادىّ، وإنْ لم يكن صاحب قريحة نادرةٍ وقادة، أو فكرةٍ ثاقبةٍ نقادةٍ.

لقد كان « هنرى فورد »، صاحب الملايين، ومخترع النُظُم الحديثةِ فى عالم النقل الميكانيكى — فى طفولته —، وهو لا يزال ابن ذلك المزارع الكادح البسيط فى عملٍ مستمرٍّ، كما كان مثلاً نادراً فى الإيمان بمشروعاته التى بدأت صغيرة مثله، ونَمَتْ مع العمل والدأب نموّ جسمه، وكان لا يَنِى ولا يَغْفل فى تعهّده لها، ومواظبته على إتقانها، وسهره على رأب صَدْعها، وإصلاح خَللها، وتقويم معوجّها.

ومن العَدْلِ والحق إذا ما تغنَّى الناس بوفير ثروته، ووسيع نعمته، وكبير آثاره، وعظيم آلائه، لخليقٌ بهم أن يدرسوا حياته، منقّبين باحثين؛ وجَديرٌ بهم أن يتفهموا سامىَ صفاته، ونبيل سجاياه، وفلسفته، فى حُذْياه وعطاياه؛ وقمِينٌ بهم أن يتغنّوْا بما له من همة قعساء، وما رُكّبَ فى جسمه الهزيل من عزمة ومضاء، ولزامٌ فى عنقهم أن يذكروا أن « فورد » المالى العصامى، والمخترع الاجتماعى، كان منذ اللحظة الأولى فى أوليات أيامه فى الحقل، ذهّابًا فى تصوُّره إلى جواز الاستغناء عن الحيوان فى الزرع والحرث، وأنَّه كان يعلل النفس بأنه فى مقدوره أيضًا إمدادَ العالَم بلبنٍ صناعيٍّ يصنعه له من مهملات الأعشابَ، ونفايات الحشائش.

(٣)

شبابنا الناهضين :

لست أعدو سِدْرَةَ الحق إذا ما قلتُ إنكم لا مفرّ مقتنعون بعد اطلاعكم على « كتاب حياتى وعملى » الذى وضعه فورد عن نفسه بمعاونة أحد أصدقائه من الكتّاب المستر « صمويل كروثر » وأصدرته مطبعة هينمان عام ١٩٢٢ بأن عصاميّنا الكبير « هنرى فورد » قد جمع بين المالى الذى لا يُشَقّ له غُبار؛ والسياسىّ المحنّك،

والمصلح الموفّق ، والمستنبط البارع ، والمُحْسِن المثقَّف ، والمرشد الخطير . ولست أرتابُ البتّةَ أن كل مطلع على صحفه الثمينة سيخرج منها وقد آمن بأن الرجل ليس بطالب مال ، ولاساعٍ بمنكبيه فى الأرض وراء الثروة فحسَب ، بل هو مصلح إنسانى أُشرِب قلبُه الكبيرُ حبَّ الإنسانية فعمل على نفعها ، وسعى سعيه المجدى إلى تخفيف ويلاتها وترفيهِ متاعبها ، وإلاَّ فلماذا وقد جمع البلايين من الجنيهات ، وبلغ من الحياة حوالى السبعين لا يزال يكدح كَدْحَ الشابّ اللدْنِ الطموح ؟ . ثم لماذا يغيِّر نُظُم عمله ، ويُخرج للعالم من مصانعه فى السنتين الأخيرتين مقدار ما أخرجه فى عشرين سنة سلفت ؟ ثم لماذا يؤلّف ويكتب ويعظ ويرشد ؟ ثم لماذا استمرّ فى عمله حتى استطاع أن يصنع الى يومنا هذا ما يزيد على الخمسة عشر مليونًا من السيارات ؛ ثم هو لا يزال يعمل على تحسينها ، ويبذل قصارى الجهد فى إتقانها ورُخْص ثمنها ليسهل على الجميع اقتناؤها .

(٤)

أنتم لا تَحفِلون كثيرا بأن تعلموا أنَّ عصاميّكم الخطيرَ قد ولد فى ٣٠ من يوليه عام ١٨٦٣ فى مزرعة والده المتوسط الحال بقرية « ديربورن » بمقاطعة متشيجان بالولايات المتحدة . بيْدَ أنكم تَحفِلون كثيرًا بأن تعلموا طرفا من طفولة عصاميكم الذى كان يأمُل والده أن يتخذ ولده الشئون الزراعية مثله ، فكاشف بذلك المستفسرين من الجيرة والأصدقاء . كما تَحفلون بأن تعلموا بأن مزرعة والده الراحل الكريم قد أضاف عليها ذلك الابن النابه الذكر ، عظيمُ القدر ، الشئ الكثيرَ من المزارع المجاورة لينشئ عليها جميعًا مصانعَ سياراته التى أسعدت العالَم وأسعدته . وقد تحفلون أيضًا أن تذكروا مبلغَ استهزاء الصِّبية وتهانُف الكبراء من السيارة الأولى التى صنعها شابنا النابغة ، وكانت ، لعمركم ، أشبه شىء بدكّة الطرق

البخارية[١] ولكنكم تحفلون أيما حَفيل بما جُبلت عليه نفسُ فورد منذ نشأته من جلادة وكفاح، وبسالة وسعة أعطان، وغير ذلك من صفات الرجولة القويّة الفذّة التي ساعدته على تحطيم ما اعتور طريقه من صعاب كأداء، وتحفلون أخيراً بالوقوف على أسرار تقدّمه، ونجاحه من دَرسكم لسجاياه، وتعرّفكم لمثابرته ومواظبته، وتفهمكم لإيمانه في نفسه، وثقته في كفايته، واعتماده على قدرته، وتقديره لتفكيره، وإتقانه لأعماله

لقد ظَهَر ميلُ هذا العصاميّ النابه منذ ريق الصِّبا وميعة الطفولة إلى المسائل الميكانيكية، وتجلّت نَزَعاته إلى البحث والاستقراء، وتفهُّم كلّ شيء على حقيقته وردّه إلى نِصابه وأصله، وكَشْف اللثام عن عِلَله ومسبَّباته منذ نعومة أظفاره. ولعلكم قد اطلعتم فيما كتبه مؤرخو حياته عنهُ أنهُ صنع وهو في مدرسته دولاباً دقيق التركيب تديره المياه المنحدرة ونصبه إلى جوارها، كما صنع آلةً بديعةَ الصنع لدرس الحنطة والحبوب. صنع ذلك كلّه في تلك السنّ التي يلهو فيها أترابُه الأطفال فيما لا يُجْدى ولا يفيد، وفيما ينفق وطبيعة أعمارهم المَرِحة الطائشة. بل لعلكم قد قرأتم عما فعله أثناء سَفْرة قصيرة له إلى دترويت — تلك المدينة التي أضحت نابهةً بنباهته، عظيمة لعظمته، وعلمتم لماذا وقف إزاء تلك القاطرة المشوهة الشكل، القبيحة الهيئة التي كانت تقطع الطرقات بلا خيل تجرها، ولا دوابّ تسوقها، وإنما تسير بمحرّكات بخارية كأنَّها قاطرة من قُطُر السكة الحديدية. لقد وقف صاحبنا اللَّبِق الحصاة، المشهوم[٢] الفؤاد، إزاء تلك القاطرة فاحصاً دارساً، مستفسراً مستفهماً، وقد أمطر مهندسها وسائقها بأسئلته عن كيفية صنعها وطريقة تركيبها. وإني لمفترضٌ ما تفترضونهُ من عدم بخل المهندس أو السائق عن الإدلاء اليهِ بما يطلب، ووقفه على ما التبس عليه. ذلك لأنهُ لزامٌ في عُنُق العالم تعليم

(١) وابور الزلط (٢) المشهوم الفؤاد : أي الذكي النبيه .

الجاهل، وفى عنق العارف تعريف من لا يعرف، ومكانة العلم فى إذاعته، وفضلُ العرفان فى إفاضته، وخطرُ الإنسان بمقدار نفعه وإفادته.

إن قبر العلم فى الصدور، مَدْعاةٌ لدفنهِ فى القبور. والأمةُ الحيّة الناهضة مَن يأخذ فيها متعلّمُها بيد جاهلها، وقويُّها بناصر ضعيفها، ويَحْدَب شابُّها على شيخها، ويَعطِف سَرِيُّها على فقيرها. وأخيراً هى المتصلة الحَلَقات، الوثيقةُ العُرَى، المتينةُ الوشائج، رُوحًا ودمًا، وعلماً وعملًا، وقلباً وقالَباً، وعاطفة وحساسية.

أتعرفون ماذا كان من جرّاء تَفَهمه لطريقة تركيب تلك القاطرة؟

لقد مرّت سنواتٌ قليلة على رؤيته لها للمرّة الأولى، وقد حَسَرَ عن ساقه، وعَصَرَ لُبابَ ذهنه، وصنع من تلقاء نفسه مثيلتها. وما صَنَعَها إقتناعًا منهُ بأنها المثل الأعلى للسيارة التى يريدها، أو التى أرادتها جهودُه ومثابرته، أو التى أخرجها للناس إخلاصه وإتقانه. وإنما صنعها ليُرضى نَهْمَته، وكمِين لَهْفَته، وعميق رغبته.

لقد قلتُ لكم إن «فورد» شديدُ الإيمان بكفايته. وليس معنى الإيمان بالنفس انتفاخَ الأوداج، وازورارَ الجناب. ليس معناه الشموخ بالأنف، وتصعير الخد. ليس معناه التيه والغرور. فلعمركم إنَّ لقاح الأولى العمل والدأب. وأمّا الثانية فإنها قدّاحة البوَار والهلاك. وفى الأولى القطوف الدانية، والثمرات الجنية وفى الثانية السَّراب الكاذب، والخيال الزائف. وفى الأولى النُّجْح المؤزّر. وفى الثانية الفشل المطبق.

وليس بِمُغْرِق ولا مبالغ إذا قال قائلكم وقد ملأه إيمان فورد بنفسه إكبارا وإجلالا: «إن الإيمان هو فورد، وفورد هو الإيمان» وإلا فخبرونى، أسعفكم الله بطَلِبَتكم وحقّق لكم بُغْيَتكم. ماذا يكون حال «فورد» لو تراجع إلى الوراء إزاء استخفاف جميع الجيرة والمعارف من سيّارته الأولى التى كانت هَدَفَ ازدرائهم،

ونصب تحقيرهم ، وموضع تهانفهم ، ومحط استهزائهم ، ومرمى أحجارهم ؟

إنَّ دخل فورد قد بلغ حوالى ٤٠٠,٠٠٠ من الجنيهات فى الأسبوع . وإن أجور فورد لعماله وصناعه قد وصل فى السنة الواحدة إلى ٢٠٠,٠٠٠,٠٠٠ من الجنيهات . فحدثونى ، لعمركم ، أكان فورد واصلاً تلك الذِّروة من الجاه العريض ، والمال الوفير ، والقدرة الفائقة ، والعظمة الباسقة ، لو لم يكن مؤمناً بنفسه منذ اللحظة الأولى ؟

أليس من الحقّ أن نقول إن سرّ عظمةِ العظيمِ كمينٌ فى نفسه . فبمقدار إيمانه بما فى نفسه من ذخيرة غنيّة ، وثروةٍ خصيبة ، ومَعِينٍ لا ينضب ، وكفاية لا تُوهَن ، وإرادة لا تَخُور ، وجُرأة لا تنهزم ، بمقدار ما يصيب فى سِنِى عمله ، ومتباين مشروعاته ، ومتواصل أعماله ، وهو يسير قُدُماً إلى الأمام لا يلوى على شىءٍ من تقدُّم وفلاح ، وتوفيق ونجاح . ما فى ذلك شَكٌّ ولا ريب .

(٧)

كم كان العالَمُ سيخسر الخسارةَ الفادحةَ التى ليس إلى تلافيها من سبيل ، لو أنّ شابَّنا العصامىّ الذى وُفِّق يوماً فى فكّ ساعةٍ وإعادة تركيبها ، والذى قد بلغ من هُيامه بأمر الساعات أن قد جمع من أنواعها المختلفة ما يزيد على الثلثمائة ساعة ، وتخصّص فى أمر إصلاحها وتركيبها حتى فكّر جدّيًّا فى مشروع صنع ساعات رخيصة الثمن ، يبيع الواحدة منها بحوالى عشرين قرشاً ، والذى قد بَذّ صنّاع الساعات ، وهو فى سنّ السابعة عشرة من عمره ، وكاد يكون مثل «صامول انجرصل» الأمريكى صاحب مصنع الساعات الرخيصة الثمن . نقول : كم كان العالم سيخسر الخسارة الفادحة لو انصرف صاحبنا الى الساعات وشئونها ، بديلا من السيارات ومحرّكاتها ، والصناعات الكبيرة وشتّى مرافقها ؟

ولهيامه بالميكانيكيات قصة : فقد تفقّده آباؤه يوماً وقد غاب عن أبصارهم ، فشدَّ ما كانت دهشتهم إذ وجدوه فى جُرْن الحِنْطة وقد تصبّب عرقاً ، وهو مستغرقٌ فى فكّ الساعة وتركيبها بأدواتٍ من صُنع يديه ، وكان العليم بالفِطرة بدقائقها ، وأدواتها الصغيرة كافة .

أجل ! لقد هام بالميكانيكيات هُيَام الوَلِه الصبّ ، والمحبّ الدنف . وكان لا يعرف للعب مذاقاً ، ولا للهو طعماً ، ولا لإضاعة الوقت استساغة . وكان الوقت لديه كل شىء ، والعمل الدائم مهمة الإنسان الطبعية . وما خُلِقنا سُدًى ، وما تُرِكنا عباهلَ مناهلَ بلا عملٍ ولا غاية .

أليس من الممتع المشجى أن تعلموا أنه وهو فى الثالثة عشرة من عمره الحافل بجلائل الأعمال وكبارها ، وعظائم الأمور وهامّها ، ومُجدى المنتجات ونافعها ، قد شدّ حيازمه ، وقدح زنادَ تفكيره فى تركيب آلةٍ متحركة ليضعها فى درّاجة رفيق له حتى يستغنى بها عن إدارتها برجليه ! وبعبارة أوضح ، فكَّر فى تلك السنّ الطائشة فى اختراع « المتوسيكل » !

أليس فى ذلك الدليلُ الناطق ، والبرهانُ القاطع على أن هنرى فورد قد بُعث فى الحياة ليكون المخترع الماهر ، والعامل النافع ، والصناع البارع ، والعصامىّ القدير ، والمصلح الاجتماعى الخطير ؟

قد تعلمون من قراءاتكم فى تواريخ حياتهِ ، أن عصاميّكم الشابّ كانَ يتَمَلْمَلُ من الشئون الزراعيةِ ولا يميل اليها ، وتعلمون أن أباه لم يُفلِح فى جَذْبه اليها مع ما بذله من قُصارى الجهد فى تحبيبه اليها ، وترغيبه فيها . وتعلمون أنه استمرّ فى التعلّم بالمدرسة إلى أن بلغ السابعةَ عشرةَ حيث التحق بعدئذٍ تلميذاً فى مصنع هندسىّ محلىّ . وأنَّه مَهَرَ فى عمله الميكانيكى قبل انقضاء مدة ثلاث السنوات المقررة للتمرين

وتعلمون أنه التحق بعد إتمام مدة التمرين مع المندوب المحلى لمصنع « وُسْتَنْجَهُوس » لبيع قاطرات كالتى رآها فى الطريق منذ بضع سنوات ، ولكنهُ قد يَلَذّ لكم أن تعلموا لماذا ترك إصلاح الساعات وصناعتها بعد أن حذقها وهو فى الخامسة عشرة من عمره ؟

لقد رأى أن مجال تقدّمه من ناحية ، ومجال خدمته للإنسانية من ناحية أخرى إذا ما تخصص فى الساعات وإصلاحها سيكون ضيقاً ، وكانت همتُه قصيَّةَ المرمى بعيدةَ المطمع . ورأى على النقيض أن بابَ المستقبل مفتوحٌ على مصراعيه أمامه إذا ما ولجه فى العمل فى صناعة تلك القاطرات البخارية التى وإن كانت معتلّةً مختلّةً ، فإنها لاعتلالها واُختلالها بحاجة إلى التحسين ، وفى تحسينها التقدّمُ المطّردُ ، وفى تقدّمها المطرد العملُ المنتج ، وفى العمل المنتج الربحُ المتزايد .

على أنَّ حميّتَه للعمل ، وإكبابَه عليه ، كان من شأنهما أنه لم يتردد فى الاستمرار — فى سواع فراغه من عمـــله النهارى مع المندوب المحلى لمصنع « وستنجهوس » للقاطرات البخارية — على عمل الساعات وإصلاحها لأحد تجارها ، فأصاب ربحًا وخِبْرة ، كما أنه استفاد بفراغه أيما إفادة فى صنع قاطرة بخارية على طراز خاصٍّ وطبقاً لتفكيره الخاص .

ولقد كان من جرّاء تلك الحميّة النادرة المثال ، وتلك الهمة البعيدة المنال ، أن حَدِب عليه رؤساؤه ، وأحبّه قُرَناؤه ، واطرد تقدّمه ، وذاع بين العمال صيته ، ثم نبه شأنه ، وارتفع قدرُه ، وتوطّدت فيه ثقة الجميع ، واُشرأبّت نحوه الأعناقُ من كل صَوْب حتى أصبح رئيسَ مهندسى شركة « اديسن » صِنوه فى النبوغ ، ومثيله فى المثابرة والإكباب على العمل النافع للانسانية ، المرفِّهِ لحالها ، المُسْعِدِ لأبْنَائها .

كانت الفكرة الأولى التى بَدَهَتْ « فورد » وهو لا يزال الصبيَّ المرحَ الذى

يُشْرِفُ بنظره الساذَج على المروج والحقول ، والأجمات والمزارع ، أنّ كَمّاً كبيراً من عملها يقوم به الزرّاع بأنفسهم ، وأنهم يبذُلون من قُوَى سواعدهم المفتولة ما لا مَدْعاة له ، وما يمكن الاستفادة به فيما هو أهمّ وأدقّ .

وكان يحلُم منذ تلك السنّ المبكرة باُختراع آلةٍ رخيصةِ الثمن تكون فى تناوُل الجميع لأداء تلك الأعمال الثقيلة الآليّة . وكان يعتقد أنّ خير ما تخدم به الإنسانية إنما هو فى استعاضتها بأمثال تلك القُوَى الميكانيكية عن تلك القُوَى الإنسانية المضيعة سُدًى . لا سيما والإنسان شدَّ ما يحتاج إلى وقته الثمين ليصرفه فى غَير ذلك من الشئون المدرّة عليهِ جزيل النفع وعظيم الجَدْوَى .

ولعله من الحقّ أن نفترض من غير أن نعدوَ الواقعَ والصوابَ أن هذا الحلم الشهى ، وذلك الأمل المعسول صرفاه عن أمر الساعات وصناعتها . ولعلّ إيمانه الصادق بنفع ما اُرتأه أدّى به إلى اُهتبال الفُرَص المتاحة ، واُنتهازِ السوانح العارضة ، والعملِ فى دأبٍ وجَلَدٍ حتى يُحقِّق حلمه ، ويُبرز فكرته .

أجل ! لقد عُرضت لهذا الشابّ الكادح فرصةٌ قيمةٌ ، لم يدعها تُفلت من يديه . وتلك آلة انجليزية تعرف بنوع « أتو »(١) تدار بالزيت المتبخر تصدرت إلى المقاطعة التى يعيش فيها . وكانت بحاجة إلى تصليح خَلَل طرأ عليها . ومَنْ غيرُ فورد فى مُكْنته أن يقوم بالتصليح والرأب ؟ مَنْ غيره قد رُكِّبت فى نفسه جلادة البحث ، واُحتمال صنوف الأذى فى الدرس والفحص فى غير ملل ولا كلال ؟

فى سنة ١٨٨٥ استطاع « هنرى فورد » ، الذى انتهز فرصة دراسة آلة « أتو » التى تدار بالزيت المتبخر ، والذى أسعده طالعُه الرغيدُ بما جُبلت عليهِ نفسُه الدءوب من حبّ المِران فى مثابرةٍ وسَعَةِ أعطان ، والشغف بالتجربة تِلْوِ التجربة ،

(١) An English Otto Engine fed with vaporized petrol.

والامتحان إثر الامتحان إلى أن يسفر عما يرضى ويقنع . استطاع فورد أن يضع على غِرار تلك الآلة وقواعد تركيبها آلةً تُشبهها .

وإذا كانت تلك الآلة الأولى قد استخفّ بها الأهلون ، ولم تحرّك فيهم ساكنةً ، ولم تُثر لديهم الاحتفالَ والاهتمام . ونظروا اليها نظرةَ العابث المستهتر ، والمزدرى المستخفّ ، واُعتبروها دُمْيَةً يُلْعَب بها ، ولُعبةً للتسلية والتلهى ، فإنها كانت الحجر الأساسى الذى بُنِىَ عليه مستقبل فورد فى العالَم الصناعى .

على أن فورد بإلحاح من والده ، اضطرته ظروف الأحوال ، إلى العَوْدة إلى مزارع الأُسرة حيث قد وهبه الوالد أربعين فداناً من أطيان الأخشاب على شريطة أن يترك الميكانيكيات ، حيث كان يعتبرها الوالد مضيِّعةً لثمين أوقات ولده الكفء وأَذعن فورد لتلك الإِرادة رَدَحًا من الزمن . ولا نعلم إن كان قد أذعن لها كارهاً متبرماً ، أو طائعاً مختاراً . وإنما نعلم أنه قد نزح إلى الأرياف وتزوّج فيها . ونعلم أنه اخترع آلةً بخارية لقطع الأخشاب بأطوالٍ معيَّنةٍ . ونعلم أنهُ إلى جانب إتقان عملِهِ الزراعىّ ، واُستخدامه للوسائل العلمية والطرق الميكانيكية فى تخفيف عبْء العمل على نفسه وعلى معاونيه ممن يَفْلَحُون الأرض ويَحْرُثونها ، فقد خصَّص جِماعَ أوقات فَراغه ، وسواع راحته فى قراءة الكتب الفنيّة التى تبحث فى موضوعه القيّم الجليل ، ونعلم أن إيمانه كان قوياً ووطيداً بقرب ذلك اليوم الذى سيستخدم فيه العالَم سيّارة تنهب الأرض نهباً . كما نعلم أنهُ قد صنع آلة أخرى تُدار بالزيت المتبخِّر ، وأنهُ استخدمها فى مزراعه ، وأنها كانت كثيرة النفع له ، عظيمة الجَدْوَى لديه .

أتعرفون من أوّل مَن حمل تصريحًا بقيادة سيارة فى الولايات المتحدة بأمريكا ؟

ستقولون حَدْسًا إِنهُ هنرى فورد ، وإنَّ فِراستكم لصادقة ، فقد صنع ما يصح بتسميته أتوموبيله الأوّل عام ١٨٩٣ ويقول بعض مؤرخيه : إنَّ عصاميَّنا الفذّ



فورد فى سيارته الأولى

لا يزال يحتفظ بذلك الأتوموبيل ، وأنه يعتزّ بهِ ويحرص عليه ، مع ما بينه و بين نماذجه العديدة التى أخرجها بعدئذٍ ، والتى أكملَ فيها ما بهِ من نقص وهنات ، ولا يزال يُمطِر العالم المتمدين بوابل تحسيناتها الفَيْنَة بعد الفينة . ولكنهُ كمخترع وعالم يرى فى اختراعه الأوّل المولود الأوّل ، وهبة الطبيعة الأولى ، والحجر الأساسى الذى بنى عليهِ صرح اختراعاته ، وأدخل عليه متوالى إصلاحاته ، ومتتابع تحسيناته ، فعقد عليه خناصر الرجاء ، وتعهده بالتربية والنماء ، وأكبّ عليه باحثاً مستقصياً حتى توصّل إلى صنع أتوموبيله الثانى بعدَ ثلاثِ سنوات . ثم استمرّ قُدُماً فى درسه وفحصه ، وتهذيبه وتشذيبه سبع سنوات أخرى فى جلد المؤمن بتجاريبه وبحوثه ، وفى صبر المطمئن إلى امتحاناته واختباراته ، وفى يقين الراسخ العقيدة بثمار منتجاته وخواتم استنباطاته .

وهنا موضع دعابة يجب ألاّ تفوتكم ، نعنى بها ما جرّ عليهِ أتوموبيله الأوّل من معاكسة الجمهور ، وكيف عاق الحركات التِجارية فى شوارع « ديترويت » التى كانت صاحبة الحظ الأوّل ، فى استمتاعها برؤية الأتوموبيل الأوّل ، فقد أجفَلت منه الخيل ، وخافته الدواب ، وحسب حسابه السائقون ، وكان صهوة نطّ وقفز من جمهور الناظرين . وكثيراً ما كان بعض العابثين من صبية ورجال ، يتغفلون من فورد لحظاتٍ تركه اوتوموبيله أمام حانوت أو دار ، فيحاولون امتطاءه وتسييره ، ويختلسون إدارته وتحريكه ، حتى احتال عليهم فورد باختراع سلسلة وقفل حتى لا يفلت ولا يسير ، ولعله بسبب ما ناله من عنَتٍ وإعياء سعى سعيه لدى عمدة ديترويت حتى حصل على تصريح قيادته ذيّاك .

فلنذكر إذا ما ذكرنا أتوموبيل فورد الأوّل قصة التصريح الأوّل . ولنذكر معها تهاتُف الصغار والكبار ، ولنذكر أيضاً حكاية السلسلة والقفل والعقال . . !

(١٢)

للمجدّ النشيط ثمرتُه الجنية، وللعامل الدّءوبِ مكافأتُه الشهية، وللصبور اليقظ هبتُه الرضية.

لقد استطاعَ «فورد» أن يبيع سيارة من نموذجه الأوّل بمبلغ مائتى ريال أمريكى أى بما يزيد قليلاً عن الأربعين جنيهاً. ونحن نعلم أنها كانت موضعَ الاستخفاف والتحقير، والإيذاء والتشهير، ولكنها كانت إلى جانب هذا عُنوانَ الدأب، وثمرة المواظبة، ونتاج المثابرة. كانت مولودَ الإيمان، ولقاحَ العقيدة، وعصارةَ التفكير، ولُبابَ سهر الليل ويقظة النهار.

ولعلكم سائلونى عما فعله فورد بربحه الأوّل وفيمَ صرفه؟

شبابٌ وجِدَةٌ، وحياةٌ زوجيةٌ جديدة ترنو إلى الدمقس والحرير، ثم هى بحاجةٍ إلى بُلَهْنِيَةٍ[١] من العيش، ومتاع للنفس الأمّارة بالسوء، ثم مَيْعَة صِبًى، وكِنّة غَرَارة[٢]، يسوم فيها أترابه سرح لهوهم، ويسهمون فى خلالها مع الغواة بدَلْوهم، ويحتسون فيها خمورَ شهواتهم، ويمعنون فى ثناياها فى ديجور لذاذاتهم.

بَيْدَ أن هذا صحيح فى جملته لمن كان صفر اليدين من عملٍ يشغله، ومطلبٍ أعلى فى الحياة يُقيمه ويُقعده، ورسالة هَدْى وإصلاح فى خدمة الإنسانية وقف لها نفسه الطموحة، وكرَّس لها حياته الثمينة.

لقد تسلّمت يمنى فورد الأربعين جنيهاً، لتصرفها يسراه فى إخراج نموذج أكمل وأوفى، وأخفّ وأعدى.

أجل! لقد تسلم فورد الزوج الجديد، والشابُّ القوىّ ذلك المالَ الكثيرَ بالنسبة لما تملكه يمناه، فصرف كل سنتيم منه فى درسه وامتحاناته، وبذله فى تجاريبه

(١) بلهنية العيش: رخاؤه وسعته (٢) الغرارة حداثة السن

واختباراته، مقتِّراً على نفسه التقتير كله، قارعٌ شَبَاة نزَواته، مُفِلٌّ تطلُّع نزغاته، مُقَلِّمٌ بصلابة إرادته جامح شهواته، واصلٌ فى العمل المنتج جِماع أوقاته، مفنٍ فى الفحص والدرس مضنى تفكيراته.

لقد حَرَمَ فورد المضطرم السنّ نفسَه التى بين جنبيه من لذّةٍ وقتية قد يُصيبها لِدَاتُه من حُطام الحياة ومباهجها إذا أطاعوا فتن الفراغ، ومفاسد المال، واستغواءات الثروة، ونزوات الشيطان. وكان فى تصرّفه السديد مصداقًا للقول الحكيم: « ونفسٍ وما سوّاها، قد ألهمَها فجورُها وتقْوَاها، قد أفلحَ مَنْ زكّاها، وقد خاب من دسّاها » .. اهـ

(١٣)

نعلم أن فورد يشغل وظيفة رئيسية فى شركة « اديسن ». ونعلم أن وجهةَ نظر فورد فى تسيير أتوموبيله بالبنزين دون اعتماده على الكهرباء، تختلف كلّ الاختلاف مع وجهة نظر جماعة « اديسن » الذين يرون فى الكهرباء العمدة والعتاد. بَيْدَ أن « فورد » مع تقديره التقدير الصحيح للكهرباء، وجزيل نفعها، وعظيم جَدْواها، يرى أنه ليس من سبيل إلى الاعتماد على استخدامها دون سواها فى القرى النائية، والمدن البعيدة. ويرى أن أتوموبيله يجب أن يكون فى تسييره ومحرّكاته كيانًا مستقلاًّ قائمًا بذاته، غيرَ معتمدٍ على ما عداه.

اختلف فورد إذن مع رؤسائه بشركة اديسن فى هذه المسألة. ثم اختلف معهم فى مسألةٍ أساسيةٍ أخطر وأهمّ. تلك هى نزوله عند إرادتهم فى ترك اختباراته وامتحاناته فى درس مخترعه. وفى ترك مواصلته البحثَ والاستقراءَ فى سبيل تحسينه وتعميم استعماله.

لقد عَرَضوا عليه أن يكون مراقبًا عامًّا فى شركتهم، صاحبَ القولِ الفصل،

والكلمةِ النافذة على شريطة أن يتفرغ لأعمالهم ، ويترك جانباً أمرَ أتوموبيله الذى نال من وقته وعنايته ، ومن دروسه واُستقصاءاته الشيءَ الكثير .

أطمعوه بالمال الكثير ، واُستغووه بالراتب العظيم ، فماذا كان منه ؟

لقد كان بين أمرين لا توسُّط بينهما . إما راتب شهرىّ كبير يضمن له الرزقَ الوسيعَ ، والمستقبلَ المريح ، والجاه العريض ، ويسعفه بما تحتاج إليهِ الزوجية الجديدة من مطالب ومغارم . وإما أن يترك وآلته رهن ما تحمله الظروف فى طيّاتها من إخفاق يُحَطِّمه بكَلْكَلِه ، ويُذيقُه الأمرّين من تقلُّبات الدهر ، وتنكُّرات الأيام ، أو نَجاحَ قد يُومِضُ وَمِيضَه فى أُفُق الغيب .

على أنّ « فورد » كان ككل مخترع مؤمن باُختراعه . قوىّ الإيمان بنجاحه ، واثقٍ من مستقبل أيامه ، مقتنع بماسِّ حاجاتِ الناس إلى اُستخدام أتوموبيله ، معتمدٍ أصدق الاعتماد على ذخيرة ارادته التى لا يَنضُبُ لها مَعِين ولا يَفُلّ لها غِرار ، فآثر أن يسخو بمنصبه الزائل ، وأن يشح باختراعه الخالد ، وأن يضحى بالعاجلة دون الآجلة ، فكان من المفلحين .

ولنترك الكلمة لفورد فى تلك الساعة الحاسمة من تاريخ حياته الحافلة بالمعجب والمدهش : « لقد كان علىّ أن أختار بين وظيفتى وبين سيّارتى ، فاخترت سيارتى ونزلتُ عن وظيفتى ، ولم يكن ثَمّتَ من طريق وَسَطٍ بين الاختيارين ، لأنى كنت أعلم علمَ اليقين أن سيارتى مصيرُ أمرِها إلى النجاح الدائم ، فتركت وظيفتى فى الخامس عشر من أغسطس عام ١٨٩٩ وأقبلت على الاشتغال بصنع السيارات » اه .

وهنا يجدُر بنا أن نثبت مع عميق التقدير وجميل الذكر ، ما كان من زوجه العظيمة إزاء تلك الساعة العصيبة من بَتِّه فى أمر مستقبله .

لقد كان من المعقول ، وهى الزوجة الشابّة ، أن تهن وتَخُور إزاءَ مُخاطرة زوجها

بمركزه ووظيفته . وكان من المفترض أن تنصح له على الأقلّ بالتريّث وإنعام النظر ، وتدبير وجوه الرأى فيما يختطه ويختاره سيما والأمر متعلّق بها وبه . بل هو متعلّق بمستقبل الأبناء قبلهما . فما كان منها يا ترى ؟

لقد كانت شديدةَ الإيمان بكفاية زوجها ، وطيدةَ الثقة بما رُكِّبَ فى نفسه العالية من صفات الرجوليّة الكاملة . لقد كانت ترى فيهِ الرجل الجَلْدَ الصبورَ ، والعاملَ الدءوب الذى لا تُقفَل له عين ، ولا ينام له قلبٌ ، ولا تَنِي له يد .

أجل ! لقد كانت البلسمَ المواسِى ، والتِّرياقَ الشافى . كانت الزوجَ المعين ، والشريكَ الأمين ، والساعدَ اليمين . كانت العينَ الكالئة ، والقُدوة الصالحة ، والظهيرة المؤازرة . كانت الأمَلَ الباسم ، والوجهَ الصّبوح ، والقلبَ الرءوم . كانت الكلمةَ العَذْبة الهنيّـة ، والنغمة الرقيقة الشجية ، والحليلة الحدبة الوفية ، والحَوْبَةَ(١) الحلوة الرضيّة .

لقد أيدته وشجّعته ، ونفخت فى رُوحه الملتهبةِ قُوًى متصلة الحَلَقات من نفسها المضطرم الوهّاج ، فزادت حَمِيّته ، وألهبت أُلهوبهُ ، وأوقدت بين جوانبه الحيّة النابضة جذوةَ حماسه ، ومتصاعد أُواره ، فسعى فى الحياة لبناء صروح مستقبله الركين ، ولتَدْعيم بنيانه المتين ، غير متردِّد ولا هياب . فكان لهذا الكميّ الباسل من تلك الزوج الجريئة خيرُ معوانٍ فى اقتحام عُباب الحياة بقدم راسخة ، وإيد على المكاره عظيمة .

(١٤)

إيمانه العظيم بذُخْر كفايته ، وثقته فى سداد رسالته ، يبعثان فى النهاية مع مُثابرته وعدم تذبذبه على إيمان الناس بوفير موهبته ، وصحيح دعوته ، ويدعوان إلى سخائهم فى تأييده ، وبَسْط يد المعونة فى تشجيعه والأخْذ بناصره .

(١) الحوبة والشهلة والبعلة والحليلة بمعنى الزوجة انظر ص ٢٠ ج ١ الأمالى لأبى على القالى

الناسُ مطواع لـكل جرىء وشجاع . مُلَبُّون دعوةَ كلِّ كَمِيٍّ صناع ، أشحاء بُخَلاَء مع كلِّ جبان ملتاع !

تلك طبيعةُ الناس فى كلّ آن وحين ، فكلهم فى ركاب كل قوىٍّ صنديد ، نافرون من كل خَوَّار رعديد ، وهكذا كان حالهم مع « فورد » ، فأقبلوا بجموعهم وأموالهم ، وأسسوا شركة للأتومو بيلات ، واختاروه من بينهم مهندسًا لها ورئيساً لحركتها .

استمرّ « فورد » كادحًا فى تحسين أتومو بيله ، باذلاً قصارى الجهد فى إتقان سيارته ، عاملاً فِكرته على طَرْق كل وسيلة و باب ، لترخيص ثمنها وتعميم استعمالها .

ولكن شركاءه وأصحابَ الأموال فى شركته كانوا يحفِلون أيَّما حَفِيل برفع الأثمان وتقليل العرض لأنهم تُجَّارُ أموالٍ لا دُعاةُ إصلاح . فكانوا على اختلاف دائم معهُ فى تحديد الأثمان وفى إضافة الأرباح .

لقد كان حلم « فورد » وهو لم يعدُ الثانية عشرة من عمره ، أن يصنع آلاف الأتومو بيلات ، ويجعلها بثمن رخيص بحيث تكون فى تناوُل الجميع ، مكتفياً بالربح التافه المستمرّ ، مغتبطًا برواج سياراته ، وانتشار آلاته .

ولكن القوم يرون نقيض رأيه ، فكان بين أمرين ، إما أن يستمرّ على مضضٍ فى العمل معهم ليستفيد فى مشروعاته الخطيرة برءوس أموالهم ، وفى تلك الحالة يَئِدُ مشروعه فى نطاق ضيق من استعمال ضئيل المَدَى ، ويبهظ عاتق المشترين بدفع أعلى الأثمان فيما يكلف الشركة التافه القليل . وإما أن يتركهم وشأنهم ويعمل مستقلا فى حَيِّزه وإن كان ضيقاً فى بدايته إلا أنهُ مأمون المغبة ، مصيباً من ورائه الأحدوثة الطيبة فى النهاية ، وواثقاً فيه من الجرى على سننه هو ، لا على أرسان سواه ولا طبقاً لمشيئة غيره ، وعاملاً فيه مع إخلاص طويةٍ وصدق نيةٍ لتنفيذ برنامج

عمله واُتباع سياسته الصناعية التى كان يدين بسدادها بالفِطْرة والسليقة ، ويؤمن بصحّتها بالنشأة والطبيعة .

ولقد آثر نجوى قلبه ودعوة ضميره فاستقال من شركتهم فى مارس سنة١٩٠٢ حيث صمم فى حزامة وقوّة إرادة أن يشتغل مستقلا ، ويكافح فى المجال الاقتصادى منفرداً

(١٥)

لأجل المبدأ وفى سبيل نصرة المبدأ استقال فورد من شركة الاتومو بيلات التى إنما تأسست لأجل اتومبيله هو ، والعمل باختراعه هو

استقال لأنّ القومَ عارضوه فى الجرى على سياسته التى كان يحرص عليها حرصه على تحسين اتومو بيله . وهم لا يريدون إلاّ الربحَ الباهظَ من ناحية . ثم هم لا يَدينون بما يدين به من استقصاء البحث ومُوَالاة ضروب الإصلاح ، وإنما يريدون العاجلة فى كل شىء : فى الربح المدرّ ، والبيع الدَّبرِىّ ، والصنع الفِجّ

استقال لأنه يحرص على سُمعته وعلى فكرته قدر حرصه على الاخلاص فى عمله والإتقان فى مهمته . وموالاة البحث والاختبار ، حتى يصل إلى ما يحقق رغبته السامية فى الخدمة السامية .

ولقد كان لفورد صبابة من مال أحرزها بعرق الجبين أثناء اشتغاله مع شركة القوم وسابقتها ، فرأى أن يتعلل بها فى اقامة أود النفس والتبلغ بقليلها مع شريكة حياته ، على أن يبذُل قسطها الأوفى فى موالاة امتحاناته عساه يوفق إلى صنع سيارة سريعة العَدْو ، خفيفة الوزن ، متينة الصنع ، فى رخص ثمن وجمال هيئة ، ومتعة ناظر

والعامل موفىّ جزاءه ولو بعد حين . فقد وصل « فورد » فى نهاية تطواف بحوثه المتئدة المواتية المنتجة إلى صُنْع سيارة تمتازُ على سابقاتها أنها ذات أربع

اسطوانات (سلندرات) بدلاً من اثنتين ، فضاعف بها قوّة العَدْو والسبق

ولمّا كان واثقاً من قوّتها ومتانتها ، وأنها لا نظير لها ولا شبيه ، أدخلها سباق السيارات ، فنالت الجائزة الأولى ، وأحرزت فيه قَصَبَ السَّبْق إِذْ سبق المصلى بما يزيد على نصف ميل

إنكم لمحقّون الحقّ كله ، إذا ما فسّرتم نجاح عصاميّكم النشيط الدءوب فى إحرازه قصب السبق ، بأنه النجح المؤزر لأنموذجه الجديد وسيارته الجديدة . ومحقّون أيضاً إذا ما افترضتم له اصابته الشهرة النابهة فى طول البلاد وعرضها . وأخيراً أنكم لمحقون اذا ما انتظرتم لسيارته تلك كثرة التداوُل والاستعمال ، وسُرْعة الذيوع والانتشار .

ولكنكم ستسائلونى كيف أُتيح « لفورد » أن يحرز لسيارته قصب السبق فى السرعة ، مع أن إحدى وجهات نظره فى سياسته الصناعية كانت منصرفة إلى أن يخْرِج للعالم سيارةً تعمل على ترغيد حياة الناس عامة ، والمزارعين خاصة ، ويكون فى مقدور كلٍ قيادتها ، وفى مكنته شراؤها .

وليس من مُنافضة بين أخذه بتلك السياسة الصناعية — التى وضعها فورد قبل أن يضع سيارته ، والتى أخلص فى جريه عليها واُستمساكه بها . إخلاصه فى جريه على سُنّة الإصلاح ، واُستمساكه بمبدأ الاتقان فى عمله — و بين مجاراته لشهوة بعض الجمهور وذوقِ بعض الراغبين فى اكتساح سيارته لمزاحماتها أيضاً فى مجال السرعة كما اكتسحتْ الجميع فى ميدان رُخص الأثمان ومتانة التركيب وبساطة القيادة وسهولة العثور على قطع الاستبدال وجزئيات الأدوات .

لقد اشتغلَ فورد فى حميّة ومُثَابرة ، حتى صنع سيارتين أَدخلهما السباقَ بعد أن

أُمتحنهما وآمن بأن قيادتهما أضحت فى نظره فى قوّة تيّار « انحدارات نياجارا » ولم تعدُ النتيجة فى أحدهما وفق تقديره السديد .

على أن فورد الذى لا يُجارَى فى قوّة أُحتماله ، وفى دأبه ، وفى مثابرته ، وفى تصميمه على النجاح ، لم يبدأ فى تأسيس شركة «فورد للسيارات» عام ١٩٠٣ إلاّ بعد أن أتمّ صنعَ خمسٍ وعشرين سيارة بُعد سيارته الأولى ، وإلا بعد أن آمن الإيمان الوطيد بأن الوقت قد حان تماماً ليبدأ فى الاشتغال بصنع السيارات والأتجار فيها .

(١٦)

وإنى لمحدثكم هنا عن خبرٍ بسيطٍ يجب أن تقفوا عليه قبل أن أدلى إليكم بمبلغ رأس مال الشركة ، التى تألفت عام ١٩٠٣ . وذلك الخبر الذى لا مندوحة لىْ عن إثباته لكم ، والذى لا محيص لكم من الاطلاع عليه ، هو أنّ مجموعَ أرباحِ شركة سيارات فورد عن عامنا المنصرم كان يزيد على ستة عشر مليونًا من الجنيهات ، أى مبلغ ٨١,٧٩٧,٨٦١ ريالاً امريكيًا . وأن جُلّ تلك الأرباح وصل إلى جيوب شركاء ثلاثة : الأب فورد ، وزوجة الأب فورد ، ونجل الأب فورد ! !

ويصحّ الآن أن ننتقل إلى سياق حديثنا عن شركة فورد التى ألّفها عام ١٩٠٣ والتى قرّر منذ اللحظة الأولى أن يكون فيها كل شيء ، أى يكون نائب رئيسها ومهندسها الأوّل ، ومدير إدارتها ، وواضع خططها ، وأن يمتلك الى جانب ذلك كله ربع رأس مالها .

لقد كان رأس مال تلك الشركة أقلّ من ستة الآلاف جنيه عام ١٩٠٣ ولم يكن لفورد صاحب البلايين سوى الربع .

ويقول مؤرخو فورد : إن عصاميّكم النابه الذى لم يكن يمتلك عام ١٩٠٣ الا ٢٥ ½ ٪ من أسهم الشركة أى ربع رأس مالها ، استطاع من أَرباح دخله أن

يشترى من أسهم الشركة عام ١٩٠٩ ما جعله يمتلك ٥١٪ من أسهمها ، أى ما يزيد على نصف رأس المال وذلك لضمان سلطانه المالى ، إلى جانب سلطانه الادارى فى الشركة.

وقد يحلو لكم اذا ما قدرتم تلك الهمّة الماضية ، والعزيمة الفذّة ، من الأب فورد أن تقدّروا تلك الصفات أيضاً — فى الأب أو فى ابنه ، فكل منهما صِنْو الآخر — حينما دفع « ارسل فورد » مبلغ خمسة عشر مليونا من الجنيهات عام ١٩٢٢ فى شراء نصف السندات الباقية ، والتى كان ثمنها عند تأسيس الشركة أقلّ من نصف أصل رأس المال الذى قدره ستة آلاف جنيه . وبعبارة أخرى أنّ السهم الذى كان ثمنه عشرين جنيهاً عند التأسيس اشتراه الابن بما يزيد كثيراً عن آلاف الأضعاف ، وأن رأسَ مالها أصبح مائة مليون من الريالات ! !

هذه معلومات لا أرتاب فى احتفالكم جدّ الاحتفال بتفهمها ، وتقليب وجوه الرأى فى تدبّر معانيها ، لأنها تدل على الأقل على ما تنتجه المثابرة والاتقان ، والتفانى فى أداء الواجب ، والمواظبة على الدأب ، واحتمال مكاره الحياة ، والاستمرار فى الدرس والبحث ، واتباع حكمة القصد فى كلّ شىء ، وقمع شهوات النفس ، وإكباب صاحبها على النافع المجدى ، والمحافظة على السمعة الطيّبة ، والأحدوثة الحسنة ، مع ذيوع الشهرة ، والصيت بصفات الأمانة فى الخلق ، والمتانة فى البضاعة ، والرخص فى الأثمان ، والسهولة فى القيادة ، إلى غير ذلك من الصفات السامية التى تكفل لصاحبها على طول الخط كل نجاح وتوفيق ، وتضخم ثروة واطراد تقدم ، فى نباهة ذكر ، وذيوع فضل

(١٧)

نعلم أن لفورد عدّةَ معامل تُعتبر بحقّ أكبر المعامل من نوعها فى العالم قاطبةً ، وهى كيانٌ قائم بذاته ، من حيث استقلالها الكلى أو النسبى عن الاضطرابات

الصناعية العالمية . بمعنى أنّ الشركة تُعنَى بتوريد الموادّ الخام وغيرها جميعاً . فهى فى أخشابها ومطاطها ، ومناجم فحمها وحديدها ونحاسها وصلبها ، وزجاجها وجلدها ، بل فى وسائل نقلها بالبر والبحر ؛ وفى صناعتها لدقائق أجزاء الأتوموبيلات مستقلة عما سواها ، غير محتاجة ولا معتمدة على غيرها .

ولستم فى حاجة إلى أَن تعلموا أنّ عدد عمال معمل «هيلندبارك» القريب من « دترويت » يزيد كثيراً على الخمسة والستين ألفاً ، وأنه يشغل حوالى ٢٧٨ فداناً ، وأن عدد العمال فى مسابكه الحديدية بعمل « رفر روج » حوالى الأربعين ألفاً ، ومساحته ١١٠٠ فدان .

لستم فى حاجة لأن تعلموا هذا ، وأمثالُه كثير ، بقدر حاجتكم لأن تعلموا أنّ شركة فورد صاحبة تلك المعامل التى تَستاب النُّهى بتعدُّد فروعها ، وضخامة بناياتها وكمال ترتيبها ، وغِنَى مواردها — هذه الشركة قد بدأت عملَها فى حانوت نجار . واذا كانت اليوم تشتملُ على عدّة معاملَ ، يختصّ كلٌّ بصنع بعض أجزاء الاتوموبيل ومساحتها ١٠٥ فداناً مسقوفة بخلاف مصنع «الفورديت» — وهو المطاط الصناعى الذى اُستنبطه فورد بعد اختبارات طويلة ، حتى تأكد منه الصلابة وخفة الوزن فان فورد فى بداية أمره كان يستورد أجزاءَ اتوموبيله من جهاتٍ أخرى ، وكانت مهمته وقتئذ جمع تلك الأجزاء بعضها إلى بعض وتركيب الاتوموبيل منها .

تلك كانت حالُ فورد يوم أسَّس شركته عام ١٩٠٣ ولكنّه بإخلاصه فى عمله وتفانيه فى حُسْن أدائه ، ودأبه وسهره ، استطاع أخيراً أن يقتطع مبلغاً من أرباحه وقد يصل هذا المبلغ حوالى المليون من الريالات للبحث العلمىّ الصناعىّ ، يبذُلُها عن طيب نفسٍ ، ورضاء خاطر ، فى سبيل تحسين آلةٍ صغيرةٍ من آلات سيّارته ، ولاستنباط أيّةً وسيلةٍ من شتّى الوسائل لترقية تلك الآلة ، ولضمان متانتها لا يفائها الغرض المطلوب .

فلتذكروا، فى إجلال وتقدير، فى عظة واُعتبار، وفى رغبةٍ أكيدة فى الاقتداء والاحتذاء، أن هذا العصامىَّ الكبيرَ، من الخصاصة والفقر دَرَج، وبالعمل والمثابرة نما وترعرع، وأنه قد حَرَق قتادَ العوَز وحَسَكَ العُسْر وأشواكَ الضيق، بما منحه الله من قوّة احتمال واُضطلاع، وبما رَكَّب فيه من حُبٍّ للعمل وسخاءٍ فى حُسْن ترعيته، وكمال ترقيته، واستمرار تنميته.

(١٨)

استمرّ «فورد» فى عمله العظيم، متنقِّلاَ من نجاح إلى نجاح. موفَّقًا إلى تحقيق حامه اللذيذ من جعل سيّارته فى تناوُل الطبقات الوسطى، حتى جعل ثمنها مائة وعشرين جنيهاَ فى بداية عهده فى شركة ١٩٠٣، وهو ثمن غير مذكور ولا مُنَافس فى تلكم الأيام التى كان معنى إحراز السيارة فيها بما يقدّر ثمنه بالمئات بل الألوف. واُستمرّ فى عمله قُدُمًا لا يلوى على شيءٍ، حتى استطاع أن يبيع فى سنةٍ واحدةٍ من أولى سِنِيه ٨٤٢٣ سيارة

ويظهر أن النجاحَ فى ذاته بلسمٌ وتِرياق. بل هو عامل تشجيع ولا كل العوامل الأخرى من مالٍ وإطراء، فقد كان من جرّاء نجاح فورد وإقبال الجمهور على سياراته زَرافاتٍ ووحدانًا ما حدا به إلى مضاعفة الجهود إلى حدٍّ أنه استطاع فى مدى ستة أيام من شهر مايو عام ١٩٠٨ أن يصنع ٣١١ سيارة. بل إنه قد استطاع أن يتم مائة اتوموبيل فى أحد أيام شهر يونيه من تلك السنة

ولكن هل اقتنع فورد بما أصابَ من نجاح؟

إن النجاح الخارجى، النجاح فى إحراز المال والجاه والشهرة والصيت، هذا النجاح المادى أو الظاهرى أو الأسمى إن هو إلاّ عُنوان متواضع، ودليلٌ ساذج

للنجاح الحقيق . نجاحُ اللُّباب والجوهر . نجاحُ الحقيقة والواقع . نجاحُ الرجل فى عالمه الداخلى ، ودولته الباطنية ، ومملكته الخلقية .

ولتعاموا ، غير معلَّمين ، أنه إذا ما كتب الله لشخص منا هذا النوع من النجاح الفعلى — نجاح الجوهر والروح — فانَّه لن يقنع إلاّ بما فوق الذِّروة من المُثُل العليا من النجاح العلوى فى عالمنا الانسانى .

لقد فكر طويلا فى أمر خفّة وزن السيّارة مع ضمان متانتها وقوّتها ، إلى أن وُفِّق فى ربيع عام ١٩٠٨ إلى النموذج « ت » من سيّاراته التى أصبحت الواحدة منها تزن ١٢٠٠ رطل، فنالت كلّ إقبال وتحبيذ ، وكلّ نجاح مطّرد ، يدلكم على ذلك أنه باعَ منها فى أوّل عام ١٠,٦٠٧ ، واستمرّ البيع فى زيادة ونماء إلى أن استطاع أن يوزّع منها حتى عام ١٩٢٥ فى جميع أنحاء المعمورة حوالى خمسة عشر مليونًا من السيارات .

ولعلكم تسائلونى عن مَدَى التقدّم الذى وصلت إليه الشركة منذ نشأتها عام ١٩٠٣ إلى عام ١٩٠٨ وهو عام ذلك النموذج المتين الصنع ، الخفيف الوزن ، الجميل الشكل فى مختلف ألوانه ، فأقول لكم فى غير مبالغة : إنه فوق الكثير ودون ما يؤمله ذلك العصامىّ الخطير . ويكفى أن تعلموا أن عددَ عمّاله قد أصبح ألفى عاملٍ بدلاً من ثلثمائة ، وأن دار صناعته قد انتقلت وقتئذ مدارجة من حانوت النجار الحقير إلى ما شغل فدانين ونصف .

ولعلكم قد أُطلعتم على ما ذكره مؤرّخو حياته من تصريحه عام ١٩٠٨ بأن شركته لا تجنح إلى كثرة التغيير والتبديل فى نموذجها « ت » الذى دلّ الفحص والاختبار، وأثبت البحث والامتحان ، على أنه الصنف المتين ، والنوع المطلوب . وأن شركته ستصدر اتومو بيلاته جميعاً من صنوٍ واحد حافظةً لشكلها . وأنه فى

المقدور إعطاؤها أيّ لون يرغبه المشترون بذلك السعر الواطئ ، الذى ليس إلى مزاحمته ولا إلى مناهضته من سبيل .

ولعلكم قد اُطلعتم على ما أثبته مؤرّخوه أيضاً من أن الشركة قد أصبح عدد عمالها عام ١٩١١ خمسة وثلاثين ألف عامل ، بعد أن كان ستة آلاف عامل منذ ثلاث سنوات ، وأن مساحة دور صناعاتها قد شغل فى تلك السنة اثنين وثلاثين فدانًا بعد أن كان يشغل عام ١٩٠٨ فدانين ونصف وأنتم لا تزالون تذكرون أنه كان فى حانوت نجار قبل ذلك بخمس سنوات .

ولعلكم قد اُطلعتم فى شتّى الصحف أثناء الحرب العالمَية على اعتماد المتحاربين لا سيما الحلفاء فى استخدام سياراته فى مقدمة الخطوط ، وأنها قد تسلقت إلى ذِروة «بن نقس» أى إلى ما يبلُغ علوه ٤٤٠٦ قدماً من غير أن تصاب بعطبٍ ولا ضرر.

إنكم قد اُطلعتم على هذا كلّه ، وعلى عشراتِ الأمثلةِ الشبيهةِ به ، وإنكم لذلك لم تستغربوا من أن بعض مبيعاته قد وصلت إلى عشرات الآلاف فى البلاد الانجليزية التى بها شركات سيارات غير فورد . ولم تستغربوا قدرة هذا الرجل العظيم فى اُفتتاح دار صناعة فى مدينة منشستر الانجليزية . ولعلكم قد تهانفتم سخريةً واُستهزاءً بما كان منافسوه قد أشاعوه عنه ، منذ تصريحه عام ١٩٠٨ عن نموذجه «ت» ، من أن إفلاسه ضربة لازب ، وأن فشله قاب قوسين . ذلك لأن من كان فى صفات فورد وأخلاقه محال عليه إلاّ النجاح المطرد والفوز المتزايد .

(١٩)

ولقد آن لنا أن ننظر نظرةَ تفهُّمٍ واُستيعابٍ إلى ناحيةٍ من نواحى أساليب « فورد » الصناعية ، لا لأنها تدلّ على ذكاء المستنبط ، ولا على براعة المخترع ، ولا لأنها كانت من أسباب رخص أثمانه ، ولا لأنها كانت عاملاً فعّالاً من عوامل

كثرة منتجاته، وإنما لما هو أسمى وأبلغ. ذلكم أنها دليلٌ ناطقٌ على مبالغة هذا العصامىّ العظيم فى تقدير الوقت وأهميّته. والوقت أغلى من الذهب لأن الذهب بعض ثمراته لو عقل المضيِّعون من أحلاس[1] المقاهى، وأسَراء دور العبث والمجون.

تلك هى طريقةُ العمل فى مصانعه التى قد انتحبها من بعده جميع أصحاب المصانع الكبيرة، والتى كان لها الأثرُ الكبيرُ فى تطوُّر الصناعات منذ استعمالها إلى الآن. وتتلخص تلك الطريقةُ فى نظام «النقّالة»، وهو عبارة عن خطوط حديدية دائمة الحركة ينقل عليها آلاف القِطَع المتشابهة من أجزاء الأتومو بيل البسيطة الصغيرة، وتقف أمداً ما أمام عددٍ مرتّب من العمال، ولا تنقل تلك النقالة من أمام فئة إلاّ بعد أن يكونوا قد أتمّوا قسطهم من العمل، كلٌّ فى قسمه. وهكذا تسير النقالة، وقد سار معها أجزاء الأتومو بيلات إلى الاجتماع ثم إلى الكمال رويداً رويداً إلى أن يتمّ صنع الأتومو بيلات.

وتلك طريقة آية فى السهولة، لأنّ كلّ عامل يتمّ عمله وهو واقف فى دوره. ثم هى آية فى السرعة وضمان يقظة العامل، لأن النقالة لا تقف أمام العامل إلاّ الأمد الذى يكفى بالضبط لأداء عمله.

أتعرفون كم كان أثر نظام النقالة هذه فى الصناعة؟

لنترك الكلمة فى ذلك إلى خبيرنا العصامىّ، فهو عذيقها المرحّب، وجذيلها المحكّك. وابن بجدتها، وزعيم دولتها.

يقول «هنرى فورد»: إن تركيبَ المحرّك كان يتطلب من الوقت قبل ستنباطه نظام النقالة عام ١٩١٣ تسع ساعات وخمساً واربعين دقيقة، وأنه بعد ستة شهور فقط من استخدام النظام الجديد أصبح تركيبُ المحرّك لا يستغرق أكثر

(١) أحلاس المقاهى: أى الملازمون لها ولم يبرحوها

من خمس ساعات وست وخمسين دقيقة . وبعبارة أوجز أصبح فى مكنة العامل بهذا النظام الجديد أن يصنع فى اليوم الواحد ضعف ما كان يصنعه أولاً .

أتعرفون السرّ فى أن « فورد » زاد أجورَ العمّال زياداتٍ باهظة من غير أن يزيد سنتيماً واحداً على أثمان سياراته ؟

ليس ثَمّتَ من سرٍ معمى ، ولا أُحجيّة صعبة الفهم . بل الأمر جدّ ما واضح جلىّ ، وشدَّ ما هو محسوس ملموس . فهو فى اختراع فورد لتلك الطريقة الموفّرة من الوقت ، والمقتصدة من جهد الرجال ، والمضاعفة فى منتجاتها .

أجل ! ليس ثمت من سرٍ مُعَمَّى ، وإنما هو حُسْن استخدام فورد لأوقات العمّال وجهودهم بطريقة علمية مما مكّنهُ أن يصرح فى عام ١٩١٤ أن أوطأ راتب للعامل عنده هو جنيه يومياً نظير اشتغاله ثمانى ساعات فى اليوم باعتبار أسبوع العمل ثمانى وأربعين ساعة .

أتعرفون ماذا كان أثر هذا التصريح السديد ، وذلك التصرف العادل ؟

لقد كان ما صنعه العمال فى تلك السنة ٢٤٨,٠٠٠ سيارة فأصبح بعد تغيير رواتبهم ، وتحسين أجورهم ٣٠٨,٠٠٠ سيارة

ليس هذا فقط . بل لقد تمكن فورد من تحسين رواتب عماله حتى كان راتب أقلهم شأناً ، وأصغرهم أمراً ، ستة جنيهات فى الأسبوع مع تقليله لسواع عملهم ، واستنباطه لمختلف العدد والآلات التى توفّر أوقاتهم ، وتضاعف منتجاتهم — تمكّن من تخفيض سعر السيارة إلى مائة جنيه بدلاً من مائة وعشرين جنيهاً .

غريبٌ أمر هذا العصامىّ الخطير حقًّا . وإنه لمن العدل أن نَنتحل المعاذيرَ لخصومِهِ الذين كانوا يؤمنون بفشله فى النهاية . إذْ يرون أجوراً عالية جداً — ولا أجور الوظائف الحكومية — تُدفَعَ لأصغر عماله شأناً ، وأتفههم عملاً ،

ويرون سياراته تُبَاع فى سنوات الغلاء الفاحش بأقل من ثمنها الأصلى حوالى العشرين جنيهاً . الى جانبِ متانتها ، وصلابتها ، وسرعتها ، وجمالها .

أتعرفون لماذا زاد فورد أجورَ عماله ؟

قد تقولون إنه زادها كنوع من التشجيع للعمال باعتبارهم شركاء له فى العمل ، أو لأنّه لاتباعه سياسته الصناعية من استخدام الآلات الميكانيكية والمحركات الكهربائية حيث يمكن تخفيفها لعمل الإنسان ، فقد ضاعفت رزقه وأتاحتْ لعماله مضاعفة عملهم . وهذا قولٌ حقّ لا ريب فيه . بَيْدَ أنه لزامٌ فى عُنُقنا أن نثبت هنا نظره الى أجر العامل .

يقول فورد ما معناه : « أجور العمال قدسية لتعلقها بأمر البيوتات والأبناء ومصير الأُسر . فجدير بنا إذا ما ذكرنا أمر الأجور أن نخفّف من غُلَوَائِنَا ، لأن الموضوع يمس بالحياة .

أجل ! إنها تمثل فى دفاتر الشركات أرقامًا وأعداداً ، ولكنها تمثل عند أصحابها حياة وغذاءً ، ودفئًا وكساء ، وتعليمًا وهناء . »

أليس فى تلك الكلمات الحكيمة ما يُشعِر بنبالة العاطفة، ورجاحة العقل، ورقّة الفؤاد، مع الشفقة والرحمة، ومع المعدلة والنصفة، ومع ثقوب البصيرة وحُسْن الكياسة؟

أليس فيها ما يُثبت أن صاحبها ليس بالأَشِرِ الأشعبيّ الذى لا يبتغى من وراء العمل إلاّ تكديس الأموال، وإحراز الأرباح ، وإتراع الخزائن بما لا يفيد الإنسانية بل بما يفقرها ويشلّ من حركة خيراتها ، ويدفن رءوس أموالها ؟

أليس فيها ما يدلّ على رُوح الاشتراكية الحازمة التى تَرْمى الى تحقيق السعادة العالَمية بمحاولتها ترفيه حال الطبقة العاملة ، والتقدّم بهم خطوة عمليةً واسعة ، أو خطوة مذكورة نحو رغدهم ورفاهيتهم ؟

على أن فورد بانتهاجه تلك الطريقة العادلة من تحسين حال عماله ، وإمداده بالراتب الكافى الذى يغنيهم بعد عَوَز ، ويكسوهم بعد عُرْى ، ويعلّمهم بعد جهل ، قد أمدَّ معامله ومصانعه بخير مجموعة صالحة من كفايات العمال الذين قد كفوا مؤونة معايشهم وحوائجهم ، فتفرّغوا بوافر انتباههم ، وكامل إقبالهم ، وقُصَارى جهدهم ، لما بين أيديهم من أعمال وظائفهم ، فلا شرود فِكْرٍ فى أمر البيت ولوازمه ، ولا تدبير حيلةٍ للإضراب أو الثورة .

وليس من ريب أن الْجَرْىَ على سياسة «فورد» من حيث العلاقة بين أصحاب الأعمال والعمال ، ومن حيث السخاء فى الرواتب مما يحدو الى الرقىّ الصناعىّ ،ومما يُنتج الرخاء الصناعىّ ، ومما يزيد فى الإنتاج الصناعىّ .

فجديرٌ بنا إن كنّا تجاراً أو أصحاب أعمال أن ننصف عمّالَنا ، ونشرك فى أرباحنا صنّاعنا ، وألاّ ندّخر وسْعاً فى إسعافهم بما اليه يحتاجون ، وإمدادهم بما به يرغدون ، وتعليمهم بما به يستفيدون ، وهَدْيهم الى ما به يتقدّمون .

وقَمِين بالرئيس عامّة ، سواء أكان فى مصنع أم عمل حكومىٍّ ، أن يشعر قلبه الإيمان والشفقة . وينظر الى مَنْ هم دُونه مَرْتبةً الى أنهم من لحم ودمٍ مثله . وأنهم زملاؤه فى الانسانية ، وشركاؤه فى الوجود . وأنه مسئول عن ترعيتهم ، وتَرْفِيهِ متاعبهم ، وتَوْفير رغدهم ، وضَمان رفاهيتهم ، والقضاء على أسباب شقائهم وعنائهم .

بهذه الروح العادلة الرءوم ، وبهذه العاطفة الحَدِبة الحكيمة ، وبتلك الأخلاق السديدة النبيلة تتكاتفُ الجماعات ، وتتآزرُ الأفراد ، وتتساندُ الصفوف ، وتسهل المهمة الإنسانية الخطيرة من تحقيق الرقىّ الإنسانىّ .

(٢٠)

قصةٌ أخّاذةٌ حقًّا — تلك هى القصة التى نقرؤها عن حياة هذا الرجل المترع حياةً وحميّةً وحماساً ، والذى لم يشغله عن تحقيق غرضه الأعلى شاغلٌ قلَّ أو جل ، والذى لم يكدح كدحه المضنى ليصيب المال لنفسه ، والذى واصلَ لياليه بأنهره دائباً جاداً ، وعاملاً مستميتاً عساه يوفق — الى جانب الكثير الذى وُفِّق اليه — الى العثور على بارقة أملٍ جديدة تهدى الى الرُّشْد وتُنير الدُّجَى ، وتكون مَدْعاةً الى اُستنباط اختراع جديد يؤدّى الى رُخْصٍ فى الأثمان ، ويدعو الى زيادةٍ فى الإنتاج ، ويصل به الى ذروة آماله الإصلاحية فى العالم الصناعىّ ، ويبلُغ به الى تحقيق رَغَباته الاجتماعية فى الرخاء الإنسانى .

على أنّ السبيلَ الذى سلكه « فورد » ، هو ككلّ سبيل يؤدّى الى العظمة والخلود ، بمعنى أنه يتطلّبُ من عَزَمَات سالكه معاولَ حداداً لاُجتثاث دوحات صعوباته ، ومدارجَ هِمَم يتسلّقُ بها جبالَ عقباته .

ولعلكم تريدون معرفةَ نوعٍ من أمثال تلك الصعوبات التى فتّتها إرادة «فورد» وخلفتها وراءها تَذْرُوها الرياح بعيدة عن تلاعه وقلاعه ؟

واليكم حديثَ اقتراضه عام ١٩١٩ لأربعة عشر مليونًا من الجنيهات :

أجل ! إن هنرى فورد الذى قُدِّرت ثروته منذ عهد قريب بأكثر من ١٥٠,٠٠٠,٠٠٠ جنيه ، والذى تُخرج مصانعهُ سيارةً فى كل سبع ثوان ، أى نحو مليون وربع مليون من السيارات فى مدى كل سنة . فورد الذى قُدِّر إيراده اليومى بثمانين ألفاً من الجنيهات ، والذى ينتظر أن يصبح قريباً مائتى ألف — فورد هذا قد وجد نفسه مضطراً عام ١٩١٩ الى اقتراض عددٍ غير قليل من الملايين بقدر تعداد احصائيتنا الأخيرة !

أتعرفون لماذا ؟

ذلك ليمكّن ولدَهُ « إدْسل » من شراء أسهم الشركة التي أسلفنا لكم القول في بيان مبلغ ارتفاع أسعارها ارتفاعاً مدهشاً ينطق وحده بما كتب لها من ارتقاء وتقدُّم

ولقد تمكن فورد في سنة واحدةٍ من دفع سبعة ملايين من أصل الأربعة عشر مليونًا. ولكنه لا يزال في حاجةٍ الى سبعة ملايين أخرى ليتحرَّر من الدَّين. فماذا فعل؟

أمَّا منافسوه فقد رَوَّجوا ضدّه التخرُّصات الكاذبة ، والإشاعات الخاطئة ، وأذاعوا الأقاويلَ الزائفة ، وراشوا ضده السهام النابية .

لقد قالوا إنّ فورد أضحى قابَ قوسين من الإفلاس ، وإنه على جرف هارٍ من الدمار والخراب .

وأمّا « فورد » فكان الايمان الوطيد في راسخ إرادته الحصين ، وصرح عزمته المكين . بقَدْر نُفْرته من السماح لدائنيه أن يضعوا أصبعهم في إدارة شركته حتى لا يعيدوا الكرَّة بما كان منهم أوّلاً ، ولا يُلْدَغ المؤمن من جُحْرٍ مرّتين .

وسترون جلياً أنه إذ ما استقرّ رأي « فورد » على أمرٍ فلا مفرّ من المضيِّ فيه ، والخَلاص منه ، في إتقانٍ وحُسْن بلاء . وفي قوّةٍ ومرهف مضاء .

نعود فنتساءل ماذا فعل « فورد » ليتحرّر من ذلك الدّين ؟ والدّين ، لعمركم ، هَمٌّ وأَرَق ، وعِبْءٌ ونَصَبٌ ، وفداحة بَوَار ودمار ، ومركب ذلٍّ وصغار ، وسبيل إضاقة وإعسار ، في كثرته سرف ، وفي سرفه تلف ، وفي تلفه حتف !

اسمعوا وعوا ماذا فعل فورد ، أي شبابنا الناهضين ، وإذا وعيتم شيئًا فانتفعوا ، وإن خير الانتفاع بالنصائح السديدة ، والأمثلة الحية لهو في العمل بها ، والجَرْيِ على سُنَنها ، والأَخْذِ بأعمال المتفوّقين من العصاميين .

ثم اسمعوا وعوا ، ماذا فعل « فورد » أي تجارنا العاملين ، ورجالَ أعمالنا الجادّين،

وأنتم خير من يَنْتَفع بمثال فورد الأعلى ، ولأنتم أحقُّ وأجدرُ بتجنبكم مزالق الدَّيْن ومنحدراته ، والتخلُّص من هناته وسوءاته ، والابتعاد عن سقطاته ومهلكاته . والضنّ بكراماتكم وحرياتكم عن قيوده وربقاته .

وأخيراً اسمعوا وعوا ماذا فعل فورد أى أبناءنا الأعزّاء ، مُهَجَ القلوب وفَلْذات الأكبدة لتنهجوا نهجه ، وتترسموا خطواته .

لقد أراد «فورد» أن يكون حراً لأن فى الدين ربقة الاستعباد ، وأراد أن يكون مستقلاًّ ، لأن الدين حمايةٌ سافرة الوجه ، وقحة فى إجراءاتها ، جائرة فى أحكامها ، مستبدّة فى جَبَرُوتها . وأراد فورد أن يعيش فى كيان نفسه ، وكيان ماله ، وكيان وجوده ، لأنّ من يعيش فى كنف الدين إنما يعيش فى غير كيانه ، ومع غير نفسه ، وفى غير دولته ، فى أجواء قاتمة تؤرِّق نومه ، وتقض مضجعه ، وتُشقى وجوده .

كان فورد كتاجر قد تعاقد مع عملائه فى بيع سيارته على استلام ثمن بضاعته عند تسلمهم لها . وأمام فورد الآن أكداسٌ مرهقة من الطلبات العديدة الواردة اليه من كل صوب .

أجل ! أمامه آلاف الطلبات ، ولا رَيْب أنه إذا ما أتمّ السيارات وأوصلها إلى طالبيها من عملائه العديدين فستقبض يمناه ما يسدّد المبلغَ المتأخر . وبعبارة أوجز مايرسو به على شاطئ النجاة . فلا تُغرِق سفينته أعاصيرُ الدّين الهَوْجاء ، ولا تُحَطِّمها فى اليمِّ أمواجُ الاقتراض العاتية العشواء .

إذنْ فليدعُ فورد كتائب جيوشه ، وليحشد جميعَ قُوَى جُنْده ، وليُشْحذ ما بذخيرة ذهنِهِ ، وليفتق ما بجراب حيلتِهِ .

لقد بذلَ فورد ما فوقَ المقدور البشرى العادى . . . . ولكن يجب أن نهمس

هنا بين قوسين أن لا مستحيل أمامَ المقدور البشرى عند توفُّر الإرادة، وتكامُل عناصر العزيمة . . . . !

استخدم فورد كلَّ وسيلةٍ تؤدِّى إلى مُضاعفة الإنتاج، مع المحافظة الدقيقة على قاعدته الذهبيّة التى لم يتزحزح قيدَ أنملةٍ عن صِراطها السوىِّ، ونورها السنىّ، وثمرها الجنىّ ألا وهى عدمُ زيادة الأسعار، بل على النقيض رُخْصها وما هو أدنى من الرخص، مما يقضى القضاءَ المُبرم على كلِّ مُزَاحمةٍ ونفاس.

لقد نظر فورد نظرةَ تدبُّرٍ وإنعامٍ وتَرْوِيةٍ حتى استقرَّ رأيُه على أنه يستطيع باتباع سياسة الاقتصاد أن يوفِّر حوالى نصف عمال الإدارة العامة: أى جماعة الموظفين الكتابيّين والاداريّين. وليس معنى توفير هذا العدد العرمرم أن يبعث بهم إلى «المعاش» أو إلى كَسْر بيوتهم، أو إلى تركهم عالةً على الانسانيّة، أو بجعلهم كَلًّا مهملاً يشقى بالبطالة. كلا! وإنما وفّرهم من حيث لا يعملون القَدْرَ الكافى، وحيث يستطيع نصف عددهم الاضطلاع بمهامهم جميعاً بلا إرهاقٍ لأنفسهم، ولا إخلالٍ لسير الأعمال فى نظامٍ واُطراد وإتقان. وفّرهم لكى يبعث بهم من كراسى المكاتب، وأحلاس الإداراتِ. ومَنَاضد الكتابة إلى حيث المصانع والمصاهر، حيث يعملون ويَكْدَحون، ويُنْتِجون ويُفيدون.

وبهذه النظرة العاقلة المقتصدة السديدة تناوَلَ شتَّى مرافقه بالاختزال من كمِّها، مع الاحتفاظ بجَدْوَى نفعها، ومنتجات أصلها، حتى عُدَد المسرّات[١] بالمكاتب، فقد اختُزِلَتْ إلى النصف، وهنا ظهرت طلائع تلك السياسة الاقتصادية الرصينة، وكادت تُؤتِى أُكُلَها، وأضحَى دفعُ سبعة الملايين راجحَ الوقوع. لولا أن فورد تبين من السكك الحديدية فى «وترويت» «وتوليدو» «وأيرنتون» انها تعطل عليه

(١) عدد المسرات أى أدوات التليفونات

الكثير من الوقت من حيث نقلها لأدواته وآلاته، ومن حيث توصيلها لسياراته للعديدين من عملائه.

تلك عَقَبةٌ جديدةٌ تلوحُ بالخطر الكثير ما لم تتداركها العنايةُ ويُلْفى لها الحلّ السريع والدواء الناجع. فماذا فعل فورد؟

لقد بذل هو ما فى مقدوره من حيث زيادة الإنتاج، واُتباع وسائل الاقتصاد وهذه عقبة تَخْرُج عن حيّز سلطانه. فماذا يفعل؟

فقد رأى أن لاَ علاجَ فى الشكوى، ولا فى الرجاء. وأن لا علاجَ ولا بَلْسَمَ، ولا حلَّ ولا مَغْنَم، إلاّ إذا أصبحت السكة الحديدية هى الأخرى تحتَ سلطانه، وطَوْعَ بَنَانِهِ.

لذلك لم يتردّد فورد في شرائها.

أجل! فورد المهدّدُ بالوقوع فى الدّين، والمطالَبُ بأن يدفع حالاً سبعة ملايين من الجنيهات؛ فورد الذى يروّج عنه خصومُهُ أسوأَ المقالات، ويُذيعون عن حالته المالية أضرَّ الإشاعات، يتقدّم فى ظَرْفٍ حاسمٍ كهذا لشراء تلك السكك الحديدية. فماذا كانت النتيجة؟

لقد استطاعَ فورد أن يصل قبلَ الوقت المحدَّد للمبلغ المطلوب مع زيادةٍ طفيفة جدًّا . . . . أتعرفون ماهية تلك الزيادة؟

إنها خمسةُ ملايين أخرى من الجنيهات فوق سبعة الملايين، وقد حصل على المبلغين من دُور صناعته، ومُنتجات ثروته، وثمرات إرادته.

ستقولون كيف توصَّلَ إلى ذلك المبلغ الجسيم؟

وكان من المعقول أن تتساءلوا قائلين: وكيف يُشَكُّ فى ألاّ يصلَ فورد إلى ذلك المبلغ، وإلى أكثر منه طالما أنّ الرجلَ هو قد جمع فى إهابه كل مسبِّبات

النجاح من إرادةٍ متحفزةٍ، وهمةٍ مستحصدة؛ ونظامٍ مُستكمل، وقصْدٍ مُستوفٍ، وحزامةٍ مسدّدة، وعزمةٍ غير متردّدةٍ، وحميّةٍ متوقّدة، وأَصالةٍ متوثّبة.

كان هنرى « فورد » مُطالَباً أن يدفع فى الفتْرة التى بين أول يناير وأوّل أبريل عام ١٩٢١ مبلغ ١٢,٠٠٠,٠٠٠ جنيهاً، وهو عبارةٌ عن المبلغ المطلوب مضافاً عليه الأجورُ وضرائبُ[1] الدَّخْل. وكان كلُّ ما فى حَوْزته فى أول يناير من تلك الملايين الاثنى عشر أربعة فقط، فلم يُطلّ على فورد أولَ أبريل من شُرْفةِ عَلْيائه إلاّ قد رحّبَ به فورد فى صَمْتٍ وَوقار، ومعه سبعة عشر مليوناً من الجنيهات.

ستقولون: إنّ سُرعةَ السكك الحديدية قد مكّنته من توريد السيارات المطلوبة، ووفّرت عليه حَوَالَىْ ثلث البضاعة المخزونة وغير ذلك من « الفرعيات » التى أدلَى بها بعضُ مؤرّخى حياته. بَيْدَ أنى أحبّ لكم، أى شبّاننا الناهضين، أن تُنصفوا الرجل، وتُنصفوا جُلَّى صفاته فتقولوا: « نجح فورد لأنه أمسكَ أغصانَ النجاح بالتلابيب، فجمع ناضجَ ثمراتها، واقتطف جنى فاكهتها بعد أن قلّمَ الفروع والأغصان، وشذّب الأصولَ والأفنان، وبعدَ أن أنهك نفسَه فى التسلّق والصعود، وبعد أن هَجَر لذيذ الكَرَى وراحةَ الهجود. واُستبدل بها سهراً وجهوداً »

(٢١)

تسائلون عما كان من « فورد » وقد نجا من ربقة الدَّيْن، ونالَ من جهوده الحسنيين؛ هل أخلدَ بعدئذٍ الى الراحة والدّعة والركود؟

كلا! ثم كلا!! بل استمرَّ العظيم فى فتوحاته العظيمة، واُستمرّ منذ عام ١٩٢٢

(١) ضريبة الدخل من النظم العادلة المقررة فى البلدان الغربية ولعلها تشبه فى كثير من الوجوه نظام الزكاة المفرر فى الشريعة المحمدية وغيرها من الديانات السماوية فتجمع الدولة هذه الأموال فيما تجمع من مختلف الضرائب وتصرف منها على شئون الدولة التى لا تبخل البتة عن العناية بشئون طبقة الفقراء والمعوزين من تعليم واستشفاء، وإطعام، وإمدادات بشتى المعونات.

يمطِر العالَمَ سنويًّا بمليونين من السيّارات ، وأصبحت مصانعه عام ١٩٢٥ تدفع خمسين مليونًا من الجنيهات سنويًّا أجوراً لعمالها ، ثم أخذَ يفكِّر فى إمداد العالَمَ بطيارات بخارية ، وأسعفَ طبقاته العاملة بمستشفى جامعٍ لكلّ الوسائل الفنية والصحية كلفه وزوجه الأمين مليونًا من الجنيهات . ثم فتح مدرسةً عمليةً لا تحْفِل بزخرف العلوم وبهرجها بَل مثل سيارته «ت» التى لا تحفل بشىء أكثر من المتانة والسرعة ، والوصول براكبها الى حيث يبتغى .

ولعلكم تَدْهَشُون إذا علمتم أن هذه المدرسة ، وهى ببلدة « سدبورى » بولاية « ماساشوزيتس » تَشْغَل ما يربو على ثلاثة آلاف الفدان ، وأن عدد طلاّبها فوق الثلاثين قليلاً ، وأن أسنانهم بين الثانية عشرة والسابعة عشرة ، وأنهم لا يعتمدون فى تَعلُّمهم بها على ما فى بطون الكتب والدفاتر ، ولا على ما تخطه الأقلام والمحابر ، وإنما يعتمدون على عقولهم المفكِّرةِ ، والتفاتهم المُجْدِى ، ونَظَرهم المراقب ، وفكرهم المتيقِّظ . وتلك صفاتٌ كانت ولا تزال متجلِّيةً فى فورد الأب الذى أورثها لفورد الابن . والذى يورثها الآن فى مشروع مدرسته الجديدة فى أبناء جُدَد ، أعدَّ المعدّات الكافيةَ لتعليمهم الفنون الزراعية من فلاحةٍ ، وصناعةِ ألبانٍ وجبن ، وتربيةِ ماشيةٍ .

وأخيراً لِزَامٌ فى عنقكم ، شُبانَنا الجادِّين ، أن تعلموا عن فورد رَجُلِكم الخطير أنه يعيش فى حياته الخاصة عيشةً لا تزيد على الكفاف كثيراً ، وأنه غيرُ جَشِعٍ فى مأكل ولا مشرب ، وليس بمُعَاقر خمر ، ولا أسير شهوة . وأنه الحاكم المطلق على نَزَعاته وأهوائه ، ثم هو الى جانِب حبِّه الطبعىِّ للعمل الجِدِّى ينزع فى سَوَاع راحته ، وما أقلّها وأندرها ، الى اُستجلاء محاسن الطبيعة فيخرج الى الأحراج والغابات ، والى المهامِهِ والفلَوات ، والى الحدائق والمتنزَّهات ، وأنه يحنو حُنُوًّا

ممتعاً على الطيور ودرسها . بل لقد كان من خُلَّص أصدقاء الكثيرين من علمائها الأعلام ، وجهابذتها الأفذاذ ، وكان ولا يزال الموفَّق فى اختيار أصدقائه من أصحاب الشخصيات البارزة أمثاله مثل: أديسن وهاردنج رئيس الجمهورية الأسبق. ويجب أن تعلموا أنّ زعيمكم الصناعىَّ كان هو الآخر مرشحاً فى يوم من الأيام لرياسة الجمهورية ، بيد أنه فى عمله وإكبابه وإصلاحاته ومخترعاته كان فى شغل شاغل عن الترويج لنفسه والتدعيم لدعوته .

وقد يُدهِشكم أن تعلموا أنّ صاحبكم يميل الى إمتاع خاطره بطُرَف الأدب بين حين وحين ، وأنه من أنصار الشاعر النابه « لونجفلو » ولعلّ سرّ ذلك هو « أنشودة الحياة » التى يقول فيها الشاعر ما معناه : « لنكن يَقْظَى عاملين ، وليكن لنا القلبُ الكمىُّ الذى يحتمل ما يأتى به القَدَرُ من أحداث . ولنمض قُدُماً فى أعمالنا ، متْبعين الُخطَى بالُخطَى . ولنتعلم كيف نعمل وكيف نترقب ! »

وجميلٌ بكم أن تقفوا أمامَ تلك الكلمات التى أَحبَّها زعيمكم وَقْفَتَهُ المتدبِّرة المتعقلة ، فتأخذوا أخذَهُ فى مَنْهَج حياته الحافلة بجلائل الأعمال وكُبْريات المآثر ، وناطقات المفاخر ، وتحبُّوا العمل حبَّه ، وتكدحوا كَدْحَه ، وتضربوا فى الحياة بخَطَوات قويّةٍ مُتَّئدة ، وأن تسهموا فى البرىء النافع من مُتَعها بما أَسهم ، وأن تُفيئوا على إخوانكم فى الإنسانية بما أفاءَ عليهم من بِرِّه وفضله ، وأن تسموا بأخلاقكم كدَمِث خلقه وسامى نُبْلِهِ ، ولتسيرنَّ فى أُموركم سَيْرَه ، ولا تَنْزلوا عن مُعتقداتكم إن كنتم عن حقِّها واثقين ، والى صوابها مطمئنين ، ولا يُرَوِّعنّكم اُستخفافُ المستخفِّين من نفايات الصاخبين الناقمين ، أو المصفِّقين المعجبين ما دمتم فى كَنَف الواجب ماضين ، وبهَدْى العمل آخِذِين ، والى الأمام المطرِدِ ماضِين .

(٢٢)

ومن الحَتْم علينا قبل أن نختتم هذا الفصلَ المُوجَز عن حياة عصامِيِّنا الكبير، الذى هو بمثابة قطرة من بحر، والذى لا يعدو عن كونه أسطراً قلالاً من كتاب فى مجلدات، أن نلفت أنظاركم الى لمحة من فلسفته بعد قراءتنا لكتابه الأخير « فلسفتى فى الصناعة »

وإنّ خير ما نتقدم به اليكم هو اُنتخاب جُمَلٍ قليلةٍ من تعاليمه السامية .

يقول فورد : « يجب على الانسان أن يطبع ما ينشده من تقدُّمٍ بطابع المبادئ الخلقية ، التى هى عبارةٌ عن علاقة الانسان بأخيهِ الإنسان » ويقول : « يجب ألاّ يكون تقدُّمنا على حساب الأخلاق »

ويقول فى جهة أخرى : « إنا لا نعيش فى عصر آلىّ كما يذهب البعض، وإنما نعيش فى عصر القوّة ، وقد يتفاوَتُ مقدار اُرتفاعنا بهذا العصر ، وفقاً لطريقة اُستخدامنا لها ، فيجوز أن نُسيء اُستعمالها ، ويجوز أن نستخدمها فى أسعار النوع البشرىّ ، وهنا تظهر الأخلاق »

فأنتم تَرَوْن مبلغ عنايته بالأخلاق فى تلك الكلمات القليلة .

واُنظروا الى مبلغ تقديره لذكرى العاملين من قومه حيث يقول فى بعض فصوله : « لقد فكر ابراهام لنكولن » و « بنيامين فرانكلن » فى مبادئ أو أُسُس ، وكانا مُعتبرَيْن من بُناة عصرهما ، وهما لا يزالان حتى الآن من بُناة هذا العصر ، لأن مبادئهما باقيةٌ حتى اليوم ، معمولٌ بها حتى الآن . ألاَ إن قيمة كلِّ اُمرىء فى الحقيقة التى يكتشفها ويعرفها ويستعملها . . . »

ثم يقول عن السياسة : « إنها تلزم التغيير ، وتُحَتِّم على التقدُّم » .

وأما عن وقتِ الفراغ فله فيه كلماتٌ سديدةٌ نُجْملها لكم فى قوله :

وقت الفراغ

« لا يمكن الحكم على مميِّزات الناس إلاَّ بعد معرفة استخدامهم لساعات فَراغهم، وكيفية استعمالهم لها ، فقد مضى أمسِ الدابرُ الذى كان تُعدّ فيه ساعات الفراغ مُضَيِّعةً للوقت ، خصوصاً ما يختص بالصناعة ، حيث كانوا يعتقدون أن تخفيضَ ساعاتِ العملِ يؤدِّى الى الفقر والفساد .

ففى أمريكا قد تغيّرت أفكارُهم من هذه الوجهة فى السنوات الأخيرة ، وأصبحوا يعتقدون أن وقت الفراغ ليست فيه أيّـة خسارة . وإنما هو يعود بأكبر فائدة على الإنسان ، إذ يمكنهُ أن يستعيد قُوّته ، ويستردّ صحته ، أو يستفيد من عمل آخر يضاعف به رزقه ، أو يُنَمِّى مداركه ، وكل هذا تتجلَّى فيه سعادة الأسرة وراحة النفس .

فالرجل إذن يحتاج الى وقت للتفكير . والدنيا فى حاجة لمفكِّرين ، ومن أهمِّ ما تُقاسيه الحياةُ الصناعيةُ الآن عدم وجود صنّاع يقومون بعملهم بدون قادة . وهذا يرجع الى عدم توفُّر وقت الفراغ لهم للتفكير فيما يعود عليهم بالخير ، وتحسين حالتهم العقلية . »

وأما رأيه فى التعليم فقد أبداه فى كلماتٍ موجَزةٍ هى خيرُ مؤدِّب ومهذِّب :

التعليم

«التعليم الصحيح هو بشرح المسائل، وإثبات الواقع بالأدلّة والبراهين، لا بكثرة الأسئلة التى لا يدركها الفهم . »

واليكم أسوقُ كلامَ هذا الرجل العظيم ، والداعى الكريم عن أمته النبيلة التى سبقت الأمم فى إلغاء تجارة المشروبات الروحية ، ومنع تجارة الرقيق ، فسجَّل لها فى صفحات التاريخ الفخر الدائم ، والمجد الخالد :

المشروبات الروحية

« إن قيام أمريكا من بدء حياتها فى إبطال تجارة المشروبات الروحية ، ومنع تجارة الرقيق كان من الإصلاح العظيم الذى فاقت به أمريكا كل الأمم حتى أصبحت لها المكانة الأولى فى التقدُّم ، ونالت مُستوًى لا يتسنَّى لأمة غيرها أن ترقى اليه . »

ويحدّثنا عن مضارّ التدخين ، وما أكثر انتشاره بين شبابنا حتى الناشئ الصغير فيهم ، وكيف لا يُوجَد فى مصانعه الواسعة شخص يدخِّن بين عمّاله الذين يعدُّون بالآلاف :

التدخين

« لا يوجد شخصٌ فى مصانع فورد يُدَخِّن ، لأن التدخين ليس بالشىء الصالح للصناعة أو الفرد . »

أما كلامُه عن الاختراعات الحديثة وأثرها ، وكيف أصبحت فتنةَ الناس فى خَلَوَاتهم ومجتمعاتهم ، ومَطْمَحَ أنظارهم وأفهامهم ، فهو من دُرَره الغَوَالى التى يعجب بها الذين فُطِروا على الإعجاب بكل غريب ، والأُفتنان بكل جديد :

الاختراعات الحديثة وأثرها

« لقد قامت الآلة بتكميل ما لم ينجح فيه الانسان بطريق الوعظ أو البروباجندة أو الكتابة ، فالطيارة أصبحت بفضل ما أُدخل عليها من وسائل النجاح لا يقف فى سبيلها عائق ، فهى تمرّ على كل قطعة من الأرض بلا أدنى توقُّف . وأضحت تربط أجزاء العالم بعضها ببعض ، بطريقةٍ لا يمكن لأىّ نظام آخر عملها . والصور المتحركة بلغتها الكونية ، والطيارة بسرعتها ، واللاسلكى ببروجرامه المختلط القادم ، كل هذه ستكون فى المستقبل أكبر معوان للتفاهم ، فهل لنا أن نتنبأ بإنشاء ولايات متحدّة دنيوية ؟ لا بدّ أن يحصل ذلك أخيراً . »

واليكم ما يقوله فى التفكير حتى تنقَّلَ المعجبون بأعماله الى الأفتنان بأقواله الدالة على عبقريته ونبوغه ، والتحدُّث بها فى كلّ صُقْعٍ وناد :

التفكير

« التفكير عملٌ بالمعنى الصحيح ، وربما كان أصعبَ الأعمال . وإنى أعتقد أن أسرار الحياة مفتوحٌ أبوابها للمفكرين ، فاذا اعترضتنا مسألةٌ أمكن حلّها بالتفكير حالاً ، كما أعتقد أننا نعيش ونمشى ، ولنا وجودنا ، فى محيطِ التفكير ، وسنستمرّ دائمًا فيه ولو تغيّر شكلنا وشكل الدنيا » .

ويحدّثنا عن الاختراع وسرّ عجائبه وغرائبه فى كلمة بليغـة تدل على مبلغ شهرته وعظمته .

الاختراع

« الاختراع سراج منير يستضىء به مخترع آخر . »

أما رأيه فى قيمة الأشياء القديمة فهو أسدُّ رأيا ، وأصدقُ نظراً لأنه لا يبخسها قدرها بل جعلها سُلّما للحضارة الحاضرة :

قيمة الأشياء القديمة

« ليس القديم كائناً مستقلاًّ يقضى به المرء لبانته ، إنما هو سُلَّمٌ ترتقى به الأمم الى عرشْ الحضارة الحاضرة . »

وأسوق اليكم كلماتِهِ السديدة عن التشهير بالخطأ وهى تَشِفُّ عن بُعْد نَظَرِ ذلك الرجل العظيم ، ثم هى تؤيدنى التأييد كله بانه مصيبٌ فى كل ما يرى وما يفعل ، وما ينتهج لنفسه وللناس من سُبُل الحياة :

التشهير بالخطأ

« من السهل على الانسان أن يُشْهَر بالخطأ دون أن يعمل على إصلاحه ،

ولا يمكن تحسين حالتنا الحاضرة مع التشهير بالماضى ، إذن فلنترك الماضى وما كان عليه ، ولننظر فى تحسين حالتنا الحاضرة . وألفت النظر الى أن ما نعتبره الآن خطأ الماضى لم يكن فى زمنه خطأ بل كان صحيحاً ، كما ننظر نحن الآن الى الصحيح الذى ربما يصبح خطأ بعد ردح من الدهر . »

ويحدِّثنا عن الحرب وأسبابها فى عبارةٍ موجَزَةٍ هى الحكمة البالغةُ ، والموعظةُ الحسنة :

الحرب وأسبابها

« لا تقوم الحرب بسبب الوطنية ، أو للدفاع عن أحبِّ الناس الينا ، ولكنها تقوم بسبب التعاليم الدينية العقيمة ، والمصلحون قليلون ، فهل لا يوجد العدد الكافى للقضاء على هذه التعاليم ؟ »

أما كلمتهُ عن المال فهى من كلماته المأثورة التى يجب على شباننا الناهضين ، وهم عيون الأمة اليقظة ، وعقولها المفكرة ، أن يُعيروها أُذُناً صاغيةً ، وقلوباً واعية :

المال

« المالُ مطيَّةُ النجاح ، ومُعْضلةُ الشابِّ الحديث ، فمن حلَّها واستطاع السبيل اليه بجدٍّ ونشاط ، فقد عاش بين الرجال ، وخُلِّدَ فى صحيفة الأبطال . »

ويحدّثنا عن أساس التقدُّم ، والشكوى من سَيْره ببطء ، وما أصدقَ كلام رَجُل الجدّ والعمل والشجاعة والإقدام والهمة فى هذا الموقف :

أساس التقدم والشكوى من سيره ببطء

« يحمل رجالُ الصناعةِ والتجارة والنقل منذ العهد القديم حتى الوقت الحاضر القنطرة التى يمرّ عليها العالمَ ، ويشكو البعضُ من أن العالمَ يسير ببطء نحو

---

(١) لعل هذا كان صحيحاً الى حد غير قليل فيما سلف من الازمان . أما فى عصرنا الحاضر فمعظم اسبابها راجع الى الاطماع الاستعمارية وجشع الرأسماليين

التقدُّم، ومع الأسف أن هذا البعض ممن يمرون على هذه القنطرة دون أن يضعوا حجراً من بنيانها ! ! »

وانظر الى ما قاله عن المؤرّخ والعامل ، وكيف رجّح كفَّةَ الثانى عن الأول لا مُجاملةَ ولا مُحاباة ، وإنما لأنه يعمل الشيء بيده ، ويتعهده بنفسه ، فيرى بعينيـه ثمرات أعماله ونجاحها ، فيغتبط بمرآها ويصبح أسعدَ الناس حالاً ، وأوفرهم حظا :

المؤرخ والعامل

« العامل أهمّ بكثير من المؤرّخ ، لأن المخترعات والمكتشفات والمدنية الحديثة بأجمعها حسنة من حسناته ، وثمرة من ثمراته ، بينما المؤرّخ لا يقضى وقته إلاّ فى تاريخ أعمال غيره . »

أما رأيه فى الرجل المتعلِّم فهو من الآراء الحكيمة ، لأنه يرى أن الشهادات لا قيمة لها إلاّ اذا كان حاملها من أصحاب العقول المفكرة :

الرجل المتعلم

« الرجل المتعلم هو الذى يمكنه أن يفكر بصرف النظر عن الشهادات التي يحملها . »

وما الى ذلك من الكلمات السديدة ، والحكم البليغة التى تهذِّب النفوس ، وتثقِّف العقول ، وتبعث فى نفوس ضعاف العزائم روح الهمّة والنشّاط ، والشجاعة والإِقدام . وإنّا نجملها لكم فى هذه السطور :

عقبات النجاح

« الخوفُ والكبرياءِ هما أكبرُ عَقَبَةٍ كأداءَ فى طريق النجاح . »

الاقتصاد والشغل

« إنّ مَن يستغل ما عنده خيرٌ من اقتصاده . وبعضُ الناس يبدل كلمة الاقتصاد بكلمة الشغل ، وهذا خطأ ، لأن كلمة الأُدخار نصفها الخوف . »

قيمة الأخطاء

« تكون الأخطاء جزءًا من مادّة العلم ولكن بطريق سلبىّ . »

الحكمة

« أساسُ الحكمة معرفة المبادئ ، والعملُ على تقدُّمها . »

درس الحياة

« الحياة كالنهر الذى يغيِّر مجراه دائماً ، ودرسها يكون بتتبُّعها أنَّى سارت ، لا أن يَبْقَى الإنسان فى مجرًى لها تركَتْه . »

رجال الأعمال

« ليس لرجال السياسة أو العلم أو الدين من التأثير على الجماعة ما لرجال الأعمال ، لما لهم بها من الارتباط المستمرّ ، والتأثير الذى لا يمكن تجنُّبه . »

الفقر وعلاجه

« علاجُ الفقر ليس الإحسان ، بل العلاج هو حصر الأسباب التى أدّت اليه ، والعملُ على إيجاد خير الوسائل لإزالتها ، وليس هناك دواء ناجع لذلك أحسن من العمل . وكل من يشتغل فإنه يعمل على إزالة الفقر . »

الديمقراطية

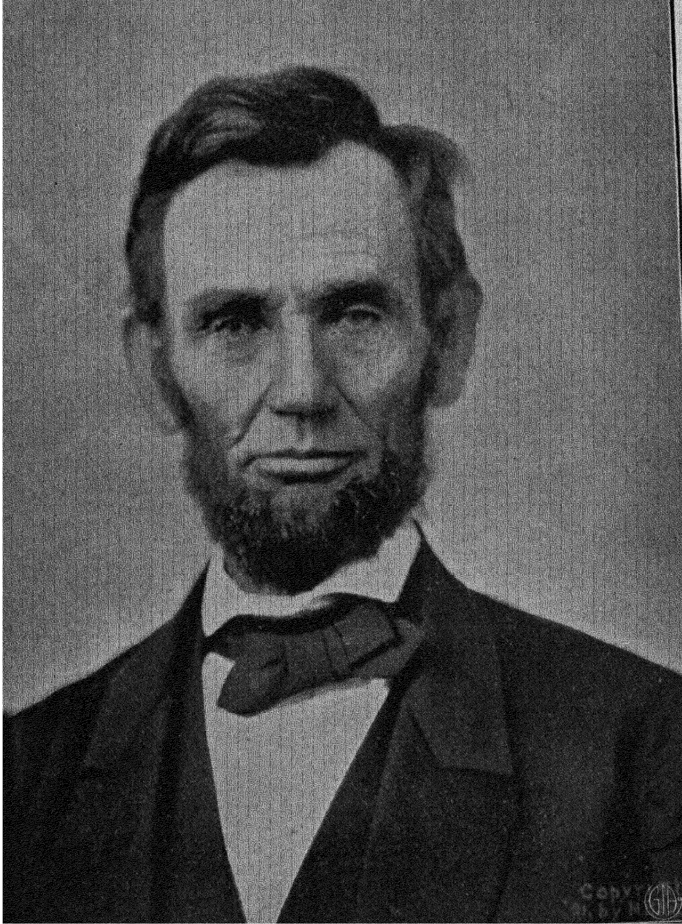
« العقول متى توحَّدت فى تفكيرها ، واُشتركت فى مجهودها ، تؤدِّى حتماً الى نتائج أحسن مما لو كانت تعملُ متفرِّقة . »

حول زعيم سياسى حرر نصف البشرية

ابراهام لنكولن

(١)

لا نستطيعُ أن نَزْعُمَ بحقٍّ أنه فى مُكنَتِنَا إيفاءَ حقّ « ابراهام لنكولن » من البحث والتحليل فى موجزٍ تاريخيٍّ كالذى نحاول كتابته عنهُ فى هذه الصفحات القليلة . ومن الحقّ علينا أن نعترفَ باديءَ ذى بَدْءٍ — احتراماً للتاريخ والعلمِ واُحتراماً للبطلِ الذى نكتبُ عنهُ ولأنفسنا — بِعَجْزِنا عن استيعاب حياة ذلك الرجلِ العظيم ، والمفكرِ الكبير ، والمصلح الجرىء التى تملأُ القلوبَ والأنظارَ والأسماعَ هيبةً ورَوْعةً وجلالاً . ذلك لأنَّ حياة العظيم عظيمةٌ مثله . فما هى لعمركم إلا سلسلةٌ متصلةُ الحلقات متعدّدة الوجهات ، مترعةٌ بأجلّ الدروس وأمتع العظات ، وليس الى حصرها من سبيل ، وليس دون الانتفاع بسننها ، والاهتداء بسنى ضَوْئِها ، من حدٍّ ولا نهاية . وإنما قصارى ما نرمى اليه ونرجوه لشبابنا ، وفلذات أكبادنا ، وعُدَّة آمالنا فى مستقبلنا ، أن يلموا معنا إلمامةً متواضعةً ، بصاحب هذه السيرة المتواضعة ، الذى يكفيه من فخرٍ سَرْمدىٍّ ، ومجدٍ أبدىٍّ ، ما أصابه فى أخريات جهوده المتواصلة من توطيد عُرى الاتحاد بين بلدان أمته ، وتحرير نصف أبناء جلدته . . . كلا بل تحريره نصف البشرية قاطبةً من رِبْقة الرقّ والاُستعباد ، ونير الإجحاف والاستبداد ، الى نور الحرية والإخاء والمساواة ... آملين أن نهتدىَ جميعاً بَهدْيه ، فنعمل متكاتفين متساندين على ما فيه خدمة الأوطان ، ومحبّة الانسان لأخيه الانسان .



ابراهام لنکولن

(٢)

وُلد بطلُنا « لنكولن » الرئيس السادس عشر للجمهورية الأمريكية فى ١٢ فبراير سنة ١٨٠٩ . ولسنا نحفل كثيراً بأن نقف على سنة ميلاده بقدر حَفْلنا بِتَتَبُّعِهِ فى توقُّله ذُرى المجد ، ومثابرته الدءوب فى خدمة الانسانية ؛ و بقدر ما نحفل بدرس عوامل عصاميّته ، وتفهم صريح سياسته ، والاحتذاء بإصالته ، والاقتداء بكياسته ؛ و بقدر ما نحفل بإشباع نفوسنا وأرواحنا وقلوبنا من نزيه طعمته ، وبرئ وطنيته ، ونبيل طويّته ؛ و بقدر حَفْلنا أن نكون على غراره وقالبه ، نعيش للوطن ، ومن أجل الوطن ، وفى سبيل الوطن ؛ ونحيا للواجب ، ومن أجل الواجب ، وفى سبيل الواجب .

لقد نشأ « لنكولن » فى حِجْر العَوَز والفاقة يقوده الأمل ، ويسوقه الرجاء ، وبين جنبيه همة عالية ، ونفس كبيرة . فصهرته يد الزمن القاسية ، اذ ضربه الدهر بضربانه ، ورماه بنكباته ، فكوّنت من نفسيته النقية ، وسجاياه الرضية ، وقلبه الرءوم ، وسعة أعطانه الحَدِبة الرحيمة ، الرجلَ العظيمَ حقاً ، والبطلَ النزيه السمعة ، الحسنَ الأُحدوثة ، المتوثّبَ العزيمة ، والمستحصدَ الهمة . كوّنت منه حمّالَ الأعباء ، طلاّع الثنايا . كوّنت منه رجلا حَلَب الدهرَ أشطرَه[١] . كوّنت منه زعيمَ الشعب ومعلِّمَه ، ومُدَرِّبَ الوطن وخادمه . كوّنت منه حاكم الأمة فى غير صَلَف ولا اُغترار ، ولا جبروتٍ ولا استكبار . كوّنت منه أمةً فى رَجُل ، ورجلاً فى أمة . وأخيراً كوّنت منه المعنى الخالد للوطنية الخالدة ، والرمزَ الصادق للعزيمة الصادقة : كَوَّنَت منه المبدأ الحق لهذا الخلق ألا وهو : « الفناء الشخصى إزاء الصالح القومى » .

(١) يقال للرجل المجرّب الأمور : « قد حلب الدهر أشطره » أى قد قاسى الشدائد والرخاء وتقلب فى الفقر والغنى .

(٣)

أى شبابنا الناهضين :

ليست العظمة الحقة أن يُولَد الرجلُ مُعِماً مُخْوِلاً ؛ ولا هى فى عراقة الأرومة والنِّجار ، وسعة الثروة والعقار ؛ ولا هى فى أن ينشأ الإنسان سَرِياً يُشار الى هَيْله[١] وهَيْلمانه ، وطِمِّه ورِمِّه بالبنان[٢] ، ولا فى أن يصيبَ من غفوة الدهر وغفلته قرنَ الكَلأ[٣] ؛ ولا فى أن يستمتع بما فى الحياة من هِيْءٍ وجِيءٍ[٤] . كلاَّ وربكم ! وإنما هى فيما هو أنبل وأسمى : إنَّها فى الخلق . فى الكدح . فى العمل . ثم هى لعمركم فى الايمان بما فى أعناقنا جميعاً مهما تباينَتْ أسنانُنا ، واختلفت أعمالُنا ، وتفاوتت مراتبُنا ، من واجبات نحو الوطن وأبناء الوطن .

أى شبابنا الناهضين :

ليس فى الفقر من هنةٍ ولا عاب ، إنما الهنةُ والعابُ فى أن يكون الرجلُ عالةً على غيره ، قُعَدةً جُثَمةً[٥] لايعى ما يراد ولا ما يشاد . « وابراهام لنكولن » لم يقعد به فقر أبيه النجار المزارع المسكين الذى كان يزرع فضاء الأرض عساه يجدُ مزرعةً تقيم من أوده ، وتسعفه بما يسدُّ الرمق . بل كان لآبه[٦] الصغير وهو اسم « ابراهام لنكولن » منذ ميعة شبابه ، وطراوة إهابه ، كان له من عمله المتواصل ، وجدّه الدائم ، هامة الفخار ، وسمة الاعتبار بين اللدات والأقران . فلن يقعد بالرجل فقره ، بل جهده ، ولن يسمو به جاهه ، أو ماله ، وإنما تسمو به مواهبه وكفايته وفعاله .

(١) أى المال الكثير (٢) إشارة الى كثرة المال وتنوعه
(٣) يقال لمن أصاب مالا وافراً لم يصبه سواه : أصاب فلان قرن الكلأ
(٤) الهىء : الدعاء الى الطعام . والجىء : الدعاء الى الشراب (٥) الجثمة : النؤوم الذى لا يسافر
(٦) (Abé)

(٤)

ولننتقل الآن أبناءنا الأعزاء الى مسألة أخرى جديرة بإكبابكم ودرسكم، حَرِيّة بانتباهكم وتوثُّب هممكم، قَمينة بإقبالكم، وإنعامكم ألا وهى أثر المرأة الفاضلة فى تكوين الرجل الفاضل، وللمرأة الكاملة الأثر الأوّل فى تكوين النزعة الخلقية الأولى. لما لها من اليد الطُّولَى فى إمداد الوطن بجُنْدِ الوطن الأصحاء، وكماة الوطن الأقوياء، ومحررى الوطن الأوفياء.

فقد ماتت أمّ « ابراهام لنكولن » وهو لم يعدُ التاسعة من عمره. ماتت ولا طبيبٌ يعالجها ولا قسيسٌ يواسيها. ماتت فعمل لنكولن مع والده على تجهيز كفنها، وإعداد الوسائل اللازمة لدفنها.

تلك صدمةٌ عنيفةٌ لا يقوى على تحملها قلبُ صبيّ ناشىء مثل « لنكولن ». ولتلك الصدمة بلا ريب آثارها الحسنة الى جانب أثرها المادى السيء. فليس من شكٍّ أن لنكولن سيتذوّق من بعدها معنى الاحتمال والجلد والصبر على المكاره. وليس من شكٍ أنها ستبذر فى قلبه الكليم وفؤاده الكسير معانى الرحمة والحنان، والبرّ والاحسان. ومع هذا فإنّ القدر العادل لم يحرم لنكولن من عطف الأم، وإن كان قد حرمه من شخصها. ذلك أنه قد حدب عليه قلب زوج أبيه الجديدة التى أُتيح لها أن تعيش فيما بعد فترى بعينيها آبه[١] الذى علّمته صغيراً وعطفت عليه يافعاً — تراه وهو الرئيس الأعلى للجمهورية الأمريكية فى المرتين السادسة عشر والسابعة عشر [illegible]اه رئيساً عادلاً، يُشَرِّفُهُ على الدّوام أن يدعوَ أمته الى المساواةِ السياسيةِ العادلة، لأنَّه يرى فى المساواة بقاء الأمم وسعادة الأفراد. تراه فى مركز الحاكم بأمره، مَنْ تَعْنو له الوجوه وتخضع له الرقاب، فلا يحكم إلا حقاً وعدلاً، ولا يسيرُ بين الرعية تِيهاً وعجْبا، بل كان رمزَ الأدب اليانع،

(١) لابراهام لنكولن لقب « Abe » أثناء صغره كما أسلفنا

والخلق المتواضع . تراه بين ظهرانى جُنْدِه فى حَوْمة الوغى مواسياً ومشجِّعاً بلا ازورار جناب ، أو رصد أبواب ، وكثرة حجاب . . كما يفعل غيره من عتاة الولاة الذين يظنون أنهم مخلوقون من طينةٍ غير طينة رعيتهم ، بل كان لهم نعم الرفيق والزميل ، ونعم المعين والظَّهير ، ونعم الراعى المسئول عن رعيته .

أى شبابنا الناهضين :

إن فى حبّ « لنكولن » لزوج أبيه معنىً سامياً فلا يعزبن عن أذهانكم ، وجديرٌ بكم أن تنعموا النظر فيه طويلاً . لقد ماتت والدته وأراد القدر أن يبنىَ والده من حليلة أخرى لتعمِّر بيته ، وترفِّه عنه متاعب الحياة ، ولتضىء بنورها جوَّه القاتم ووكره الحالك ، فلماذا يمقتها ويعمل على إيذائها ؟

إنها زوج أبيه فهى صنو والدته وبديلتها فلما لا يشب على حبها والتعلق بها إما إرضاء لعاطفة والده ، أو احتراماً لمركز الأمومة المضحية التى هى رمزٌ لها على الدوام.

ثم ما ذنب المرأة فى ذلك الصنيع وهى أجدر على الدوام بالعطف والتقدير . فاذكروا معشر الشباب والشابات مركز لنكولن من زوج أبيه ومكانها منه . وانظروا نظرة رثاءٍ لمن ينهج غير منهجها ونظرة مَقْت وكُرْه لتلك الحوادث الإجرامية التى تقع الفينة بعد الفينة فى مثل ذلك الموقف الذى هو أخلق بالحنان والرعاية ، وأولى بالبر والعناية .

فعليكم بالتسامح والوفاء ، وعمروا قلوبكم بالإخلاص والولاء ، وكونوا لآبائكم وزوجاتهم أبرّ الأبناء .

(٥)

فى قرية « كنتكى »[١] النائية والتى تقع على الحدود الغربية للولايات المتحدة عاشت أُسرة لنكولن عيشة فقر وفاقة . فقد كان والده كما أسلفنا مزارعا نجاراً ، عديم

(١) كنتكى Kentucky

الحيلة والتدبير، يعيش وآله فى فقر مدقع، وخَصَاصةٍ لا يحتملها إلا أصحاب القلوب الكبيرة. وكان الكوخ الذى يسكنونه بلا نوافذ ولا زجاج، ويمكن أن يقال فى غير مبالغة ولا إغراق: إنَّ أُسرة لنكولن قد افترشت الغبراء، والتحفت السماء. وأما لباس لنكولن فلم يعدُ عن بنطلونٍ قصير، وقميص بسيط، بلا سترة، ولا صدار. وأما عيشته فخشنة الملابس، تافهة المآكل، شظفة المأوى.

ولقد باعت الأُسرة هذا الكوخ ثمناً لهجرتها الى «الانديانا»، وباعوا مزرعتهم بعشرة براميل من الوسكى وأربعة جنيهات. ومن هنا تتصورون مبلغ رأس مالهم، ومبلغ حضارة القرية التى أنبتتهم.

وانظروا — رعاكم الله — إرادة القدر فى تنشئة بطلنا فى حزامتها وشدّتها، وصرامتها وأَيدها.

لقد غرق الوسكى، وغرقت براميله، وابتلع النهر رأسَ المال. فسارت الأُسرة قدُماً لا تلوى على شيء تنهب بأقدامها الدامية الحراج والغابات. وكثيراً ما استعمل لنكولن وآل لنكولن بلطاتهم ومعاولهم فى تمهيد الطرق التى مرّوا فيها لأنها كانت فى حالتها الوحشية الأولى.

فتصوّروا مبلغ ما عانوا فى سفرتهم تلك من عنتٍ ممضٍّ، وتعب مقضّ. فلقد كانت الأرض حين ذاك بمثابة تلاع وقلاع تكسوها الأشجار الغلاظ التى ليس الى اقتلاعها من سبيل، ولم يكن لها من ثمنٍ يذكر الهم إلاَّ فى الجيد منها والممهد المعبَّد فقد كان لا يعدو ثمنه بضعة شلنات.

تلك هى الصفحة الأولى من حياة هذا الرحّالة الصغير الذى عاش من عرق جبينه، ومن وراء معول بلطته، وببذله قُصارى الجهد فى الاحتطاب والفلاحة.

فلتذكروا جيداً أن «لنكولن» زعيم دولة الأمريكان، ومعبودهم الى هذا

الزمان، كان حطاباً فى بدايته . فلا تندى وجوهكم من الفقر بل جمّلوه بالعمل . إن العملَ كان جنة وكان نصراً وكان نعيما .

(٦)

والآن قد تفتّحت عينا القدر العادل، لذلك الحطاب العامل، فعمل على حسن جزائه، لجليل بلائه، وإنَّ أثقل الرِّشاء أملؤها، وأبطأ السحائب أحفلها، فأناله غفةً[1] من العيش بعد شَظَفِه، وبلغةً من الرزق إثر حففه[2]، ورفعه الى موزِّع بريد، ثم دفع به الى أن أصبح قائد مركب شراعىّ، وبَدَّله الى جزَّار، ونهض به الى وسيط خيول، ثم ارتقى به الى مساعد أمين مخزن

ولزامٌ فى أعناقنا فى هـذا المقام أن نثبت لكم فلذات أكبادنا أن صاحبكم « لنكولن » قد بلغ الآن من السن الحادية والعشرين ربيعاً، ولم يكن يعرف بعد شيئاً من قواعد القراءة والكتابة فضرب لنا خير مثلٍ بما وصل اليه أخيراً من علمٍ وعرفان، ومُلْك وصَوْلجان، بأن السنّ مهما تقدّمت لن تقعد إلاّ بالكسالى المقعدين، الذين لا تنهض بهم عزمةٌ ولا إرادة .

إنّ جلّ الزعماء والعصاميين كوّنوا أنفسهم بأنفسهم، وكملوا بجهودهم مواطن النقص فيهم، وحَسَروا عن ساقهم وإن تقدّمت بهم أعمارُهم، وسَعَوْا فى مناكبها سَعْيَ المجاهدين، ونَهَلوا من علومها ومعارفها . وصبروا وصابروا، وجدُّوا وثابروا، ورغبوا وعملوا، وأرادوا ونفذوا، وكانوا فى النهاية من المبرِّزين، وتلك عُقبى العاملين، ولن يغيِّر الله ما بقوم حتى يغيِّروا ما بأنفسهم . فعليكم أنفسكم إن كنتم فى النُّجْح طامعين، وفى التقدُّم راغبين .

(١) الغفة من العيش والبلغة من الرزق كلاهما بمعنى ما يتبلغ به
(٢) الشظف والحفف والضفف والقشف الخ بمعنى شدة العيش .

أى شبابنا الناهضين :

لقد كان أجر « لنكولن » فى عمله الأوَّل هو ومركبه ستة شلنات فى الأسبوع، ولم يكن للراتب من شأن فى انتقاله الى عمل آخر، وإنما يحدِّثنا مؤرخو حياته أن لنكولن ما انتقل من المراكب وقيادتها، إلاَّ لأن الكتب التى عند مخدومه الأوَّل قد أتى عليها لنكولن، فاستوعب قراءتها، وأتمَّ دراستها . وكان الى غيرها راغباً وطموحاً، فاستبدل بصاحبها غيره عساه يصيب من وراء خدمته كتباً وأسفاراً، ويزداد قراءة واطلاعاً، ولا غرو فان صاحبكم كان طُلَعَةً[1] منذ بدايته، كما كان عاملاً أميناً منذ نشأته .

(٧)

لقد أسلفت أن صاحبنا اشتغل أخيراً مساعداً فى مخزن « بنيو سالم » وقد كان له بعض لحظات من أوقات الفراغ . أتعرفون فيم صرفها ؟

كان يقطع مسافة ميل أو أكثر لاقتراض كتاب فى نحو اللغة، لأنه وقد علَّم نفسه بنفسه قد أحسّ من ناحيته ضَعفًا فى اللغة ومتنها، فلم يخدع نفسه فى سدّ نقصها، وتقوية ضعفها، ذلك لأن العظيم غير خدّاع لنفسه، غير خدّاع لرفاقه، غير خدّاع لأمته ·

هو لا يخدع نفسه باغتفار معايبه، ولا يخدع أقرانه فى ملابستهم فى دهان ورياء، ولا يخدع أمته فى عدم خدمتها خدمة الأمناء الشرفاء . . . . . . وكذلك كان لنكولن .

(٨)

لقد اشتغل شبه تاجر مع شريك له، وأدمن الشريك احتساء الخمر، والعبث

(١) تقول العرب : رجل طلعة، ولعل هذا اللفظ هو ما يقصد به مؤرخو حياة لنكولن من قولهم :
Electric dynamo: earnestness.

بالأصول ، حتى مات وقد ترك دَيناً . فماذا كان من لنكولن ؟ لقد قرّ قراره — وشدّ ما يحترم لنكولن ما يقرر — « لأدفعنّ عن شريكى دينه ، ولأحتملنّ بعد مماته غُرْمه ، ولأضطلعنّ بوزره وعبئه ، ولأكوننّ لذكراه من الصادقين ، ولحقّ زمالته من المؤدّين » .

وهكذا استمرّ لنكولن خمسة عشر عاماً يسدِّد ديون الشريك وأىّ شريك سِكّير معربد ، ولكنه شريك وكفى ! !

لتكبروا إذن صفة الأمانة فى هذا العصامىّ الكبير منذ أيام العسر والإضافة ، ومرحلة العُدْم والفاقة . واذكروا أنه استمر أميناً مع أمته ، كما كان أميناً مع رفقته . ولتعلموا غير معلَّمين أنه أخلص للأموات إخلاصه للأحياء . وسار بالمعدلة مع الضعفاء سيرته فى اقتصاص الحقّ مع الأقوياء . وهكذا تنبت العظمة الخالدة من مَعِين النبل والطهر والعفاف ، وهكذا تطبع منذ نعومة الأظفار على حبّ الأمانة والعدل والإنصاف

(٩)

أتعلمون ماذا كان ينويه لنكولن لنفسه من مهنةٍ له فى مستقبل حياته ؟

إنه كان ينزع — الى جانب قراءاته وثقافاته — الى أن يكسب قوت نفسه وقوت أُسرته من وراء ما يصيبه من عَرَق الجبين ، لقد كاد يكون حداداً لولا تدخل صديق وفىّ أشار عليه بدرس الحقوق ، فكان المحامى العدل ، نصيرَ الضعفاء ، وخادمَ العدالة كما أصبح فيما بعد الرئيسَ العدلَ ، محرّر الأرقاء ، وخادمَ الانسانية ويذكر لنا مؤرخو حياته : الأميال الطويلة التى كانت تقطعها قدماه ليقترض كتاباً ، وليستعير سِفْراً ، ليدرس فيه الحقوق ، ولقد واصل مغداته براحته . وإصباحه بإمسائه ، فى حماس ونفاس ، وصلابة واُضطلاع ، وفى جَلَدٍ ومثابرة ، وتصميم

ومواصلة ، ودرس ومذاكرة . حتى أستبدل حياته فى أربع سنوات بالمحامى المذكور بعد أن كان حداداً مأجوراً .

فلتذكروا إذن ماوراء الدرس ، وما وراء الإرادة ، وما وراء سهر الليالى ، لتذكروا أن لنكولن كان الى ٢١ من عمره فى حكم لا شىء ، وأنه فى ٢٥ من عمره أصبح محامياً ونائباً عن سبرنجفيلد . ولتكبروا جهد العظيم فى فقره ومحنته وشظفه وتباريحه .

يلذّ لى فى هـذا المقام أن أذكر نصّ الخطبة الانتخابية الأولى التى خطبها « لنكولن » المنتخبين لأنها فى صراحتها وعدم تزويقها ، وخلوّها من الوعود البراقة ، والأمانى الكبار جديرة بأن تنظر اليها الأمم الدستورية فى أيام انتخاباتها نظرةَ تدبّرٍ وتقدير ، ولتعاموا — رعاكم الله — أن الرجل بعمله لا بوعوده ، وأن المكثار مهذار أبد الآبدين .

يقول لنكولن ما نصه :

« مواطنى(١) :

أزعم أنكم تعرفون من أنا ، أنا ابراهام لنكولن ببساطة ، وسياستى قصيرة عذبة كرقصة المرأة العجوز ، فاذا ما انتخبت فشكور ، واذا لم أنتخب فسواسية لدىَّ »

ولعلّه شبّه سياسته فى قِصَرها وعذوبتها برقصة العجوز لأنها لا تطيل ، ولا تمايل ، ولا تتثنّى ، ولا تهادى ، فليس لها تعانق الراقصات ، ولا حركات الغادات الحسان . فهو فى تشبيهه هذا مثله فى كل شىء صريح وبسيط وأمين

(١) أصلها الانجليزى هكذا :
Fellow citizens, I presume you know who I am. I am plain Ab. Linc. My politics are short and sweet, like the old woman's dance. If elected, I shall be thankfull, if not, it will be all the same.

(١٠)

لننتقل الآن مع لنكولن المحامى الذى وصل الى سبرنجفيلد خالى الوفاض ليس فى جرابه فضلة مال تمكنه من شراء سرير ينام عليه .

فقد ذكر لنا مؤرخو حياته : أنه ذهب الى يوسنا سبيد[1] وهو صاحب حانوت تجارىّ بسيط ، وأن الرجل تقدّم اليـه فأشركه معه فى النوم على سريره بعد أن ألفاه لا يملك سبعة عشر ريالاً المطلوبة لشراء حاجياته الضرورية .

ولقد مكَّن القدر لنكولن فيما بعدُ أن يحسن الى هذا المحسن عند ما أصبح رئيساً للجمهورية . فماذا فعل ؟

عيّن شقيقه وزيراً ولم يعينه هو، لأن لنكولن كرجل شريفٍ ، أمين ، وكسياسىّ صريح رأى أن أخاه أهلٌ لمناصب الدولة دون صاحب الفضل عليه ، فعيّنه إرضاء لضميره ، ولم يكن لحقوق الوطن وكرامة المناصب من المفرّطين .

(١١)

المحاماة شيء شريف عند الرجل الشريف ، هى سلاح مرهف الغرار للقضاء على ظلم الظالمين ، ولاُجتثاث عُدْوان المعتدين ، هى نعم الظهير والمعين لدفع جائحة ، وتدعيم حقٍّ إن كان صاحبها الشريف الأمين ، وهكذا كان لنكولن .

لقد ترافع مرة فى قضية ، وكان متدفّق البيان ، قوىّ الحجة ، أخّاذاً مهيباً — ولنكولن كان خطيباً بالسليقة — وطالما اُستلب نُهىَ سامعيه منذ كان قصّاصاً يروى لهم الحكايات فى طلاوة وحلاوة .

تبيَّن أثناء دفاعه ، وأوار حماسه ، وشقشقة بيانه ، أنه إنما يدافع عن مجرم مُدان ، فتفجَّر مرْجلُ ضميره ، واُهتاجت أعصاب غضبه ، فألقى بأوراق القضية فى ردهةً المحكمة . ثم عاد أدراجه الى بيته ومأواه . ومن ثمَّة كتب الى رئيس الجلسة

(١) Joshna Speed.

كتاباً يعتذر له فيه عمّا كان منه ويقول : « لقد كانت يداى ملوّثتين ، فعدت أدراجى الى كسر بيتى لأطهرهما من أدرانهما »

أى ضمير هذا الضمير الحىّ فى هذا الرجل الحىّ العظيم ، لقد كان ولا يزال منذ لحظة فى حاجة ماسّة الى ثمن فراش يحتويه ، وسرير يقتنيه ، وأثاث يشتريه ، وها قد درّت عليه صناعته أخلاف الرزق فيهرب من الرزق الذى واتاه لأنه يرى شبح اشتراكه فى اغتصاب حقٍّ ، واُقتراف مأثمة .

انظروا — وفقنا الله واياكم — الى جَوْر ندفنه ، وعدل ننشره ، ومحمدة نُوليها ، ومأثرة خير نسديها . انظروا الى موقف آخر لهذا الرجل الشريف .

حضر اليه أحد أصحاب القضايا ليرفع قضية على آخر يطالبه فيها ب ٦٠٠ ريال فبعد أن درس أوراقه ، وأنعم النظر فيها ، ووازن بين حقها وباطلها قال له :

« فى مقدورى أن أربح لك قضيتك . وفى مُكنتى أن أحصُل لك على ٦٠٠ ريال ، وفى وسعى أن أجعل أُسرة هانئة نبيلة تتذوّق بؤس الفاقة ، ولكننى لن آخذ قضيتك ، ولن تتسلَّم يُمناىَ أجرك ونقودك ، وإنني أتقدّم إليك بنصيحةٍ أسديها اليك بلا أجر ولا ثمن ، نصيحتى اليك أن تذهب من فورك الى مأواك ، ولتتدبَّر فى اُنتهاج سبيل آخر يكون شريفاً ونزيهاً عساك تصيب من ورائه ال ٦٠٠ ريال التى ترجوها »

بهذه النصائح الذهبية، بل الأكثر من ذهبية ، لأنها صدرت من روح قدسية، ولم تقدّ من منجم قاتم ، ولا من صلب حجر فاحم ، بل من نورٍ وهُدًى ، وورع وتُقًى، وعقلٍ وحِجًى — بهذه النصائح الذهبية كان يرشد زبائنه ، وفى هَدْيها كان يحاجّ خصومه . فى سبيل الحق ، ورفعة دعائمه عَاش لنكولن شريفاً . وفى سبيل الحق ، ورفعة دعائمه مات شريفاً

(١٢)

ولستُ أشكّ فى أنَّه يحلو لـكم كثيراً أن تستزيدوا من قراءة تلك الصحف العَبِقة الزكيّة لهذا المحامى النزيه ، الذى وقف وقته لخدمة العدالة فى إيمـان المحبّ للعدالة ، ووقف حياته للعمل فى إنصاف الناس بيقين الحريص على نَصَفة الناس .

لقد بدأ حياته فى المحاماة شريكا للمحامى النابه « لوجان »[١] من أقطاب المحاماة فى « سبرنجفيلد » ، فاستفاد من شهرته ونفوذه ، بقدر ما استفاد من مرانه وعلمه ، كما اُستفاد من نموّ « سبرنجفيلد » واُطراد تقدّمها ، بقدر ما اُستفاد من شهرته السياسيّة ، وذيوع اُسمه بين الأهلين — كل ذلك مكّنه من إصابة رذاذٍ من المال كان له بعض العَوْن فى بنائه من زوجته « مارى »

وقد تسألونى عن سبب فرط عقد الشركة بينه و بين الأستاذ لوجان[٢]، فأقول: إن فى العبقرىّ « لنكولن» صفات شاذّة . فهو وإن كان الخطيب المِصْقع ، والمحامى المِدْره ، والمتكلم القدير ، الذى شدَّ ما يحتاج اليه « لوجان » بَيْدَ أنَّه لا ينزع الى الترتيب ، ولا ينزل على أحكام النظـام ، فِمَطْره مهوّش ، وأوراقه مبعثرة ، ومذكراته هنا وهناك، وخطاباته إما فى طىّ قبعته، أو ملقاة فى مكان آخر « ولوجان» يطلب النظام ويعشقه ، وفى العباقرة نفورٌ لما يحد عبقريتهم ويقلم شخصيتهم .

وليس معنى هذا ألاّ تخلدوا الى النظام والترتيب ، بل عليكم بالاستمساك بهما اقتصاداً لأوقاتـكم ، وانتفاعاً بسواع فراغكم ، وانما قد أثبتنا لـكم خلّة من خلال عصاميّكم وهى هنة بلا ريب عوّضها عليه رأس مرتب ، وعقل ذكور ، وذهن منظم ، حتى قال مؤرخو حياته ما نصه : « لم يكن للنكولن من نظام أو ترتيب ، ولم يكن يحتفظ بكاتب أو مكتبة أو فهرس أو دفتر قيد للدخل . وكان من عادته

(١) "Logan" انظر ص ٩٨ من كتاب لنكولن لأميل لدوج طبعة مارس سنة ١٩٣٠

اذا ما كتب مذكرات أن يلقى بها إمَّا فى القمطر أو فى جيب صداره أو فى قبعته . ولكنه كان فى أعماقه الرجل المرتب المنظم ، وإن كان لا يحتاج الى مكتب مرتب ولا الى مدادٍ أو يراعٍ . ذلك لأن حانوت عمله بداخل رأسه(١) »

ومن الممتع الطريف أن تقفوا على ردّه على زميل له فى المحاماة وكان قد عتب عليه عدم رده على كتاب له قال : « كنت منهمكاً جداً فى عملى بمحكمة الولايات المتحدة أولاً ، وثانياً وضعت خطابكم فى قبعتى القديمة ، وكنت قد اشتريت قبعة جديدة فى اليوم الثانى فألقيت بالقديمة جانباً . . . . . فغاب خطابكم عن ناظرى برهة من الزمن »

وكان له ظرف يحوى العجب العجاب كالقبعة ، ومن عادته إذا سئل عن ورقة أو غيرها أن يقول : « ابحثوا عنها هنا وهناك . . . . فإذا لم تعثروا عليها فعليكم بالبحث بداخل هذا . . . . ! »

تلك خلة إن كانت تغتفر للرجل العبقرىّ مثل « لنكولن » الذى له من ذهنه الوقاد وقريحته المفاجئة وعقله الجبّار الغنية والظهير ، فإنها لا تغتفر من أمثالنا العاديين الذين يجب أن يستفيدوا من أحسن الخلال وأسماها ، وليس من ريب أن لكل زعيم هنة أو هنات تغطيها مواهبه وحسناته ، وتمحوها فواضله وكفاياته ، فعلينا أن نترسمه فيما أحسن وأجاد ، وعلينا أن ننتخب من الصفات الحميدة للزعماء جميعاً مجموعة صالحة لتكون مهمتنا فى الحياة صالحة مجيدة .

وما دمنا فى صدد سيرة لنكولن المحامى ، فلزام فى عنقنا أن نذكر طرفا من تاريخ شركته مع «هرندون(٢)» فقد كانت الثقة المتبادلة ديدنهما ، والولاء وحُسْن الأخاء ملازمهما ، وكانا خير نموذج للشركة الصالحة . الشركة المنتجة . الشركة التى

(١) "Herndon" انظر ص ٩٨ — ١٠٠ من كتاب لنكولن تأليف أميل لدوج
(٢) انظر كتاب لنكولن لأميل لدوج طبعة مارس سنة ١٩٣٠ ص ١٠٠

تعمر وتعيش . الشركة التى يهنأ أصحابها من أفاويقها الثرَّة المدرار .

كذلك من واجبنا أن نذكر ما كان من ديمقراطية « لنكولن » مع الأهالى والمزارعين حتى لا نبالغ إذا قلنا أنهم يعتبرونه مثلهم وجزءًا منهم أكثر من كونه محامياً له وقته ومكتبه وعمله . فقد كانوا يلجأون اليه فى فضّ النزاع بينهم وحدّ الحدود بين مزارعهم ، وكانوا من فرط ثقتهم به أن من يقوم منهم لديه بعملية رهن عقارىّ لا يطلب اليه إيصالاً ولا صكا . . . .

أجل ! لقد كانوا يعتبرونه مثلهم وجزءًا منهم، فلا كلفة ولا احتشام، وكان هو الآخر يتحدَّث اليهم بالممتع من الأقاصيص والحكايات ، وما كان ليملّ من إعادة القصة الواحدة مثنى وثلاث فى اليوم على زائريه العديدين .

وربما جاز لنا أن نعتبره السياسىّ المفطور، أكثر من كونه المحامى المأجور، وإن كان ذا قَدْرٍ فى المحاماة نابهٍ مذكور.

تلك صحف قيِّمة ، يجدُر بنا أن نستفيد منها صفات قيمة ، من أمانةٍ وإخلاصٍ ، وودٍّ وإخاء ، وديمقراطية وتواضع . كما يجدر أن نتبين منها فضيلة العيش وسط الأهلين كفردٍ مساوٍ لهم بلا أزورار ولا أُستكبار .

(١٣)

أى شبابنا الناهضين :

عليكم بالصدق والجرأة بالحق ، والاستمساك بما يرضى الخلق ويريح الضمير، ولا تفرِّطوا فى صفات الرجولة قِيد أنملة ، ولا تنزلوا عن قويم المبادىء بوعدٍ أو وعيد ، واُحتملوا ما ينالكم به خصومكم وخصوم الأخلاق من أذًى بسبب تصلبكم فيما هو حقّ . وكونوا شجعاناً فى الجهر بآرائكم، كُمَاة فى الذود عن معتقداتكم ، جُرَآء فى الذود عن كرامتكم وناموسكم ، وثقوا أن العقبىٰ للصابرين ، وأن النصر للثابتين على أخلاقهم ومبادئهم الى يوم الدين .

والآن فقد بلغ لنكولن الخمسين من عمره حينما أُختير فى الجمعيّة التشريعية لولاية (الينوا) بعد أن خذلته صراحتُه وسذاجتُه وأمانتُه فى المرة الأولى منذ سنين، ولكنه لم يغيِّر من صراحته ولاسذاجته ولا أمانته قِيد أنملة حينما تقدَّم اليهم فى المرة الثانية. فلا خُلَّبَ وعود، ولا بارقاتِ أماني. ولا تزحزح عن مبادئه القويمة. فكانت النصرة للجوهر واللبّ، للأخلاق والمبادىء، لا للكلام، ولا سياسة الكلام.

ولستُ أخفى عليكم أن كثيراً من دهاة السياسة وأصلالها[1] قد يرون فى لنكولن جموداً وصلابة، وإن كان مصدرهما المبادىء القويمة، والأخلاق القوية التى لا تعرف للدهان معنى، ولا للرِّياء استساغة. وبعبارة أخرى أن واجب السياسىّ أن يكون ليِّن القناة، لَدْن العود، مواتياً للظرف والحال. ولكنِّى أحبّ لكم ولنفسى أن ترفعوا الأوضاع السياسية الى منصة الأخلاق العالية، وأن تسهموا مع العاملين فى تطهير النفوس من أدرانها، والقلوب من أغلالها، والأمم من مفسديها، والشعوب من منافقيها.

ولست أشكّ أن النُّجْح الوقتى السريع إنما هو لتلك السياسة الزائفة، وأن لكل ما هو زائف مزوّر بالطلاء الخُلَّب، والغشاء الخاطف لمعاناً خدّاعاً، بَيْدَ أنّ النجح السرمدىّ إنما هو للجوهر الصافى، والمَعِين الرائق، والحق الصراح. فأمّا الزَّبَدُ فيذهب جُفَاء، وأمّا ما ينفع الناسَ فيمكث فى الأرض.

قد ينجح السياسىّ الكذوب، وقد ينبه اسمُ النائب الكثير الوعود، وقد تلتفّ حول هـذا شيعة وأنصار، وتؤيِّد ذلك فئة غير قليلة، ولكن انكشاف حقيقتيهما قاب قوسين، وانصراف الناس عنهما لا مندوحة عنه.

ومَهْمَا تَكُنْ عِنْدَ أمرىءٍ من خَلِيقَةٍ وإنْ خَالَها تَخْفَى على الناسِ تُعْلَمَ

(١) تقول العرب دهىّ، وداه، وداهية، وصلّ أصلال، وإد آداد بمعى

انظروا ، يارعاكم الله ، الى لنكولن النائب وقد أغضب أحد مرشحيه المستر استيفنس[1] من جورجيا إذْ رفض أن يجيبه إلى سؤله من إعطائه خطاب توصية ليلتحق فى عملٍ مصلحىّ وكتب اليه معتذراً . وانظروا اليه وهو مستمسك أدقّ استمساك بدستوره الشخصىّ ، وهو أن وظائف الدولة يجب أن تكون بمنجاة عن الأهواء الحزبية ، والخلافات السياسية ، وأنها يجب أن تُملأ بالأكْفَاء من رجالات الدولة، بغضّ الطرف عن كونهم من شيعة حزبه أو من غيرهم، لأن الدولة للجميع فيجب أن يسهم فى خدمة شئونها الحكومية أفذاذ الرجال من الأحزاب جميعاً .

أى شبابنا الناهضين :

لزام فى أعناقكم ، إذا ما أتيح لكم أن تنوبوا عن أمتكم فى برلمانها ، أن تكونوا لها دون سواها ، وألا يملأ سمعكم وبصركم وقلبكم إلاّ الولاء لها ، والحرص على منفعتها ، والسهر على مصلحتها . ولتكونوا أباً للجميع ، وعَوْناً للجميع ، وليكن الصدقُ دثاركم ، والعدلُ شعارَكم ، والإنصافُ لحمتكم ، والحق سَدَاكم ، والاستقلال ديدنكم

أى شبابنا الناهضين :

الدولة برجالاتها ، وسلطان الدولة على كواهل أكفائها ، ومستقبل الدولة رهن أعمال نبغائها ، فاعملوا على أن تكونوا أنتم مصدر نعيمها ، وسبب تقدّمها . ثم اعملوا على أن تفسحوا المجال الوسيع المدى لمواطنيكم الأكفاء . وإيّاكم وقتل الكفايات ، وقبر المواهب الفذَّة ، التى لن يقتلها شىء إلا ذيوع « المحسوبية » وانتشار كوليرا « الوصايات » فاياكم واستخدامها ، أو الاعتماد على شىء سوى جهودهم وأعمالكم وآثاركم .

(١) Mr. Stephens of Georgia. أنظر ص ١١٧ تاريخ لنكولن بقلم لدوج

(١٤)

أى شبابنا الناهضين :

أتعرفون بماذا كان يعيش صاحبكم فى مرحلته تلك ؟

إنه محام ، ومحام راسخ القدم ، وَسِيعُ الأُطلاع ، نابهُ الذكر ، ناضجُ الفكر ، فى شدّة مِرَاس ، وقوّة حجة ، بَيْدَ أنه من النوع الشريف الذى نبأتكم عنه . وليس من ريب أن النجاح كلّ النجاح فى نهاية تطوافه للمرء الشريف الطوّية ، النزيه الطعمة ، القويم السيرة . وثقوا — أبناءنا الأعزاء — أن النوع الخلقىَّ من كل صِنْف ينجح لا محالة ، وإن كان نجاحه فى بطء السلحفاة التى تصل الى غايتها ، لا فى رعونة الأرنب الذى لن يصل فى انتقالاته وجيئاته إلاّ الى نزواته وقفزاته ، ونزغاته وشهواته ، ولذاذاته وسقطاته !

إنه محام ومحام قدير ، ولكنه بسبب أمانته ونزاهته قد اُضطر إلى أن يعيش عيشة البساطة والكفاف حتى أنه وامرأته عاشا فى نُزل نظير دفع ١٦ شلناً كلّ أسبوع ، أى حوالى ثمانين قرشاً . ثم اشتغل مسّاحاً شريفاً ، فأتقن عمله أيما إتقان فى بضعة أسابيع .

وقد يحلو للمبادئ الشريفة أن تعترف أن لنكولن عضو الجمعية التشريعية قد اضطر الى اقتراض مبلغ بسيط من المال لشراء كساءٍ يليق بوكالته عن الأمة . كما يحلو لها أن تذكر أن السرّ فى تسمية لنكولن[١] « بآبه الأمين » رَفْضُهُ فى عفّةٍ وإباءٍ الدفاعَ عن أيّة قضيةٍ يكون موكله فيها على باطل أو مأثمة ، فمضى أيامه الأولى فى المحاماة فى فقر مدقع ، ولكنّه عاش العيوف الأبىّ ، والشريف الرضى .

(١) "Honest abe"

أي شبابنا الناهضين :

ألا إنَّ حياة الفقر الشريف مع الإباء والنزاهة ، ومع قوة الحقّ ، ومتانة المبدأ ، لهى النعيم كل النعيم ، والمستقبلُ السعيدُ الرغيدُ لكم ولذريتكم ، فلا تفتننّكم عن أخلاقكم البوارق الفاتناتُ ، ولا تزعزعنّكم عن سواء السبيل أعاصيرُ الشهوات ؛ ولا تسلبنّكم عقولكم وسُمعتكم ونزاهتكم خُلَّبُ الوعود الطائشة ، فالمال الى فناء ، والجاه الى فناء ، وسطوة المنصب الى فناء ، ولا بقاء إلا للأُحدوثة الحسنة التى هى الذكرى الثانية للانسان ، فإمّا حياة وإمّا موت .

(١٥)

وقد آن لنا أن ننتقل الى لنكولن رئيس الجمهورية السادس عشر والسابع عشر ، وأن نُلم إلمامة عَجلى فى حياته الحافلة بجلائل الأعمال ، وعظائم الأمور ، ومفاخر الأيادى

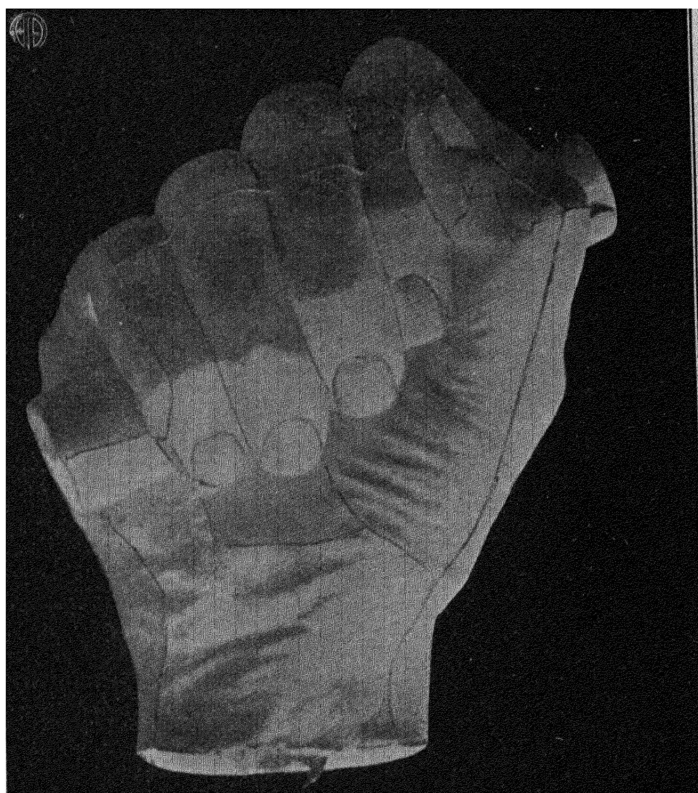
على أنه من الحتم علينا ، كبعض إيفاءٍ للموضوع ، أن نوضِّح مسألة الرقّ ، واُستفحال أمرها منذ أيام العظيم وشنطجن . ولتعلموا ، غير معلَّمين ، أن الدستور الأمريكى فيه هذا النص[1] :

« نثبت هذه الحقائق لتكون جلية بنفسها ، وتبين أن جميع الناس قد خُلِقوا متساوين ، وقد منحهم بارئهم بضعةَ حقوقٍ ليس الى تحوُّلها عنهم من سبيل . ومن بين تلك الحقوق : الحياة ، والحرية ، وإنهاج وسائل السعادة . »

بيد أن تلك المادة كانت حبراً على ورق ، خصوصاً الولايات المتحدة ، فقد رأت من خطة لنكولن ما أفزعها وأخافها ، وجعلها تسعى سعياً حثيثاً لإعلان اُنفصالها . بل انفصلت فعلاً .

---

(1) We hold these truths to be Selfevident. That all men are created equal. That they are endowed by their Creator with certain unalienable rights that among these life, liberty and the pursuit of happiness.



قبضة ابراهام لنكولن

(١٦)

والآن فقد أصبح لنكولن رئيساً للجمهورية ، وكان من منافسيه بل أشدّ منافسيه وليم سيوارد[١] الذى كان رئيساً للوزارة ، وكان قد تقدّم أثناء الحملة الانتخابية بخطاب عدائىّ خطّته أنامله ، وبعث به الى مزاحمه لنكولن .

فاز لنكولن برئاسة الحكومة فلم يُطلع أحداً على خطاب وليم سيوارد ، بل أُستمرّ يعمل معه ، لأن المصلحة القومية كانت عند لنكولن رفيعة الذرى ، بعيدة المنال ، بنجوة عن كل نزوة ، أو شهوة ، أو عبث .

وقد اندلعت نيران الحروب الأهلية بين الجنوب والشمال ، بعد أن بذل لنكولن قصارى جهده ألا تكون ، مع رسوخ ايمانه بضرورة الائتلاف لمصلحة الوطن ، وضرورة تحرير الرق لمصلحة الانسان .

ففى قلعة فورت سمتر[٢] على حدود الولايات الجنوبية — حيث كان « الماجور اندرسون » قائداً من قبل الحكومة الشرعية على تلك القلعة — أطاق الجنوبيون نيرانهم فى ١٢ ابريل سنة ١٨٦١ .

وبعد يومين فقط سلَّم اندرسون . . . . . ولكن دأب لنكولن . ونبالة الغاية التى يدافع عنها ، نجم عنه أن عاد عَلَمُ البلاد يرفرف عالياً فوق تلك القلعة ، بعد أن أذعن الجنوبيون لمطالب لنكولن العادلة : من حيث الائتلاف . ومن حيث تحرير الرقّ .

جميل أن نقرأ ، وجميل جداً أن نقرأ عن الولاة العادلين ، وأجمل من ذلك أن نُشرب قلوبنا حبَّ العدل فنعمل على نُصْرته ، ونسارع الى تدعيم صروح دولته ، ونقتدىَ صغيرُنا وكبيرُنا فيما قلَّ وجلَّ ، بما رسمه لنا أئمة العدل ، وأركان النصفة . وعدول الحكام .

---

(١) William Seward (٢) Fort Sumter

وجميل جداً أن نثبت هنا مثلاً مما كان يجرى عليه لنكولن العادل مع خصومه وخصوم حزبه فى أيام سلطانه وإبَّان حكمه . فقد أراد القائد العام فى « مسورى » نفىَ وزيرٍ من زعماء الخصوم ، فبعد أن درس لنكولن الموضوع بنفسه ، وقابل الخصم شخصياً كتب الى القائد العام ما معناه :(١) « الآن وقد ناقشتُ الرجلَ أبلغك فى صراحة أنى أعتقد أنه يعطف على الثوار ويشاطرهم ميولهم . بَيْدَ أنه يجب وضع المسألة هكذا : هل يمكن لحكومة تحافظ على سلامتها أن تنفى رجلاً بمجرد الظنة والاشتباه فى عواطفه السرية ، ولاسيما رجل لاشك فى متانة أخلاقه ، وقد أقسم اليمين ، ولا يمكن اتهامه بالحنث فى يمينه ، ولا يمكن اتهامه باقترافه مأثمة ما »

أى شبابنا الناهضين :

لتذكروا أن لنكولن قد وقف ذلك الموقف المشرِّف مع سياسىّ خصم له فى ظروف حالكة حرجة ، لأنها كانت ظروف ثورة وحروب ، وتقاتل وتطاحن ، ولكنه مع ذلك آثر العدل والإنصاف ، وتنكب عن الجور والإجحاف . واذكروا اذا ما ذكرتم لنكولن وعدله مواقفَ الآباء والأجداد . اذكروا ديمقراطية خلفائكم وعدالة خيرة ولاتكم . اذكروا أبا بكر والعُمَرين وأترابهما ، ثم اذكروا نصيحة البصرى لعمر بن العزيز وصفته للإمام العادل قال :

« إن الله جعل الإمام العادل قِوامَ كل مائل ، وقَصْد كل جائر ، وصَلاح كل فاسِد ، وقوّة كل ضعيف ، ونَصَفَة كل مظلوم ، ومفزَع كل ملهوف — والامام العدل كالراعى الشفيق على إبله ، الرفيق الذى يرتاد لها أطيب المَرْعَى ، ويَذُودُها عن مراتع المَهلكة ، وَيحْميها من السِباع ، ويكْنُفُهَا من أذَى الحرّ والقرّ — والإمام العدل كالأب الحانى على ولده ، يسعى لهم صغاراً ويعلّمهم كباراً ، يكتسب لهم

(١) أنظر ص ٤٢١ فى تاريخه لدوج (لنكولن) وقارن بموقفه فى Vallandighaw

فى حياته ، ويدّخِرلهم بعد مماته ، والامام العدل كالأم الشفيقة البَرّة ، الرفيقة بولدها حَمَلَتْه كُرْهاً ووضعته كرهاً ، ورَبّتْه طِفلا تَسهر بسَهَرِه ، وتَسْكُنُ بسكونه ، تُرْضِعُه تارةً وتَفْطِمُه أخْرَى ، وتفرح بعافيته ، وتَغْتمّ بشكايتِه — والإمام العدل وَصِىّ اليتامى ، وخازن المساكين ، يُرَبِّى صغيرهم ، ويُمَرِّن كبيرهم — والإمام العدل كالقلب بين الجَوانح تَصْلح الجوانح بصلاحه ، وتفسُد بفساده — والامام العدل هو القائم بين الله وبين عباده ، يسمع كلام الله ويُسمعهم ، وينظر الى الله ويُريهم ، وينقاد الى الله ويقودهم ، فلا تكن فيما مَلّكك الله كعبدٍ ائْتَمَنه سيِّده واسْتَحْفَظَه ماله وعيالَه ، فبَدّد المال وشَرّد العيال فأفقرَ أهلَه وفرّق مالَه .

« واعلم أن الله أنزل الحُدودَ ليَزْجر بها عن الخبائث والفواحش ، فكيف اذا أتاها مَن يَليها ، وأن الله أنزل القصاص حياةً لعباده ، فكيف اذا قَتَلَهُم من يَقْتَص لهم . واذكر الموتَ وما بعده وقلة أشْياعِك عنده وأنصارك عليه ، فتَزَوّد له ولما بَعْدَه من الفزَع الأكبر . واعلم أن لك منزلا غير منزلك الذى أنت فيه ، يطول فيه ثَواؤك ، ويُفارقك أحبّاؤك ، يُسْلمونك فى قَعْره فريداً وحيداً ، فتَزَوّد له ما يَصْحَبك يومَ يَفِرُّ المَرْءُ من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وَبنيه . واذكر اذا بُعْثِر ما فى القُبور ، وحُصّل ما فى الصدور ، فالأسْرَار ظاهرة ، والكتاب لا يُغادِر صغيرة ولا كبيرة إلاّ أحْصاها . فالآن يا أمير المؤمنين وأنت فى مَهَل قبل حلول الأجَل ، وانقطاع الأمل ، لا تحكم يا أمير المؤمنين فى عباد الله بحكم الجاهلين ، ولا تَسْلُك بهم سَبيل الظالمين ، ولا تُسَلِّط المستكبرين على المستضعفين ، فانهم لا يَرْقُبون فى مؤمنٍ إلا ولا ذِمَّةً فتبوء بأوزارك ، وأوزار مع أوزارك ، وتحمل أثقالك ، وأثْقالاً مع أثقالك ، ولا يَغُرَّنَّكَ الذين يَتَنعَّمون بما فيه بُؤْسُك ، ويأكلون الطيبات فى دُنياهم ، بإذهاب طيّباتِك فى آخرتِك ، لا تَنْظُر الى قُدْرتِك اليومَ

ولكن انظر الى قدرتِك غداً وأنتَ مأسورٌ فى حبائل الموت ، وموقوف بين يدى الله فى مَجْمَع من الملائكة والنبيين والمرسلين وقد عَنَت الوجوه للحىّ القيُّوم انى يا أمير المؤمنين وإن لم أَبْلُغْ بعظتِي ما بَلَغَه أولوا النُّهَى من قَبْلِي ، فَلَمْ آلُكَ شفقةً ونصحاً فأنْزِل كتابى اليك كمُداوى حبيبه يَسْقيه الأدوية الكريهة لِمَا يَرْجُو له فى ذلك من العافية والصحة اه . » .

أى شبابنا الناهضين :

لقد قرأتم الشىء الكثير فى تاريخ الاسلام أيام الخلفاء الراشدين ، ومن تلا تِلوَهم من الملوك العادلين ، الذين أشربت قلوبهم معانى الايمان الصحيح ، فأخلصوا الخدمة لله والوطن وأفراد الوطن ، وكانوا البلسم الناجع للرعية : ما كان من مبادرتهم الى مواساة الجند فى حَوْمة الوغى ، والاشتراك فعلاً معهم إسهاماً فى احتمال الأذىٰ الى جانبهم . لأن الملوك العادلين يجب أن يشاركوا الشعب فى سرَّائه وضرّائه ، ونَعمائه وبأسائه . وقد آن لنا أن نذكر لكم موقفاً مشرفا « لصاحبكم الكبير » الذى أراد أن يزور الجند المتحاربة فى مواقع القتال ليتأكد بنفسه من راحتهم ، وليطمئن قلبه الرءوم الى عدم إعناتهم فى شىء ، وليبثَّ فى نفوسهم الحمية والحماس ، وليقرّب ما بينهم وبين ساعة النصر ، وانظروا اليه وهو راكب دابته والى جانبه ابنه « تود » . ثم انظروا اليه وهو يحادث فى دعابة ومجون ضابطاً من ضباط الجيش الى أن وصل الى جندى كان قد حكم عليه بالاعدام ، وأنه بسبب سهره ليلتين كاملتين فى دوره ودور آخر كان متعباً ، فأخذته سِنَة من النوم ، وكانت عليه النوبة وقررت القيادة العامة للجيش الحكم عليه بالاعدام ، وكان فى انتظار ساعة الخلاص من هذه الدنيا والرحيل الى الآخرة ، فاذا برئيس الجمهورية وقد حطَّ ركابه واُستفسر منه عن أسباب الحكم عليه بعد أن رأى صورة أنه أمام ناظره —

فتحركت لذلك الشفقة والحنان فى قلبه الكبير وقال له : أى بنىّ ، لن تعدم وسأضع ثقتى فيك لأننى باعث بك الى كتيبتك وسأضع نفسى فى موضع مُعْنِتٍ لى ، وأودّ أن أعلم منك ماذا أنت فاعلٌ لسداد دينك هذا » .

ظن شابنا أن الرئيس بحاجة الى هدية من المال فأجهد فكره وأعنت ذهنه ، عساه يصيب مالاً جزيلاً يتقدم به الى من نجَّى حياته بعد أن كان من المعدَمين . وصل به مطافُ تفكيره الى أنه فى مقدوره بعد أن يبيع ما فى حَوْزته ، وما يقتصد من راتبه فى الجيش ، وبعد أن يقترض من هنا وهناك ، وبعد أن يرهن أرضه وعقاره — فى مقدوره بعد هذا كله أن يجمع مائة من الجنيهات ، وظن أن فى هذا القدر مقنعاً أى مقنع لرضاء رئيس الجمهورية .

فأدلى الى الرئيس بما فى مكنته ، فلم يغضب الرئيس من مكاشفته تلك ، بل قال له : كلا يا ولدى فان دينى كبير ، وليس فى قدرة صحابك ، ولا فى وسع راتبك من الجيش ، ولا فى مكنة ما تدرّه عليك مزرعتك من مال وربح — ليس فى قدرة هذا كله أن يسدِّد دينى . وانما هناك شخص واحد هو القادر بمفرده على السداد واسم ذلك الشخص وليم سكوت . . . . فاذا ما أخذ وليم سكوت من يومنا هذا فى أداء واجباته ، وكان فى قدرته يوم مماته أن يقابلنى مواجهة كما يواجهنى الآن ويقول وقتئذٍ :

« هأنذا قد وفّيت بوعدى ، وأديت ما فى عنقى من واجبى المقدس بصفتى جندياً . . . . بذلك يتسدد الدين ! ! » .

أى شبابنا الناهضين :

أليس لزاماً فى أعناقكم بعد أن تشبعتم بتلك الروح الطاهرة ، وملكت نفوسكم قراءة هذه السيرة الصالحة أن تنصرفوا الى العمل الصالح ، العمل المجدى ، العمل

الصامت الذى لا يملأ الدنيا صخباً ولا ضجيجاً ، وتهتدوا بِهَدْى لنكولن، فتعملوا على ما يرأْب الشمل ويجمع ، ويؤلِّف بين القلوب فيفيد وينفع . وتوجِّهوا نفوسكم الى الخير بضمّ شتاتنا ، وتقوية صلاتنا ، وتدعيم قناتنا ، وقمِينٌ بكم أن تشمِّروا عن سواعد الجد ، وأن تدقِّقوا البحث فى طبّ دائنا ، وأن تستقصوا الدرس عن ناجع دوائنا ، وما كان لنا من داء إلا فى الفرقة والأُختلاف ، وليس لنا — رعاكم الله — من دواء إلا فى الوئام والأُئتلاف .

أى شبابنا الناهضين :

لتعملوا — رعاكم الله — على ضم الصفوف ، وتطهير النفوس ؛ ولتقضوا على أسباب الشقاق ، واُتخذوا الصراحة بديلاً من النفاق ، واعملوا عملاً صالحاً لتكونوا قدوة للعاملين ، ورداءا وموئلاً لهذا البلد الأمين .

أى شبابنا الناهضين :

أمامكم مثل « لنكولن » فاحتذوه فى كل شىء فى اخلاصه وبلائه ، فى نبله ووفائه ، فى جدّه واجتهاده ، فى حبه وأمانته ، فى حنانه وشجاعته ، فى أنفته وعفته ، فى رحمته وحسن طويته ، فى عدله ونَصَفَته وقدِّسوا ما للوطن وآل الوطن من حقوق . وأدوا ما فى أعناقكم من واجباته . ثم ضحوا بأنفسكم وأموالكم وحياتكم فى سبيل سلامة الوطن وحرية أبناء الوطن .

الماضة تاريخية ساذجة

أبو بكر الصديق

(١)

قصّةٌ ظريفةٌ لا أَتذكّر تماماً أين قرأتُها ، ثم لا أذكر ألفاظَها وكلماتِها ، كما لا أذكر كاتبها ومؤلِّفها ، ولكنى أذكرُ شيئاً واحداً وأذكره جيِّداً . . . . . . ذلك أننى تأثّرت بها ، وكان تأثُّرى بها عظيماً وبليغاً وعميقاً . . . لأنها كانت ساذَجةً والعقول الساذجة تحبّ ما هو ساذَجٌ وتتأثّر بما هو ساذج . ثم هى تنطبق على الواقع بقَدْر ما تنطبق على تصوير الحقّ ، واُختلاف الناس فى تصوير الحقّ . . . والحقّ نسبيّ كما تعلمون ، ولا يستطيع العلم مهما كان قويًّا وناضجاً ، ومهما كان دقيقاً أو كاملاً ، أن يزعُم أنهُ وصل إلى الحقّ الكامل غير المنقوص ولا المبتور .

قصّتى التى رأيتُ أن أستفتح بها حديثى معكم ، والتى زعمتُ لكم أنها ظريفة ، وزعمتُ لكم أنها ساذجة ، ثم زعمتُ لكم أنها تنطبق على الواقع ، بقَدْر ما تنطبق على تصوير الحق واختلاف الناس فى تصوير الحق — هى عن عِمْيانٍ سبعة اجتمعوا بفيل ، فرأى كلٌّ أن يصف الفيل للآخَر ، واُعتقد كلّ أنهُ مصيبٌ لُبابَ الحقّ أو سِدْرة الصواب فيما هو واصف ، وفيما هو متكلّم . ولماذا لا يعتقد أنهُ مصيب الحقَّ والصوابَ ، وهو لا يتكلّم إلا بما يحسّ أنهُ الحقُّ والصوابُ . . . . لقد وَصَفَ الأوّلُ الفيلَ بأنهُ كجذْع النخلة لأنهُ أمسك بيده ساقَ الفيل ، وساقُ الفيل بِجِذْع النخلة شبيهةٌ ومثيلةٌ . . . . ووصفَ الثانى الفيل بأنهُ كالأفعَى لأنه أمسك بيده خرطومَ الفيل . . . . ووصفهُ الثالثُ بأنهُ كالحائط لأن يده وقعت على جُثْمانهِ . . . . وأبى الرابعُ إلا وَصْفه بالمروحة لأنهُ عثر على أذنهِ . . . . وأبى الخامس غير السادس

والسادس غير السابع . . . . وكلٌّ استمسك برأيهِ ، ودافع عن وصفهِ . وكلٌّ آمنَ بحقه وكذَّب بحقِّ غيره . . . .

تلك قصةٌ لا تَعْدو ما نقعُ فيهِ كلَّ يوم . . . . ومَنْ زعم أنهُ بصيرٌ بكلّ صحيح ، ثاقب النظر فى كلّ أمر ، وأنهُ ليس بعُرْضةٍ لأن يصيبهُ الباطل ولو « رَشَاشاً » ولا أقول عن يمينهِ أو يساره ، فأخشى أن يكون حاله كحال أحدِ السبعة الكرام .

ولكننا نرجو ، وهذا كل ما نملكه فى ميدان العلم ، وفى ميدان كتابة التاريخ ، وقد أصبح فرعاً من العلم ، وفى كتابة التاريخ الإسلامى ، وهو أشقُّ فَرْعٍ فى هذا العلم ، لأنهُ لم يخضع بعدُ الخضوعَ العامىّ الصحيح . . . . لم يخضع بعدُ للمشرحة ولم يُذْعن بعدُ للتحليل . نرجو — ونحن نؤمن بقصّتنا — أن نستوعب وَصْفَ السادة السبعة ، ونجمع من وصفهم شيئاً يقرِّبنا فى مجموعه مما هو حقٌّ ومما هو صواب

أجل ! نرجو أن يكون لنا من أقوال الشِّيْعىّ وغير الشيعىّ، والأَموىّ والعباسىّ، والخارجىّ وغير الخارجىّ ، ما ينكب بنا عن ضلالة الإمعان مع هذا أو ذاك . كما نرجو أن يكون إيماننا بضرورة البحث عن الحقّ فى شَتَّى نواحِيهِ ، مَدْعاة للقُرْب منهُ ، وإمداداً لتذليل صعابه وإزالة عقابهِ . ولو نِسْبيًّا . . . . ولو خُطْوة واحدة الى الأمام . . . . فى سبيلِ تَفَهُّمِ هذا التاريخ المجيد العظيم .

(٢)

وليس من جديد عليكم شبابنا الناهضين ، أن تعلموا غير مُعَلَّمين ، أنّ التاريخَ النافعَ المُجْدِى هو ما كان نافعاً مُجْدِياً للإنسانية . وللإنسانية عامّة . ذلك لأنكم تعلمُون ما كان من جهود المؤرخين المحدثين وأثرها فى تطور التاريخ خصوصاً بعد مؤتمر « التربية والتمدن » الذى عقد فى تورنتو عام ١٩٢٣ . وفى تطوُّره الى وِجْهته « الإنسانية » العامَّة لا « الأممية » الخاصة .

كذلك ليس من جديد عليكم ، أن تعلموا أَثَرَ ولز فى « تبسيط » التاريخ ، وأَثَرَ « لدوج » فى تجديد التاريخ . . . أمّا تبسيط التاريخ فبأن يكون سهلاً معقولاً ، وأمّا تجديده فبأن يكون رائعاً أخّاذاً

كذلك ليس من جديد عليكم ، أن تعلموا أنّ صاحبةَ « الجلالة » المطبعة التى هى الوالدةُ الشرعيّةُ لصاحبات « الجلالة » إن شئتم ، أو « السموّ » إن أحببتم : الصحافة ، والمكتبة ، والحرية ، والمدنية ، هذه الوالدة الجليلة الشأن ، تَلِدُ فيما تلِدُ — أو بعبارة أصحّ وأقرب الى الدقّة — تَخلقُ فيما تَخْلُقُ نواحِيَ من الإقناع قويّة . وتترك بالفعل نواحى من العظمة قويّة . ثم تَعْمَلُ من وراء ما تقدّم على نَشْرِ الإيمان بالعظمة ، وإِذاعةِ التخلّق بأخلاق العظَمة ، والإيمان بشتي نواحى العظمة ، لأنها خيرُ مِنظار مكبِّر للقليل من صفات العظمة ، فما بالك بكثيرها

وأخيراً ليس من جديد عليكم أن تعلموا أنّ الرأى العامّ بعد الحروب يندفعُ فى تيارات من المبالغات . ثم يتراجع سريعاً فى المناقصات . . . فهو بين مَدٍّ وجَزْر فى المعتقدات والآثار . والحياة معتقدات وآثار .

تلك أُعتبارات أربعةٌ هى « ماثلة فى ذهنكم » بلا ريب ، وأنتم تدرُسون معى تاريخَ عصر أبى بكر بروح « الانسانية » العامّة ، لا « الأُمية » الخاصّة . تدرسونه لا باعتباره مصلحاً إسلامياً بل باعتباره مصلحاً إنسانياً . تدرسونه بجدة البساطة الحديثة التى لا تَحْفِل بتعقيدات الوقائع والحروب . وأنتم تدرسونه غير عازب عن أفكاركم أنّ عظمةَ الماضى كانت عظمةً ساذَجةً لم تُسْبِغ عليها صاحبةُ الجلالة المطّبعةُ بشىء من نياشينها وأوسمتها ، ولم تَنَلْ من زينةِ الدعايةِ ، وطَلاوةِ الإذاعةِ ، وبَرِيق النشر قُوّة البُطُولة المكتسحة ما أمامها . وتدرسونهُ معى وأنتم متحصّنون بما تقدَّمَ من الاعتبارات ، غير ناسين بالطبع الأعتصامَ من تيّارات المبالغات والمناقصات

(٣)

« جيوفانى پاپينى » عقليةٌ إيطاليةٌ ماردةٌ . ذهبتْ فى الشهوات مذهباً حادًّا ينطبق كثيراً عليها قولُ الحريرىّ : « أيها السادرُ فى غُلَوائه ، السادلُ ثوبَ خُيَلائه ، الجامحُ فى جَهَالاته ، الجانحُ الى خُزَعْبلاته . . . . » ولكنّ هذه الشخصيّةَ الماردةَ فى شهواتها ، وكُفْرياتها ، وفلسفيّاتها ، ونظريّاتها ، وزندقتها ، وتألهها ، إنقلبت بعد بَوْتَقَات المِحَنِ ، ومَصَاهر التجاريب الى شخصيّةٍ وَرِعَةٍ ممعنةٍ فى الوَرَع . شخصيّةٍ مُثَقَّفَةٍ تقيّةٍ مُتبتِّلةٍ ينطبق عليها فى مَرْحلتها الأخيرة وَصْفُ عَدِيِّ بن حاتم فى أحد مُعاصرى أبى بكر : « يقول عَدْلاً ويحكُم فصلاً ، تَتَفَجَّرُ الحكمةُ من جوانبِهِ ، والعلمُ من نواحِيهِ ، يستوحشُ من الدنيا وزَهْرتها ، ويأنسُ بالليل وَوَحْشَتِهِ ، وكان والله غزيرَ الدمعةِ ، طَويلَ الفِكْرة ، يحاسبُ نفسَهُ اذا خلا ، ويُقَلِّبُ كَفَّيه على ما مَضَى ، وكان . . . وكان . . . وأُقسمُ لقد رأيته ليلةً ، وقد مَثَل فى محرابه ، وأرخَى الليلُ سِرْبالَهُ . . . يبكى بكاءَ الحزين ؛ فكأنى الآن أسمعه وهو يقول : يا دنيا إلىَّ تعرَّضْتِ أم إلىَّ أقبلتِ ، غُرِّى غيرى لاحانَ حِينك ، قد طلَّقتكِ ثلاثاً لا رَجْعَةَ فيها » . . .

وإذا كان « جيوفانى پاپينى » أصبحَ خَيْرَ مَنْ كتب عن المسيح بعد حياةِ كُفْرٍ وزندقة ، وَأصبحَ الوَرِعَ المؤمن بعد حياةِ شهوةٍ واستهتار . . فالأُمَمُ كالأفراد كُفْرٌ فإيمانٌ ، وإذا كان « نابليون بونابارت » واعظاً فى أُوليات أيامه لأخيه يوسف . وكان زاهداً فى كلّ شىء قبلَ جوزفين وبولين فإنهُ انقلبَ فجأةً إلى ما انقلبَ إليه من نقيض إلى نقيض . . . . كذلك الحالُ فى الكثير من العرب بعدَ إيمانهم وبعدَ مَتْرَبتهم وعَوَزِهم ، وبعدَ يبَابهم [1] إلى تحضيرهم ، وبعد خيامهم إلى آطامهم . . .

(١) يباب : خراب

ولكنكم ستقولون إنّ الفكرة أو العقيدة هى التى تفعل هذا كلَّهُ . وهى إلى أن « تتركَّز » تمرُّ بتلك التيّارات . وأنتم محقون بلا شكّ . وحروبُ الرِّدّة تجزم بأ نكم مُحِقون بلا شكّ . وحروبُ الرِّدّة كانت بَوْتقَةً لتجديد الإسلام ، وكانت مَصْهراً لخلْق العرب خَلْقاً جديداً

(٤)

يقول كارليل فى كتابه القيِّم « الأبطال وعبادة البطولة » فى معرض كلامه عن البطل فى صورة نبيّ : « هل رأيتم — قطّ — مَعْشَرَ الإخوان — أنّ رجلاً كاذباً يستطيع أن يُوجِدَ دِيناً ، عجباً والله ! إن الرجل الكاذبَ لا يقدر أن يبنىَ بيتاً من الطوب . . . ! فهو إن لم يكن عليماً بخصائص الجير والجبس والتراب ، وما شا كلَ ذلك ، فما الذى يبنيه ببيت ، وإنما هو تلٌّ من الأنقاض ، وكَثَبٌ من أخلاط الموادّ . . . . » إلى أن يقول : « . . . . ! ما الرسالة التى أدّاها إلاّ حقٌّ صُرَاحٌ ، وما كلِمَتُهُ إلاّ صَوْتٌ صادقٌ صادرٌ من العالَم المجهول . . . . ! كلا ! ما محمدٌ بالكاذِبِ ، ولا الملفقِ ، وإنما هو قِطعةٌ من الحياة ، قد تفطَّرَ عنها قلبُ الطبيعةِ . . . . فاذا هى شهابٌ قد أَضاءَ العالَمَ أَجمعَ »

ولستُ أدرى رجال المستقبل ، هل كان كاتبُ الإنسانيةِ « كارليل » قد أُطلعَ على كلّ جزئيّات حياة بطلهِ « محمد » ؟ هل كان قد أُطلعَ على كل ما ناله من أذًى وتشريد ؟ هل كان قد أُطلعَ على فقره يافعاً وصغيراً ، وزُهده شيخاً وكبيراً ، وحِكْمته وسَدَاده مُبَشِّراً ونذيراً ؟ هل كان قد أُطلعَ على ما كان بينه وبين عُتْبة ابن ربيعة حينما قال له : « إنك قد أتيتَ قومَك بأمرٍ عظيمٍ ، فرَّقْتَ به جَمْعَهم ، وسَفَّهْتَ به أحلامَهُم ، وَعَبَثْتَ به بآلهتهم ودينهم ، وكفَّرت به مَنْ مضى من آبائهم ، فاْسمعْ منِّى أموراً لعلك تقبلُ منها بعضها » فقال له رسول الله : قل

يا أبا الوليد . قال : « إن أَردتَ بالذى فعلتَ مالاً جمعناه لك ، أو شَرَفاً سَوَّدناك علينا . فلا نقطع أمراً دُونَك ، وإن كان يأتيك رِئِيٌّ تراه لا تستطيع ردَّه عن نفسك طلبنا لك الطبّ ، وبذلنا فيه أموالنَا حتى نبرئك منه » . قال : « أفرغتَ يا أبا الوليد » قال : نعم ، فأسمَعهُ آياتٍ من سورة السجدة(١) وسجد . فقام عُتبة إلى أصحابه بغير الوجه الذى ذهب به ، فقالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ؟ قال : ورائى أَنى سمعتُ قولاً ما هو بالشعر ولا السِّحر ولا الكَهَانة . . . . أطيعونى يا معشَرَ قُرَيش ، وخلُّوا بين هذا الرجل و بين ما هو فيه ، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت نبأ . قالوا : « سَحَرَك يا أبا الوليد ؟ » قال : لنجمع أشرافَ كلِّ قبيلة عند ظهر الكعبة ، ونبعث إليه ، ففعلوا ، فجاءهم حتى جلس إليهم ، فقالوا : إنا والله ما نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه الذى أدخلت ، إلى آخر ما قاله عتبة . . فقال : ما بى ما تقولون . « ما جئتُ بما جئت ، لأطلبَ أموالكم ، ولا الشرفَ فيكم ، ولا المُلْكَ عليكم ، ولكن بعثنى الله إليكم رسولاً ، وأنزلَ علىّ كتاباً وأمرنى أن أكون لكم بشيراً ونذيراً ، فبلَّغتُكم رسالات ربِّى ، ونصحتُ لكم ، فإن تقبلوا منِّى ما جئتكم به ، فهو حظُّكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردُّوه علىّ أصبر لأمر الله حتى يحكم بينى و بينكم »

(١) والآيات التى قرأها عليه صلى الله عليه وسلم من سورة السجدة (فصلت) هى قوله تعالى :
« بسم الله الرحمن الرحيم . حم تنزيل من الرحمن الرحيم كتاب فصلت آياته قرآنا عربياً لقوم يعلمون ، بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب ، فاعمل انا عاملون ، قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى الى انما الهكم اله واحد فاستقيموا اليه واستغفروه ، وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون »
حتى بلغ الى قوله تعالى :
« فان أعرضوا فقل انذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود اذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألا تعبدوا الا الله قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة فانا بما أرسلتم به كافرون »
[راجع روح المعانى فى تفسير القرآن ج ٧ ص ٤٧٠ — ٤٨٣]

أجل ! لست أدرى شيئاً من هذا ، ولكننى أجزم بأن « كارليل » على حقّ أنَّ الرجل الكاذب لا يقدر أن يبنىَ بيتاً من الطوب . وأن الرسالة التى أدّاها محمدٌ حقٌّ صُرَاحٌ ، وأنه قطعةٌ من الحياة تفطَّر عنها قلبُ الطبيعة . ! ثم أجزم لكم أن القاضىَ عياضاً وشرّاح القاضى عياضٍ « وميور » و « أميل درمنن » .... وعشرات الرُّواة والمؤلفين كانوا على حقٍّ فى تغنِّيهم بصفات رسول الإسلام ، وباعثِ دولة الإسلام . كما أجزم لكم أنّ من يقول : « السعيدُ مَنْ وُعظ بغيره ، والشقىُّ من وعِظَ بنفسه » ويقول : اغتنم خمساً قبل خمس : شبَابَك قبلَ هَرَمِك ، وصحَّتك قبلَ سَقَمِك ، وغِنَاكَ قبل فَقْرِك ، وفرَاغك قبلَ شُغْلك ، وحياتك قبل موتك » ويقول : « طوبَى لمن شَغَلَه عيبُه عن الناس ، وطوبَى لمن أنفقَ من مال اكتسبه فى غيْر مَعْصية » ويقول : « ضَعِ المعروفَ إلى من هو أهله ، ولمن ليس أهله . . . » أجزم أنَّ من يقول ذلك ثم من كان من صفاتهِ التى هى على غِرارٍ واحدٍ ، وطِرَازٍ واحد ، ومن مَعْدَن واحد أنهُ كان « سهلَ الخُلُق ، لَيِّنَ الجانب ، دائمَ الفكرة ، متواصلَ الأحزان ، طويلَ السكوت ، لا يتكلم فى غيرحاجة . يَخزن لسانه إلا فيما يَعْنيه ، كلامه فَصْلٌ لا نَزْرٌ ولا هَذْرٌ . لا يذمّ أحداً ولا يعيبه ، ولا يطلب عَوْرته ، ولا يتكلم إلا فيما رُجِىَ ثوابه ، مجلسه مجلسُ حلم وحياة وأمانة وصبر . نظره إلى الأرض أطولُ من نظره إلى السماء ، تنام عيناه ولا ينام قلبه . يتفقَّد أصحاباً ويسأل الناس عما فى الناس ، ويُحَسِّن الحسَنَ ويقوِّيهِ ، ويقبِّح القبيحَ ويُوهِيهِ ، أفضلُ الناس عنده أعمُّهم نصيحةً ، وأعظمُ الناس عنده منزلةً أحسنهم مواساةً ومؤازرة ، يُرْفِدُ صاحبَ الحاجة ، لا يقصِّر عن الحقّ ولا يجاوزه . يزور ضعفاء المسلمين ويعود مرضاهم ويشهد جنائزهم . . يمرّ بالصبيان فيسلِّم عليهم . وإذا انتهى إلى قوم جلس حيث

ينتهى به المجلس » ثم أجزم أنّ من تكون هـذه بعض صفاته — لاأفُضْلَى حسناته — لا بدّ أن يكون عظيماً فى أثَره ، صادقاً فى رسالته ، مثقفاً لأمته .

ولا بدّ أن يكون عصرُه وعصرُ خلفائه عصرَ نور وعرفان ، وهُدًى وإيمان

وكيف لا يكون عصرُه وعصرُ خلفائه عصرَ نورٍ وعِرْفَان ، وهُدًى وإيمان ، وقد تأدب القوم فيه بأدب القرآن . وليس من قصدنا أن نتحدث إليكم الآن عن إعجاز القرآن ، وقد قرأتم ما كتبه الأوائل والأواخر كالزمخشرى والرازى والجُرْجانى والرمّانى والواسطى والعسكرى وابن رُشْد والباقلاّنى والرافعى وغيرهم

أجل ! تأدب القوم بأدب القرآن ، وتمشّتْ فى عُروقهم رُوحُ الإيمان . حتى رأينا النساء كالرجال فى التضحية ، فى سبيل الله وسبيل الوطن ، ولعلكم قد قرأتم فى السِّيَر ما كان من صفيّة بنت عبد المطلب ، وقد شهدت بعينيها تمثيلَ المشركين فى واقعة أُحُدٍ بسيدنا حمزة عمّ النبىّ ، وكانت هند وصاحباتها قد جَدَعْنه ، وَبَقَرْنَ عن كبده ولاكتها ولم تَسُغها ، فلما رأى النبىّ ذلك فى حمزة ، وأقبلت أختُه صفية أشار عليه الصلاة والسلام على ابنها الزبير ليردّها حتى لا ترى ما حلَّ بأخيها ، فلقيها وأعلمها . فقالت ، وهى الكسيرة القلب ، الدامية الفؤاد ، ولكنها المترعة الإيمان ، القويّة العقيدة ، الخالصة الإخلاص كله : « بلغنى أنهُ مُثِّل بأخى ، وذلك فى الله قليل ، فما أرضانا بما كان من ذلك لأَحتسبنَّ ولأصبرنَّ ! »

تأدّبَ القومُ بأدب القرآن ، وأدبِ نبىِّ القرآن ، ولعلكم تذكرون ما كان من قوم عَطْشَى من جند المسلمين فى تلك الأيام ، يجودون بأرواحهم فى سبيل الله وسبيل الوطن قد طَلَب أحدُهم ماء فأتى بالماء وإذْ بالثانى قد طلب الماء وإذْ بالثالث قد طلب الماء . وإذ بغيرهم قد طلب الماء فآثر كلٌّ أخاه على نفسه واستقبل الموتَ فى سبيل إنسانيته وبرِّهِ وإيثاره !

تأدّبَ القوم بأدبِ القرآن ، وأدب نبيّ القرآن ، فلماذا لا يفوز الحق على الباطل؟ ولماذا لا يفوز المبدأ على الشهوة؟ ولماذا لا يفوزُ جندٌ قليلٌ على جندٍ كثير ، ثم لماذا لا ننتظر من كلّ قائد من قُوّاد العرب فى تلك الأيام أن يَصيح فى جُنده قائلاً مقالة عبد الله بن رَوَاحةَ : « أنتم إنما خرجتم تطلبون الشهادةَ ، وما نقاتل الناسَ بعددٍ ولا قوّةٍ إلا بهذا الدّين الذى أكرَمنا الله به ! »

يقول توماس كارليل : « إن عرب الجاهلية أمةٌ كريمة تسكن بلاداً كريمةً ، وكأنما خلق الله البلادَ وأهلَها على تمام وفاق ، فكان ثَمَّةَ شَبَهٌ قريبٌ بين وعورةِ جبالها ووعورة أخلاقهم ، وبين جَفاءِ منظرها وجفاءِ طِباعِهم ، وكأنّهُ يبسط من قسوة قلوبهم مزاجاً من اللين والدّمَاثةِ ، كما كان يَبسُط من عبوس وجوه البلاد رياضاً خضراء ، وقيعاناً ذات أمواه وأكلاءٍ » وإن كارليل لو وقف على إعجاز القرآن بقدر ما تفَهّمَ أسرارَ عبقريةِ محمد لكان يُسمِعُنا الكثيرَ المطربَ من شَجِيِّ كلامه وعَذْبِ منثورِه عن مبلغ تطوّر الخلقِ العربى تطوراً الى خير الانسانية فى عصرنا الذى نتكلم عنه ، ذلك العصر الذى كان من أولى مميزاتهِ الإيمان العميقُ والإخلاصُ العميقُ ، ولا غَرْوَ فإن محمداً وصحابةَ محمد كانوا على إيمان وإخلاص ، والاخلاصُ كما يقول كارليل عن البطل فى صورة نبيّ : « هو أول خواصّ الرجل العظيم كيفما كان »

إذنْ فليس بغريب أن نشاهدَ من أبى بكر وصحابةِ أبى بكر قيامَهم جميعاً قومةَ رجل واحد ، بدافع الإيمان والاخلاص ، لحرب الرِّدّةِ ، ولبَسْطِ سلطان الاسلام ، لا للقتال والسِّجالِ ، ولا للجاه أو الفتح أو طلب المال ، وإنما فى سبيل الإيمان ، وفى سبيل رفعه الأوطان ، وفى سبيل تحرير بنى الإنسان .

(٦)

ولكنكم تطالبوننى الآن بالتحدث اليكم فى الرِّدّةِ من حيث كونها بوتقةً صُهر

بها الإسلامُ وخرج منها قويًّا مُذاعاً ، ونال من بعدها نجاحاً مؤزّراً . وأنتم تعلمون أن الردةَ فى جملتها امتناعُ فريق من العرب كبيرٍ عن أداء فريضة الزكاة باعتبارها نوعاً من الأتاوة ، وفاتهم أنها نوعٌ من المعونة والرحمة والعطف من غنيِّهم لفقيرهم ومن قويِّهم لضعيفهم . وتعلمون أن تيارَ الرِّدّةِ كان قويًّا وجبّاراً فى قوّته حتى كاد يكتسحُ الاسلامَ اكتساحاً ، لولا أنهُ دينُ الله ولولا أن نَهدَ للمرتدين مثلُ أبى بكر فرماهم بشُجعان العرب وفُرْسان الهزاهز وأبطال المواقع .أمثال خالد بن الوليد وعِكْرمَة[١] بن أبى جهل . وشُرَحْبيل[٢] بن حَسَنَة ، والمهاجر بن[٣] أبى أميّة ، وحُذَيْفَة[٤] بن محصن ، وعَرْفَجة[٥] بن هَرْثَمة ، وسُوَيْد[٦] بن مُقَرِّن ، والعلاء[٧] ابن الحَضْرَمِىّ ، وطريفة[٨] بن حاجز ، وعمرو بن العاص ، وخالد[٩] بن سعيد والمئات من أمثالهم وفى بسالتهم .

تعلمون هذا وتعلمون من الطبرى وغير الطبرى النصوص[١٠] التى كتبها أبو بكر

(١) هو عكرمة بن أبى جهل أسلم بعد الفتح وقتل يوم اليرموك فى خلافة أبى بكر رضى الله عنه مجاهداً وكان على رأس الجيش الذى أرسله أبو بكر الى مسيلمة باليمامة (انظر ص ١١٣ كتاب المعارف لابن قتيبة طبع مصر) (٢) هو شرحبيل بن حسنة منسوب الى أمه مات بالشام فى طاعون عمواس سنة ثمان عشرة وهو ابن أربع وستين سنة وهو ممن دخل مصر من الصحابة . وكان على رأس الجيش الذى وجهه أبو بكر الى الأردن . (انظر ص ١١٠ كتاب المعارف لابن قتيبة) (٣) أرسله أبو بكر الى جنود العنسى وهم قوم من الفرس سكنوا اليمن . (٤) أرسله أبو بكر الى أهل دبا (٥) أرسله أبو بكر الى أهل مهرة (٦) أرسله أبو بكر الى تهامة اليمن (٧) العلاء بن الحضرمى كان حليفاً لبنى أمية وأخوه ميمون ابن الحضرمى صاحب بئر ميمون التى بأبطح مكة وكان حفرها فى الجاهلية والعلاء هو الذى عبر الى أهل دارين البحر على فرسه فقاتلهم فقتلهم وسبى الذرارى وافتتح أسافا من فارس وتوفى فى خلافة عمر بتياس من أرض تميم . (انظر ص ٩٥ كتاب المعارف لابن قتيبة) (٨) أرسله أبو بكر الى بنم سليم وهوازن

(٩) هو خالد بن سعيد بن العاص بن أمية استخدمه رسول الله صلى الله عليه وسلم على صدقات بنى زبيد فصارت اليه الصمصامة سيف عمرو بن معديكرب فلم يزل عند آل سعيد بن العاص حتى اشتراه المهدى بعشرين الف درهم وقتل خالد يوم اليرموك وكان على رأس الجيش الذى وجهه أبو بكر الى مشارف الشام (انظر ص ١٠٠ كتاب المعارف لابن قتيبة) (١٠) ومن هذه النصوص ما كتبه الى قواده :

« اذا سرت فلا تعنف على أصحابك فى السير ولا تغضب قومك وشاورهم فى الأمر واستعمل العدل وباعد عنك الظلم والجور فانه ما أفلح قوم ظلموا ولا نصروا على عدوهم واذا نصرتم على عدوكم فلا تقتلوا وليداً ولا شيخاً ولا امرأة ولا طفلا ولا تقربوا نخلا ولا تحرقوا زرعاً ولا تقطعوا شجراً مثمراً ولا تغدروا اذا

لأمير كلّ بَعْث ولجماعة المرتدِّين فى كل قُطْر ، وقد هَالَكم طبعاً أن نيرانَ الفتنةِ قد التهبت فى كل صُقْعٍ من بلاد العرب ، وهالكم طبعاً أنه الى جانب هذا الارتداد الجزئى ارتدادٌ أوسعُ نطاقاً وأبلغُ خَطَراً هو ادعاء النبوةِ عند الكثيرين ممن يَصِحّ أن أتحدث فى أمرهم معكم تفكهةً ودُعَابَةً . بَيْدَ أننى الآن أُريد أن أتحدَّثَ اليكم فى شيء جزئى أيضاً ولكن له معناه ، وله فلسفته ، وله درسه ، وله تهذيبُه ، ذلك الشيء هو إنفاذ أبى بكر الصديق لجيش أُسامة بن زيد ، وأعتقد أنكم ستوافقوننى بعد وقوفنا على ذلك الشيء الجزئى فنؤمن معاً بضرورة نجاح أصحاب هذه الدعوةِ الاسلامية ، لما لهم من ميْزات خلقية من عَزْمة حَذّاء ، وهمّةٍ شَمّاء ، وإرادةٍ ومَضَاء .

أجل سأحدثكم عن أسامة وبطولته ، وهو لم يزل بعد فى طراوة إهابه ، وعُنْفُوان شبابه . وهو جديرٌ بإعجابكم ، وتقديركم لأنكم مُعْجَبون مثلا بنابليون وأترابه وهو لم يزل بعد كأسامة فى طراوة إهابه وعنفوان شبابه ، ولكننى أعلم حُبَّكم للنصوص التاريخية لذلك العصر الذى لم يتشبع بعد بالرياء السياسى لأن رسميات ذلك العصر وما هو شبيه بالرسميات مما يقع من قلوبكم الكبيرة موقعَ التقدير والإجلال فقد كان عصر صدق ونزاهة ، ووفاء وأمانة ، ونبالة وطهارة . كان عصراً بريئاً من أوضار النفوس وأرجاس الشهوات ، ولست فى حاجة أن أذكِّركم أن نيةَ رسول الله كانت منصرفةً الى أن يبعثَ بأُسامة وجيش أُسامة لتأديبِ بعض العُصاة والخارجين ،

عاهدتم ولا تنقضوا اذا صالحتم وستمرون على قوم فى الصوامع رهبان ترهبوا لله فدعوهم وما انفردوا له وارتضوه لأنفسهم فلا تهدموا صوامعهم ولا تقتلوهم والسلام »

وقال أيضاً ينصح بعض رؤساء الجند :

« عليك بتقوى الله فانه يرى من باطنك مثل الذى يرى من ظاهرك واذا قدمت على جند فأحسن صحبتهم وابدأهم بالخير وعدهم اياه واذا وعظتهم فأوجز فان كثير الكلام ينسى بعضه بعضاً وأصلح لنفسك يصلح لك الناس واذ استشرت فأصدق الحديث تصدق المشورة وجالس أهل الصدق والوفاء . »

ولستُ فى حاجة لأن أقول لكم : إن المنيةَ قد عاجلت الرسول دون إنفاذ هذه البعثة ، وإن ارتداد المسلمين والذهول الذى استولى على المؤمنين بوفاة نبيّهم لم يحولا بعدُ مما ستحدثكم به النصوصُ والرسميات ، والمصادرُ الشبيهة بالرسميات .

يحدثنا الطبرىّ عن مشيخته عن عاصم بن عدىّ : أنه قد نادى منادى أبى بكر من بعد الغد من متوفّى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليُتِمّ بعث أسامة : ألاَّ يبقينَّ بالمدينة أحدٌ من جند أسامة إلا خرج ويحدّثنا بأن أبا بكر قد خطب هذا الجندَ بما تجدونه فى غير هذا الموضع . ثم يحدثنا الطبرى بأن الحسن بن أبى الحسن البصرى قد قال ما نصه : ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل وفاته بعثاً على أهل المدينة ومَنْ حولهم وفيهم عمر بن الخطاب وأمّرَ عليهم أُسامة بن زيد ، فلم يجاوز بهم آخِرَ الخندق حتى قُبِضَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوقف أسامة بالناس ثم قال لعمر : ارجع الى خليفة رسول الله فاستأذنه يأذن لى أن أرجع بالناس ، فان معى وجوهَ الناس وحدهم ، ولا آمن على خليفة رسول الله ، وثقل رسول الله ، وأثقال المسلمين أن يخطفهم المشركون ! فخرج عمر بأمر أسامة ، وأتى أبا بكر فأخبره بما قال أسامة . فقال أبو بكر : لو خطفتنى الكلاب والذئاب لم أرُدّ قضاء قضَى به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : فإن الأنصار أمرونى أن أبلغَكَ وأنهم يطلبون اليك أن تُوَلّىَ أمرَهم رجلاً أقدمَ سِنًّا من أسامة ، فوثب أبو بكر وكان جالساً ، فأخذ بلحية عمر فقال له : ثكلَتْكَ أمُّك وعدِمَتْكَ يابن الخطاب ، استعمله رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وتأمرنى أن أنزعه ! فخرج عمر إلى الناس فقالوا : ما صنعتَ؟ فقال : امضوا ثكلتْكم أمهاتُكم ما لَقيتُ فى سبيلكم من خليفة رسول الله ! ثم خرج أبو بكر حتى أتاهم وأشخصهم وشيَّعهم وهو ماشٍ ، وأسامة راكبٌ ، وعبدُالرحمن ابن عوف يقود دابّةَ أبى بكر ، فقال له أسامة: يا خليفة رسول الله، والله لتركبَنَّ أو

لأنزلنّ ، فقال : والله لا تنزل ووالله لا أركب ، وما عليَّ أن أغبّرَ قدميَّ في سبيل الله ساعة ، ان للغازي بكلّ خطوة يخطوها سبعمائة حسنةٍ تُكتَبُ لهُ ، وسبعمائة درجة تُرْفعُ له ، وترفع عنهُ سبعمائة خطيئة ، حتى إذا انتهى قال : ان رأيت أن تعينني بعمر فافعل ، فأذِنَ له ثم قال : «يا أيها الناس ، قفوا أُوصِكم بعشرٍ فاحفظوها عني : لا تخونوا ولا تَغُلُّوا ، ولا تَغْدِرُوا ، ولا تُمَثِّلُوا ، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأةً ، ولا تَعقِرُوا نخلاً ولا تُحْرقُوه ، ولا تقطعوا شجرةً مثمرةً ، ولا تذبحوا شاةً ولا بقرةً ولا بعيراً إلا لِمأْكَلَةٍ ، وسوف تمرّون بأقوام قد فرّغُوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرّغُوا أنفسَهم له ، وسوف تَقْدَمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوانُ الطعام فاذا أكلتم شيئاً بعد شيء فاذكروا اسم الله عليها ، وتَلْقَوْن أقوامًا قد فحصوا أوساطَ رءوسهم وتركوا حولها مثلَ العصائب فاخفقوهم بالسيف خَفْقاً ، اندفعوا باسم الله . » اهـ

وإنكم بلا ريب سَتُلفِتُون نظرى إلى قوة إرادة أبي بكر الممثلة في قوله : « لو خطفتني الكلاب والذئاب لم أرُدّ قضاءً قَضَى بهِ رسولُ الله » ، وستشيرون إليَّ بما في تصميم أبي بكر على إمرة أسامة من احترام إرادة الرسول ، وستذكرونني بأدبهِ في مشيتهِ ، وإيمانهِ في خطوتهِ ، وأدبه مع قادتهِ ، ستلفتون نظرى إلى ذلك كله مما يجب عليَّ أن أذكره وأتدبره ، وأما أنا فأرى في عُنُقِي بعد أن فهمت ما ترمون إليهِ من تِبْيان رسوخ أبي بكر واستعصاره للخَطْب ، وتقديره للكفايات ، واحترامه لحقوق الأمير وهو الخليفة دونه استئذانهُ في النزول له عن أحد رجاله عمر بن الخطاب أما أنا فأرى من قِبَلِي أن ألفتَ أنظاركم ، ولا سيما أيامنا هذه وجيلنا الراهن وحروبنا الحاضرة إلى ما تضمنتْهُ وصيّتهُ لجنده من ضروب الإنسانية وآداب المقاتلة .

أليس كذلك ؟

ولكنكم تريدون أن تحدثونى عن الرِّدة وما فيها من حروب ووقائع انتهت بتوطيد الإسلام، وتطهير الإِسلام، فى تلك البوتقة الحامية الضرام . وأما أنا فأريد من ناحيتى أن أحدثكم عن الوجه الثانى من الرِّدة، وجهِ البطولة الكاذب فى التنبى الكاذب .

(٧)

الأنبياء الكذبة

أفهمُ جيّدًا أن المجال لا يسمح بالتحدُّث عنهم جميعًا من مُسَيْلِمة[١] بن حبيب وعَبْهلة[٢] بن كعب المعروف بالأسود العَنَسِىّ وطُلَيْحة[٣] بن خُوَيْلد الأسدىّ

(١) هو مسيلمة بن حبيب من حنيفة بن لجيم ويكنى أبا ثمامة وكان صاحب نيرنجات وهو أول من أدخل البيضة فى قرورة وأول من وصل جناح المقصوص من الطير فاتبعه على ذلك خلق ثم أرسل أبو بكر خالداً بجيش فقاتله وهزمه ومن معه وقتله .

وقال بعض شعراء بنى حنيفة يرثيه :

لهفى عليك أبا ثمامة لهفى على ركنى شهامه
كم آية لك فيهم كالشمس تطلع من غمامة

(انظر ص ١٣٩ كتاب المعارف لابن قتيبة)

(٢) الاسود العنسى هو عبهلة بن كعب سبى بمطغه وادعى النبوة وكاتبه أهل نجران وأخرجوا عمرو بن حزم وخالد بن سعيد بن العاص وسلموها الى الأسود ثم ملك صنعاء وصفا له ملك اليمن واستفحل أمره فلما بلغ النبي صلى الله عليه وسلم ذلك بعث رسولا الى الأبناء وأمرهم أن يخاذلوا الأسود إما غيلة أو مصادمة وأن يستنجدوا رجالا من حمير وهمدان وكان الأسود قد تغير على قيس بن عبد يغوث فاجتمع به جماعة ممن كاتبهم النبي صلى الله عليه وسلم وتحدثوا فى قتل الأسود فوافقهم واجتمعوا بامرأة الأسود وكان قد قتل أباها فقالت : والله انه لأبغض الناس الىّ ولكن الحرس محيطون بقصره فانقبوا البيت فواعدوها على ذلك ونقبوا البيت ودخل عليه شخص اسمه « فيروز الديلمى » فقتل الأسود واحتز رأسه فخار خوار الثور فابتدر الحرس فقالت زوجته : هذا النبي يوحى اليه فلما طلع الفجر أمروا المؤذن فقال أشهد أن محمدا رسول الله وأن عبهلة كذاب وكتب أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بذلك فورد الخبر من السماء الى النبي وأعلم أصحابه بقتل الأسود ووصل الكتاب فقتل الأسود فى خلافة أبى بكر كما قال صلى الله عليه وسلم وقتل الأسود قبل وفاته صلى الله عليه وسلم بيوم وليلة . وأول خروجه الى أن قتل أربعة أشهر .

(انظر كتاب تاريخ ابن الوردى ص ١٤٠ ج ١)

(٣) هو طليحة بن خويلد الأسدى من بنى أسد بن خزيمة وكان قد تنبأ فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكثر جمعه ومات النبي صلى الله عليه وسلم وهو على ذلك فتبعه كثير من العرب عصبية ولما قصد

وسَجَاح[1] بنت الحارث بن سُوَيْد التميمية وغير هؤلاء من مرتزقة الرسالة وصناع النبوة أفهمُ هذا ولكنني أفهم أن وجه ثبات الإيمان، ووجه إعجاز القرآن، ووجه نجاح رسالة نبيٍّ عدنان، إنما كان فى ظهور هؤلاء وإنما كان فى تزييف هؤلاء وفَشَلِ هؤلاء .

ولعلّكم تذكرون خلاصة ما قرأتموهُ فى شبابكم فى المظانّ التاريخية العربية عن رَغْوة هؤلاء وزَبَد هؤلاء، وأنها كانَتْ إلى زوال وعفاءٍ، وأنها ذهبت جُفاءً وكُتِبَ لها الفَناءُ .

ولعلّكم تذكرون من قرآن سَجَاح قولها : « أعدوا الركاب، واستعدوا للنهاب ثم أغيروا على الرباب، فليس دونهم حجاب »

ثم لعلّكم تذكرون من قرآن مسيلمة « والمُنذراتِ زَرْعًا، والحاصِدات حَصْداً والذارياتِ قَمْحًا ، والطاحِنَاتِ طَحْناً ، والعاجنَاتِ عَجْنًا ، والخابزَاتِ خبزاً ، والثاردَات ثرداً ، واللاقمات لقماً ، إهالة وسَمْنًا ، لقد فضلتم على أهل الوَبَر ، وما سبقتكم أهلُ المَدَر ، ريفَكم فامنعوه، والمعترَ فآووه ، والباغيَ فناوئوه » ثم قوله : «الفيلُ ما الفيلُ وما الفيلُ ، وما أدراكَ ما الفيلُ ، له ذَنَبٌ وبيلٌ ، وخُرْطُومٌ طَويلٌ »

مهاجمة المدينة أمدّ أتباعه من أسد وعطفان وطيء بأخيه حبال فافترقوا فرقتين ثم أوفدوا وفداً الى أبى بكر يبذلون الصلاة ويمنعون الزكاة فأبى عليهم أبو بكر ذلك وجرى من أمرهم وأمر المسلمين ما هو مدون فى الطبرى وغيره ولما سار امراء المسلمين بالجيوش قصد خالد بن الوليد طليحة فهزمه وفرق جمعه

ولما تفرق هذا الجمع اقبل فلا لهم الى امرأة اسمها أم زمل سلمى بنت مالك بن حذيفة بن بدر ولما اجتمع اليها هذا الفل أمرتهم بالقتال فجاءها خالد ففل جمعها وقتلها .

(أنظر كتاب أشهر مشاهير الاسلام لرفيق بك العظم مجلد أول ص ٣٤)

(١) هى سجاح بنت الحارث بن سويد التميمية ادعت النبوة واتبعها بنو تميم وأخوالها من تغلب وغيرهم من بنى ربيعة وقصدت مسيلمة ولما وصلت اليه أرادت الاجتماع به فقال لها ابعدى أصحابك ففعلت فضرب لها قبة مبخرة فقالت له : ماذا أوحى اليك ؟ وقال لها ماذا أوحى اليك فكل منهما أبدى منطقاً ركيكا سمجاً لا يصح ذكره وأقامت عنده ثلاثا ثم انصرفت ولم تزل فى اخوالها من تغلب حتى نقلهم معاوية عام بويع

ثم لعلكم قرأتم فى حيوان الجاحظ عند كلامه فى الضفدع قوله : «ولا أدرى ما هيّج مسيلمة على ذكرها ولمَ ساء رأيه فيها حتى جعل بزعمه فيما نزل عليه من قرآنه : يا ضفدع بنت ضفدعين ، نِقِّى ما تِنقين ، نصفُك فى الماء ونصفك فى الطين ، لا الماء تُكَدِّرين ، ولا الشاربَ تَمْنَعينَ . . »

ثم لعلّكم إلى جانب هذا كله تذكرون قول مسيلمة لسَجَاح « وهل آكُلُ بقومى وقومكِ العربَ ؟ قالت نعم » ، فتزوجها وأقامت معه أياماً ثلاثةً ثم أَفلَتتْ راجعةً إلى قومها ، لا من رسالتها ، ولا من جِهَادها ، ولا من بلائها ، بل من زواجَها إن كان الزواج جِهَاداً ، ومن بنائها إن كانَ البناء بلاءً ؛ فسأل قومُها نَبِيَّتَهُم ذاتَ المعجزات والآيات عن وحيها الجديد ، وزوجها الجديد ، فقالت : إنى وجدتُه على الحق فاتبعته وتزوَّجنى ! فما ثارت لهم ثائرة ، ولا نفرت بهم نافرةٌ ، ولا تولَّتهم الخِزْيَةُ الخافِرَةُ ، وإنما الذى هالهم وأفزعهم ، والذى أسهدهم وأبكَتَهم أنها تزوجتْ من غير صَداق ، فردُّوها اليهِ لأنه قبيح بمن كاف فى مكانتها من النبوّة ومرتبتها من الرسالة أن تتزوَّج بلا صَدَاق ، سألتْه الصداق فدعا مُؤَذِّنَهَا شَبَثَ بن رِبْعى الرِّياحى فأمره أن يُؤَذِّنَ فى الناس : « إنهُ حَطَّ عن الناس صلاتين مما أتى به محمد : صلاةَ العِشَاء الآخِرَةِ وصلاةَ الفجر ! »

ثم لعلكم تذكرون إلى جانب هذا ، اجتثاثَ أصول هؤلاء ، ولكنكم لا تزالون تذكرون معى فى حسرة وأسًى ما نجَمَ عن أمثال هذه العبقرية المموّهة العَرْجاء ، والبطولة الزائفة اللّكْعاء ، وهذه الأضلولة الخاطئة العَشْوَاء : من بدع بالغات ، وأحاديثَ هى فى نظركم ونظرنا من الكاذبات ، ولعلكم إن كنتم لا تزالون تذكرون قولنا لكم فى تيارات المبالغات والمناقصات ، أن تذكروا هنا أمثال تلك الأحاديث الشَّرِهَة المُتْرَعَة بها كتبُ الأدبِ والسِّيَرِ أمثال ما لَصِقُوه

به من الأقوال عن الفواكه ، وما إلى الفواكه من الحَلْوَى وغيرِها وأن تقارِنوها بما كان يكرهُه صحابةُ هذا العصرِ من الالتجاء إلى الأحاديث ورواية الأحادِيث إلا فى أمر حازبٍ ، ومَوْقفٍ حاسمٍ ، وعِظةٍ بالغةٍ ثم تقارنوها بما كان عليه القومُ من تقشُّفٍ فى كل شيء من مَلْبَسٍ وَمأكل وَمَشْرَب ، ولكن النبوّة التى من « الماس الكاذب » لها بريقُها وَسَرَابُها وخَتْلها وسُخْفُها ، ولكن المسلم الذى من « الماس الكاذب » ليس له من إسلامه إلا الاسمُ واللقبُ ، والأصل والحسَبُ ، أمَّا العمل والإيمان ، وأما الإخلاصُ والعِرْفَان ، فهذه هو منها بَرَاءٌ ، وهذه هو بعيد عنها بُعْدَ الأرضِ عن السماء .

ولكنكم مع هذا كله ما زلتم تريدوننى وأنا فى مقام الرِّدَّة وتجديد الاسلام بعد حروب الرِّدَّة ، واكتساح الإيمان الصحيح للنبوّة الكاذبة ، تريدوننى أن أثبت لكم بعد ما قرأتم من قرآن عصر الرِّدة كلمةَ الجاحظ التاريخية الخالدة فى هذا الباب .

(٨)

قول الجاحظ

قال الجاحظ : « بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم أكثرَ ما كانت العربُ شاعراً وخطيباً ، وأحْكَمَ ما كانت لغةً ، وأشدَّ ما كانت عدَّة ، فدعا أقصاها وأدناها إلى توحيد الله وتصديق رسالته . فدعاهم بالحجة ، فلما قطع العُذْر ، وأزال الشبهةَ ، وصار الذى يمنعهم من الإقرار الهوى والحميّةُ ، دون الجهل والحيرة ، حملهم على حَظِّهم بالسيف ، فنصب لهم الحرب ، ونصبوا له ، وقَتَل من عِلْيَتهم وأعلامهم وبنى أعمامهم ، وهو فى ذلك يحتجّ عليهم بالقرآن ، ويدعوهم صَبَاحاً وَمَسَاء إلى أن يُعارضوه إن كان كاذِباً بسورة واحدة ، أو بآيات يسيرةٍ ، فكلما ازداد تحدّياً لهم وتقريعاً لعجزهم عنها ، تكَشَّف من نقصهم ما كان مستوراً ،

وظهر منه ما كان خفيًّا ، فحين لم يجدوا حيلةً ولا حجة ، قالوا له : أنت تعرف من أخبار الأمم ما لا نعرف ، فلذلك يمكنك ما لا يمكننا ، قال فهاتوها مُفْتَرَيات ، فلم يَرُم ذلك خطيبٌ ، ولا طمع فيه شاعر ، ولو طمع فيه لتكلَّفهُ ، ولو تكلفه لظهر ذلك ، ولو ظهر لوجد من يستجيده ويُحامى عليه ويكابر فيه ، ويزعم أنه عارضَ وقابلَ وناقضَ ، فدلَّ ذلك العاقلَ على عجز القوم مع كثرة كلامهم واستجابة لغتهم ، وسهولة ذلك عليهم ، وكثرة شعرائهم ، وكثرة من هجاه منهم ، وعارضَ شعراء أصحابه وخطباء أمته ، لأن سورةً واحدةً وآياتٍ يسيرة كانت أنقض لقوله ، وأفسد لأمره ، وأبلغ فى تكذيبه ، وأسرع فى تفريق أتباعه ، من بذل النفوس ، والخروج من الأوطان ، وإنفاق الأموال ، وهذا من جليل التدبير الذى لا يخفى على من هو دون قريش ، والعرب فى الرأى والعقل بطبقات ، ولهم القَصِيد العجيب ، والرّجز الفاخر ، والخُطَب الطوال البليغة . والقصار الموجزة ، ولهم الأسجاع ، والمزدوج ، واللفظ المنثور ، ثم تحدّى به أقصاهم بعد أن أظهر عجز أدناهم . فمحالٌ — أكرمك الله — أن يجتمع هؤلاء كلهم على الغلط فى الأمر الظاهر ، والخطأ المكشوف البيّن ، مع التقريع بالنقص . والتوقيف على العجز ، وهم أشدّ الخلق أنفةً ، وأكثرهم مفاخرة ، والكلام سيِّد عملهم ، وقد احتاجوا اليه والحاجة تبعث على الحيلة فى الأمر الغامض ، فكيف بالظاهر الجليل المنفعة ؟ وكما أنه محالٌ أن يطيقوا ثلاثاً وعشرين سنة على الغلط فى الأمر الجليل المنفعة ، فكذلك محالٌ أن يتركوه وهم يعرفونه ، ويجدون السبيل اليه ، وهم يبذلون اكثر منه . . . اهـ »

على رسلك ياصاح ، فقد حدّثتنا عن الردّة وأنبياء عصر الردّة، وحدّثتنا عن علاقة أبى بكر فى الردة ، وكان من المنتظر أن تحدّثنا قبل ذلك بحديث السقيفة، لأن السقيفة كانت مبدأ حياة أبى بكر . ولكننى أجيبك فى غير تعقيب على كلامك ، أو إفحام

لحجتك ، أو نقض لأقوالك : إنَّ المؤرخين قدجروا مجراك بيد أنى أحبّ لك المنطق اكثر من جريك على أرسان العادة وأحكام العادة ، ولعلك لا تزال تذكر من مراجعاتك فى كتب التاريخ أن شيئًا كثيراً من نبوّة الأدعياء قد أفرخت جرثومتها والنبي صلى الله عليه وسلم لا يزال على قيد الحياة ، وانّ ارتداد العرب الذى تمَّ انفجاره بعد وفاته مباشرةً لا بدّ أن يكون لقى نفوساً معدَّة له ، وتربةً مواتية لحسكه وقتَاده . وأنت تدرس الفكرة فى تطوّرها وأنت تحفل بهذا النوع من الدراسة خصوصاً وقد لاحظت أن أبا بكر أصرَّ على إمرة أسامة بن زيد فى حروبه ضدَّ المشركين . وأن أسامة بن زيد ما نصبه فى القيادة إلا رسول الله . وقد لاحظتَ أنّ نبوّة الأسود العَنَسى كانت فى عهد رسول الله . وإذنْ فقد رأيت أنّ المنطق لا العادة يقضى بهذا النظام الذى أخذناك به فى غير صلف ولا اُدعاء ، وقد لا نكون على ضلال فى تمشِّينا مع فكرة وجدت فولدت فنمت ثم دوت اكثر من تمشينا مع المواقع والأيام والساعات واللحظات . وقد يكون سوانا على حق والعصمة والكمال لله وحده .

(٩)

حديث السقيفة

حديث السقيفة طويل ، وطويل جدًّا . وشدّ ما أخشى ملالكم وضجرَكم ، وشدّ ما أخشى الإسهابَ والتطويل، فلنلتزم الإيجازَ ولو كانت قصّةُ السقيفة رائقةً أخَّاذة ويهُمّنى أن تقفوا عليها وأنتم ماضون فى دراسة هذا العصرِ من صدر الإسلام

يقول الطبرى فى أخبار السنة الحادية عشرة عن رواته عن أبى هريرة قال : لما توفى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قام عمرُ بن الخطاب فقال : إن رجالاً من المنافقين يزعُمون أن رسول الله توفِّى ، وإن رسول الله والله ما مات ، ولكنهُ ذهب إلى ربهِ ، كما ذهب موسى بن عِمْران ، فغاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع بعد

أن قيل مات ، والله ليرجعنّ رسولُ الله فليقطعن أيدى رجال وأرجلهم يزعُمون أن رسول الله مات ! قال : وأقبل أبو بكر حتى نزل على باب المسجد حين بلغه الخبر ، وعمر يكلم الناس لا يلتفت إلى شيء حتى دخل خليفةُ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيت عائشة ، ورسول الله مُسَجًّى فى ناحية من البيت ، ثم خرج وعمر يكلّم الناس فقال : على رِسْلِك يا عمر فانصت فأبى إلا أن يتكلم ، فلما رآه أبو بكر لا يُنْصِت أقبل على الناس ، فلما سمِع الناسُ كلاَمه ، أقبلوا عليه وتركوا عمر ، فحمِدَ الله وأثنى عليهِ ثم قال : أيها الناس ، إن من كان يعبد محمداً فانَّ محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فان الله حيّ لا يموت « وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ إِنْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ، وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شيْئًا ، وَسَيَجْزِى اللهُ الشَّاكِرِينَ » وكان عمر يقول : لم يمُت ، وكان يتوعّد الناس بالقتل فى ذلك ، فاجتمع الأنصار فى سقيفة بنى ساعدة ليبُايعوا سعدَ بنَ عبادة ، قال حُمَيْد بن عبد الرحمن الحمدى : فانطلق أبو بكر وعمرُ يتقاودان حتى أتواهم ، فأراد عمرُ أن يتكلم فنهاه أبو بكر ، فقال : لا أعْصِى خليفة النبي صلى الله عليهِ وسلم فى يوم مرتين ، قال : فتكلم أبو بكر فلم يترك شيئًا نزل فى الأنصار ولا ذكره رسول الله صلى الله عليهِ وسلم من شأنهم إلاَّ وذكره ، وقال : لقد علمتم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لو سلك الناس واديًا وسلكت الأنصار واديًا سلكت وادى الأنصار » ، ولقد علمت يا سعد أن رسول الله قال وأنت قاعد ، قريشُ ولاة هذا الأمر ، فبرُّ الناس تبعٌ لبرّهم ، وفاجرهم تبعٌ لفاجرهم . قال : فقال سعد : صدقت فنحن الوزراء وأنتم الأمراء ، قال فقال عمر : أبسط يدك يا أبا بكر فلأبايعك ، فقال أبو بكر : بل أنت يا عمر ، فأنت أقوى لها منى ، قال : وكان عمر أشدّ الرجلين ؛ قال وكان كل واحد منهما يُريد صاحبه يفتح يدَه ، يضرب

عليها ، ففتح عمرُ يدَ أبى بكر ، وقال : إنَّ لك قوّتى مع قوّتك ، قال : فبايع النَّاسُ واستثبتوا للبيعة ، وتخلّف علىٌّ والزبير ، واخترط الزبير سيفه ، وقال لا أُغمِده حتى يُبايعَ علىٌّ ، فبلغ ذلك أبا بكر وعمر فقال عمر : خذوا سيف الزبير فاضربوا به الحجر ، قال فانطلق إليهم عمر فجاء بهما تعباً وقال : «لتبايعان وأنتما طائعان أو لتبايعان وأنتما كارهان » . . . فبايعا .

هذا هو خلاصة حديث السقيفة ، ولكن جوهره ولبه مما تعامونه ولا ريب ، فقد خرجت الامةُ العربيـة منه بلا فرقة ولا صدع ، فكلمتها أضحت واحدةً ، وجمعُها مشمولاً ، وخليفتُها نافذاً مقبولاً — ولاَ غَرْوَ فهو مجدِّد الاسلام وخادمُه ، وصديقُ النبي وصاحبُه — هو أبو بكر الصديق القائل :

« أيها الناس ! قد وُلِّيتُ عليكم ولستُ بخيركم . فان أحسنت فأعينونى ، وإن أسأت فقومونى . الصدق أمانة . والكذب خيانة . والقوىُّ فيكم ضعيف عندى حتى آخذَ منهُ الحق . والضعيف فيكم قوىٌّ عندى حتى آخذَ لهُ الحق إن شاء الله تعالى . لا يَدَع أحـد منكم الجِهاد ، فانهُ لا يدعهُ قومٌ إلاّ ضربهم الله بالذل . أطيعونى ما أطعتُ الله ورسوله ، فاذا عصيت الله ورسوله فلا طاعةَ لى عليكم . قوموا الى الصلاة رحمكم الله . »

أجل والله ! فبهذا افتتح سيدنا عبد الله بن أبى قحافة عثمان بن عمر الذى يجتمع مع رسول الله فى كل أموره ، فى صحبتهِ وفى رسالته ، وفى إيمانهِ ودعوتهِ ، وفى الكهف والغار ، وفى الحِلّ والأسفار .

أَجل والله ! فبهذا افتتح أبو بكر عهد خلافتهِ مقرراً أولى قواعد الحكومة الاسلامية الصحيحة . شارحاً أصدقَ شرح معنى الرياسة العامة فى الاسلام . رافعاً مَنارةَ العدالة والانصاف ، محارباً صروحَ الظلم والإجحاف . مثقفاً الأمة

بالثقافة المجدية دون غيرها ، ويكفى أن نقول : إن خطاب عرش حكومته شعاره ألفاظ أربعة : « الصدق أمانة والكذب خيانة »

ولكنها ليست بالكلمات الطويلة العريضة تساس بها الأمم وتقاد الشعوب ، وإنما بالايمان تكنهُ الصدور وتفيض به القلوبُ ، وبالأعمال دون الأقوال . وبالأمثال الحيَّة ومحاسن الخصال .

أجل والله فبهذا افتتح أول خليفة فى الاسلام أوَّل عهده بقيادة دولة الاسلام التى دوّخت الفرسَ والرومَ ، لا بعَدَدَ ولا بقوةٌ ، ولا بمال ولا بُعدة ، وإنما بشيء واحد حدثتكم عنهُ ولا تزالون تذكرونه بلا ريب ، بالاخلاص أو بالايمان ، وكلاهما صِنْوان ، وهما توءمان ، وقد كان من جراء إخلاص أبى بكر أَن قَبِل الإمارةَ ، ولعلكم تذكرون قوله : « والله ما كنتُ حريصاً على الإمارة يوماً ولا ليلةً قطّ ، ولا كنتُ راغبًا فيها ولا سألتُها الله فى سرّ ولا علانيةٍ ولكنى أشفقتُ من الفتنة ومالى فى الإمارة من راحة ، لقد قُلِّدْتُ أمراً عظيماً مالى بهِ من طاقةٍ ، ولا يدٍ ، إلا بتقوية الله »

ولعلكم لا تزالون تَدْوِى فى أذنكم كلماتُ « فردريك الأكبر » خالِق ألمانيا الحديثة وصاحِب العبقريّة الحربية والثقافة الأدبية التى شاد بذكرها « كارليل » وأنا أعلم حبكم لكارليل وهيامكم بكتب كارليل ، وهى قوله المأثور : «أنا الخادم الأول للمملكة » ، وأنا أُحِبُّ لكم أن يَدْوِىَ فى أُذنكم ذلك الشِّعارُ المحبوبُ بيد أننى سائلكم أن تنظروا معى فى رفق وأناة . . . ما كان من أبى بكر فى بعض نواحيه الخلقية ، ولست بمحدِّثكم عن فُرْسان الهزاهز فى دولتهِ ، ولا عن أبطال المعامع فى خلافته ، وأنتم العليمون بمكانة أبى بكر فى الجاهلية وأن اليهِ الأَشْنَاق وهى الدِّيات والغُرْمُ قبل الاسلام . ثم أنتم العليمون بثروته التى كانت أربعين ألف درهم والتى أنفق منها خمسةً وثلاثين ألفاً معونةً لرسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم أنتم العليمون

بأنهُ كان يشترى من ماله المُعَذَّبينَ على الاسلام . ثم أنتم العليمون بما أخرجه ابن جرير عن رواته قال : كان أبو بكر يُعتق على الاسلام بمكة ، فكان يُعتق عجائزَ ونساء إذا أسْلَمْنَ فقال أبوه : أى بُنَى ! أراك تُعتْق أناساً ضِعافاً ، فلو أنك تعتق رجالاً جَلْدًا يقومون معك ، ويمنعونك ، ويدفعون عنك . قال : أى أبت أنا أريد ما عند الله ! » وأخيراً أنتم العليمون بما أخرجه ابن عساكر عن أبى صالح الغِفَارىّ قال : إن عمرَ بن الخطاب كان يتعهد عجوزاً فكان إذا جاءها وجد غيرَه قد سبقه اليها ، فأصلح ما أرادت ، فجاءها غير مرّة كيلا يُسْبَقَ اليها ، فرصده عمرُ فاذا هو بأبى بكر الذى يأتيها وهو يومئذ خليفة فقال عمر : « أنت هو لعمرى ! »

ولستُ أدرى هل قرأتم ما أخرجه الإمام أحمد فى الزهد عن ميمون بن مهران ؟ الى جانب ما قرأتم فى ابن عساكر من أن جَوارىَ الحىّ كنّ يذْهَبْنَ الى الخليفة بغنمِهنّ ليَحْلبُهنّ لهنّ ؟ فقد قال : جاء رجل الى أبى بكر فقال : « السلام عليك يا خليفة رسول ، قال أبو بكر من بين هؤلاء أجمعين ! »

أُذكِّركم بهذه الرواية لا لأدلّ على مبلغ أدب الرجل ، ولا لِأُنَوِّهَ بتواضعهِ وزُهْده فى الحكم وانما لأننى سألفتُ أنظاركم المسدّدَة الموفَّقة الى كلمته فى نوع من أدبهِ وفى مَنْحَى إخلاصه قال : « وَمَنْ يُطِعِ اللّٰهَ ورسوله فقد رشد ، ومن يَعْصِهما فقد ضلّ ضلالاً مبينًا . أوصيكم بتقوى الله ، والاعتصام بأمر الله الذى شرع لكم وهداكم بهِ ، فإنَّ جوامعَ هُدَى الاسلام بعد كلمة الإخلاص السمعُ والطاعةُ لمن ولاّه الله أمرَكم ، فان من يُطِعِ الله وأُولى الأمرِ بالمعروف والنهى عن المنكر فقد أفلح وأدَّى الذى عليهِ من الحق . وإياكم واتباعَ الهوى فقد أفلَح من حُفِظ من الهوى والطمعِ والغضبِ . وإياكم والفخر ، وما فخرُ من خُلِقَ من تراب ، ثم الى التراب يعود ، ثم يأكلهُ الدودُ ، ثم هو اليوم حىٌّ وغداً ميت ! » .

ولتنعموا أنظاركم فى تروية وأناة فى حكمتهِ الخالِدة فى نهيهِ عن اتباع الهوى ، والجرىِ وراء الطمعِ ، وتركِ العِنَانِ للغضب ، واسترسالِ النفس فى الفخر ، ثم خبِّرونى بربكم عن مصدر مصائب الأمم والأفراد ، وعداوةِ الجماعات وتقاتل الأحزاب !

ولستُ أطلب اليكم أن تنظروا الى الأشخاص لا الى الأقوال بل انى أمقت ذلك أشد المقت . لستُ فى حاجة الى أن أقول : إن قائل تلك الحكم هو مَن قال عنهُ رسول الله : « إن مَن أمَّنَ الناسَ علىّ فى صحبهِ وماله أبو بكر ، لو كنتُ متخذاً خليلاً غيرَ ربِّى لاتخذتُ أبا بكر خليلاً . . ولكن أخو الإسلام »

أجل ، لستُ فى حاجة إلى أن تنظروا الى الأشخاص لا إلى الأقوال . لأنى أحِبّ لكم ما أحبُّهُ لنفسى . وشدَّ ما أُحِبُّ لنفسى أن أفهمَ أبا بكر على أساسهِ المتواضع الجَلِىّ فى رَوْعة وَسَناءٍ فى قولهِ : « قد وُلِّيتُ عليكم ولست بخيركم ، فان أحسنتُ فأعينونى، وان أسأتُ فقوّمونى » أُحِبُّ لنفسى ولكم أن نفهم معاً أبا بكر على هـذا الأساس المتواضع لأن العظمة الحقيقيّةَ ليستْ بمُنْتَفِخةِ الأوداج ، ولا بشامخةِ الأنف ، ولا مُزْوَرَّة الجناب ، ولا . . . ولا . . الخ ، وانما هى بالجواهر واللباب ، بالتواضع فى غير ضَعَةِ ، والأدبِ فى غير صَغَار ، ومع ذلك فمن حقكم على التاريخ وعلى أنفسكم المحبةِ للنَّصَفَة التاريخية أن أُثبتَ لكم هنا كلمةً لما وصفتْهُ بهِ أمُّ المؤمنين عائشةُ رضى الله عنها ، لأنها فضلاً عن كونها مثلاً صالحاً لمنثور العصر وأدبِ العصر ، فهى شاملة جامعة ، فقد بلغها أن أناساً يتناولون من أبيها فأرسلت اليهم فلما حضروا قالت : « أبى وما أبيه ! لا تعطوه الأيدى ، ذاكَ والله حِصْنٌ مُنيفٌ ، وظِلٌّ مَدِيدٌ ، أنجحُ إذ أكديتُم ، وسَبْقٌ إذ وَنَيْتمْ ، سبق الجَوَاد إذا استوى على الأمد . فتى قريش ناشئاً وكهفها كهلاً . يَرِيشُ مُمْلِقَها وَيفُكُّ عانيهَا ،

ويَرْأَبُ صَدْعَها ، ويلُمّ شَعَثَها ، حتى أحلته قلوبها ، واستشرى فى دينه ، فما بَرِحت شكيمتُهُ فى ذات الله عزّ وجلّ حتى اتخذَ بفنائهِ مسجداً يحيي فيهِ ما أمات المُبطِلُون . وكان — رحمة الله عليه — غزير الدَّمْعَة . وَقِيذَ الجوانح ، شَجِيَّ النشيج ، فانقضّت عليهِ نِسْوَانُ مكةَ وَوُلْدَانُها يسخَرُون منهُ ، ويستهزئون بهِ والله يستهزئ بهم وَيُمدّهُم فى طُغْيَانِهم يَعْمَهُون . وأكبرتْ ذلك رجالاتُ قريش فحنت له قِسِيَّها ، وفوّقت اليهِ سِهَامَها . فامتثلوه غرَضاً فما فَلُّوا له صَفَاةً ، ولا قَصَفُوا له قناةً . ومرَّ على سِيَسائهِ ، حتى اذا ضَرَب الدِّينُ بجَرَانه ، ورست أوتادُه ، ودخل الناسُ فيهِ أفواجاً من كل فرقة أرسالاً وأشتاتاً . اختار الله لرسوله صلى الله عليه وسلم ما عنده ، فلما قبض نبيه الله صلى الله عليه وسلم ضربَ الشيطانُ رواقَه ، وشدَّ طُنُبَه ، ونصب حبائِله ، وأجلب بخيله وَرَجِله ، وألْقَى بَرْكهُ ، واضطرب حَبْلُ الدِّين والاسلام ، ومرجَ عهدُه ، وماج أهلُه ، وعاد مبرمهُ أنكاثا وَبُغِيَ الغوائلُ ، وظنَّ رجالٌ أن قد أكثبت أطماعُهم نُهَزها . ولا حين الذى يرجون . وأنَّى والصّديقُ بين أظهرُهم فقام حاسراً مشمِّرًا . قد رفع حاشِيَتَيْهِ . وجمع قُطْرَيْه . فردَّ نَشْرَ الدِّين على غِرِّه ، ولمَّ شعثَه بطيِّهِ ، وأقام أوَدَهُ بثِقَافهِ ، فابْذَعرّ النِّفاقُ بوطأتهِ ، وانتاشَ الدينُ فنعشهُ . فلما أروح الحقُّ على أهله . وأقرَّ الرءوسُ على كواهِلها . وحقَنَ الدماءَ فى أُهُبِها . حضرتْهُ منيّتهُ ، فسد ثُلمتَه بشقيقه فى الْمَرْحَمة ، ونظيره فى السِّيرة والمَعْدِلة ، ذاك ابنُ الخطّاب لله أمٌّ حملتْ بهِ ، ودرّت عليهِ ، لقد أوحدت ، ففنخ الكفرَة وَديخها . وشرَّد الشِّرْكَ شَذَرَ مَذَرَ ، وبَعَجَ الأرضَ وبَخعَها ، فقاءت أكلَها ، ولفظت خبَأَها ، ترأمُه ويصدّعنها وتَصَدّى له ويأباها . ثم وَزّعَ فَيْئَها فيها ، وتركها كما صَحِبها . فأرونى ماذا ترتئُون ؟ وأىّ يومَيْ أبى تَنْقِمُون ؟ أيوم إقامته إذ عَدَل فيكم ؟ أم يوم ظَعْنِه إذ نظر لكم ؟ أقول هذا وأستغفر الله لى ولكم » اه

وأظنكم تريدونني أن أحدثكم طويلاً فى البقيّة الباقية، والنواحى الخالدة، من آثار ذلك العصر، سواء أكانت سياسية، أم أدبية، أم عُمْرانية، وسواء أكانت دينية أم حربية، ولكنكم تعلمون من اطلاعكم الوفير على ما كتبهُ الطبرى وابن الأثير وغيرهما فى حياة زعيمى العصر : أبى بكر وعمر بن الخطاب أن حياتهما تُمثِّلاَن فلسفةَ الشِّدة وفلسفة اللين، وإن كان جوهرُ تأديب المسلمين واحداً لم يتغيّر، ثم إن اطلاعكم على ما كان من إعجاز القرآن وطريقة جمعه وما فيهِ من عمرانيات ودينيات وبلاغات يجعلكم ترجِّحون أنّ اشتغال الناس به تَرَكَ الشعرَ وما إلى الشعر والعلمَ وما الى العلم فى المرتبة الثانية .

وإنى أعتقد أنكم تقدِّرُون معى ثروةَ هذا العصر العظيم جدًّا فى القادة والأبطال وتقدرون أن كل بطل منهم بحاجة إلى الدرس . وكل موقعة من مواقعهم العديدة فى الفرس والروم والشام وشتى بلاد العرب فيها عِظاتُها وفيها دُرُوسُها، وأخيراً أعتقد أن الأمور التى بيناها لكم فيما قدّمنا من الإلمامات الساذجة تستلزم أن ننتقل بكم إلى حديثنا الأخير .

هناك عند « لودى » قال أحد ضباط نابليون لقائده : « مستحيل على أية قوة أن تَعبُرَ هذا الجسرَ الضيّقَ وهى لا محالةَ مستقبلة نيرانَ العدوّ المهلكةَ ! »

وهناك عند « لودى » قال نابليون بونابرت كلمته الخالدة : « تقول : مستحيل ! لعمرك ليست هذه الكلمة بفرنسية، معشر الجند هاموا فاتبعوا قائدكم ! »

بمثل هذه العقيدة، وبمثل هذا الإيمان، وبمثل تلك الإرادة، كان يحاربُ جندُ العرب وكان ينجح قادةُ العرب . وأكَرِّر لكم أى شبابنا الناهضين، فلذة الأكباد وموضع الآمال : أنهم لم ينجحوا بعدَد ولا قوّة، وإنما كانت عُدَّتُهم وقوتُهم ومدَدُهم وذخيرتهم، فى نفوسهم، ومن نفوسهم، وفى أخلاقهم، ومن أخلاقهم، حتى كانت

كلمة « مستحيل » غير موجودة فعلاً فى قاموس حروبهم ومُعْجَم مواقعهم !

لتنظروا فى حياة أىّ قائد من قُوّاد ذلك العصر فى عشرات المواقع ، بل لتنظروا فى تعليمات الخلفاء لأى قائد من قُوّاد ذلك العصر مهما كانت مكانتُه من قومه أو صاحب الرسالة تَجِدْهُ يقول له مثلَ مقالة عمر بن الخطاب لسعد بن أبى وقّاص : « يا سعدُ ، ابنَ أمّ سعد ! لا يغرّنك من الله أن يقال خال رسول الله ، وصاحب رسول الله ! فإنَّ الله لا يمحو السيء بالسيء ، ولكنّه يمحو السيء بالحسن ، وليس بين الله و بين أحد نسبٌ إلا بطاعته ، فالناس فى دين الله سواء ، وهم عباده يتفاضلون عنده بالعافية ، ويدركون ما عنده بالطاعة ، فانظُر الأمرَ الذى رأيتَ فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم يلزمه فالزمه »

ولست أشُكّ فى أنكم قد وقفتم طويلا عند تلك الكلمات الخالدة : « ليس بين الله و بين أحد نسب إلا بطاعته » . ولستُ أشُكّ أنكم تركتم للفكر عِنَانَه ، فذكرتم من كلمات صاحب الرسالة بباب الكعبة ثانى يوم الفتح قوله : « يا معشر قريش ! إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظيمها بالآباء ، الناسُ من آدم وآدمُ من تراب . « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ » . ولستُ أشُكّ أنكم ذكرتم أن النبىّ بعد اعتماره ورجوعه إلى المدينة استعمل على مكة « عَتَّابَ بن أَسيد » وهو يُنيف على العشرين سنة ، غلبه التقشّفُ والزهدُ وكان أوّل أمير حجّ الإسلام وحج المشركين على مشاعرهم . ولستُ أشك أنكم ذكرتم وفدَ ثقيف الذى حضر إلى الرسول بعد أن أعنته مالك بن عوف واستباحهم وأنهم بعد أن أسلموا أمّرَ عليهم الرسول « عثمانَ بن أبى العاصى » وهو أصغرُهم سنًّا ، ولكنه أكثرهم فقهًا . ولستُ أشك أنكم تذكرون أن خالد بن الوليد أُمِّرَ على

المسلمين وهم في طَرَاوة الإهاب ، وشَرْخ الشَّبَاب ، وأن أسامة بنَ زيد ما زلتم تذكرون أمره وأمرَ عمر بن الخطاب في شأنه وأمرَ أبي بكر الصديق في تفضيله والاستمساك بقيادته . لست أشك أنكم تركتم للفكر عِنَانه عند تلك الكلمات فآمنتم بأن الأمَمَ لا تحيا إلا بأعمالها ، وإلَّا بإحقاق حقّ أهلها ، وإلَّا بالقضاء على الحسَب والنَّسَب إن كانا هما فقط ميزة الرجال ، دون تفاضل الأعمال !

وإني لا إخَالكم ذاكرين ذلك ومقدّرين أثرَه في نجاح العرب في ذلك الصدر الأوّل إذا ما ذكرتم تلك الأسبابَ الأخرى التي لا أشكّ في استيعابكم لها جميعاً من نَجْدَةِ القوم ، واعتقادهم بقضاء الله وقَدَره ، ونشاطهم ، وخِفَّةِ أثقالهم ، وخشونة معيشتهم ، وقوةِ مِرَاسِهم حين منازلتهم ، ودُرْبَة فُرْسانهم ، وفروسية غِلْمَانهم ، ورُسوخ إيمانهم ، والعمل بقرآنهم ، مع ما كان عليه جيرانُهم من الفرس والروم من تشتتِ شملٍ ، واختلافِ كلمة ، وتناحر أحزاب ، ورَفَاهِيَةِ شُيوخ وشَبَابٍ !

عمر بن الخطاب

(١)

« توماس كارليل » كاتبٌ عُرِف بفلسفته التاريخية ، فله فيها طابعٌ خاصّ ، ولتفكيره وتعليله مَنْحًى خاصّ . وهو صاحبُ تلك الكلمة المأثورة : « لم يكن تاريخ العالَم إلا تاريخَ عظمائه » . فنحن نُحاوِل أن نكتب فَذْلكةً مُوجزةً عن عظيم من عظماء العالم ، لعِبَ دورا هامًّا فى قلب تاريخ العالم . وفى تغيير خريطة العالم قديمًا وحديثًا .

ولسنا نشُك أن العبقرية لا تنبُت من جدْب . ولا نشُكّ أن الزعامة لا تُولد من عُقْم . بل لا بدّ من ظروف واعتبارات من زمن ومكان ، ومن بيئة ووراثة . وإذا كانت أثينا وصلت فى عصر بركليس إلى ذِرْوة الحضارة فذلك العصرُ كان غنيًّا بأترابه ولِدَاتِه ، وأشباهه ونظرائه ، أمثال : انكساغورس وسوفكليس وهيرودت وتيوسيديد؛ فانكم تستطيعون أن تفهموا كيف نبت مثلُ عمرَ بن الخطّاب وهو من عصر النبيّ وفى زمالة صحابة كأبى بكر وأمثال أبى بكر. وتستطيعون أن تستسيغوا عبقريّةً كعبقريته ، وشخصيةً كشخصيته ، لتقديركم لعصره ، وعصر أثَّرَ فيه ، فلن تجشمونى مئونة التبسُّط معكم فى كلمة كهذه فى كل مناحى القول الخُلُقية ببحث فى عُمرَ وعصر عُمرَ ، وإنما سأُعْنى لكم إلى حد غير قليل فى تصويرى لكم عمر بن الخطاب بالتكلم بصفة خاصّة فى مناقبه ، تمشيًا مع كلمة كارليل ، وأخذًا بالمنهج التاريخى الأخير ، من التنكب بالقارئ وعقلية القارئ عن شحن ذهنه بالحروب والوقائع ، وما إلى الحروب والوقائع ، من سنين وأيام ، ومواقع وقتال ، وصُلح وسجال ، الى جعل التاريخ قصّةً . وقصةً مجيدةً لنواحى خُلُقية مجيدة ،

واتخاذ هـذه القصة المجيدة أُمْثُولةً للاقتداء ، ودرساً للاحتذاء ، وشخصيّةً فذّة للاهتداء . وإنكم لجدّ عالمين أن للسياسة مناحيَ مختلفة ، ولها تعاريج ولغات ، ولأبطالها مميِّزات متباينة . فلسياسة الخَتْل أبطالٌ ؛ ولسياسة الشدّة أبطالٌ ؛ ولسياسة اللين أبطالٌ ؛ فيجب أن يكون لسياسة الأخلاق أبطال . وسنرى فى أيّة مرتبةٍ نضع عمر من بين هؤلاء جميعاً .

وقد يكون من حقكم علينا أن نُلفت أنظاركم إلى بيت من الشِّعر الانجليزى يحفظه طَلَبَةُ التاريخ الدستورى وهو ما ترجمته : « دع البُلْهَ يتحاجّون عن أحسن أنواع الحكومات ، ولتعلم أنَّ خيرها نوعًا ما كان أدقَّها إدارةً » .

نخلوا عن أذهانكم الآن أنواع الحكومات ، وانُسوا إلى حين قليل الأسماء الحديثة التى تطرُق أذهاننا الفَيْنة بعد الفَيْنة ، من حكومة برلمانية ملكية ، إلى جمهورية ، إلى دكتاتورية ، إلى سوفيتية . وخلوا عن أذهانكم الأسماء القديمة من أمبراطورية أو أوتوقراطيـة أو أرستوقراطية . وإن كنتُ أحب لكم دواماً أن تحرصوا الحرص كله على حكم الشورى ، وأن تشربوا قلوبكم حب وطنكم ودستوركم واستقلالكم وحرية شعبكم .

كذلك من حقكم علينا أن نقول لكم : إن العظمة لم تحتكرها أمةٌ من الأمم ، ولم تختصَّ بها دولةٌ دون أخرى . ولم تكن بميزة زمن على زمن ، ولا بوقفٍ على عصر دون عصر ، بل هى مُشاعةٌ للجميع . فهل لكم أن تبحثوا عنها عند الجميع ، وأن تنال من عنايتكم ودرسكم وإمعانكم وفحصكم على قدر سواء . سواء أكانت فى فرنسا أم انجلترا أم المانيا ، وسواء أكانت فى بلاد العرب المقفرةِ وصحاريهم المحرقة، وسواء أكانت عن « بوذا » أم « كونفشيوس » ، وسواء أكانت عن مسلم أو غير مسلم ؟ ذلك لأنكم يا أصحابى فى عصر يخضع للذّهنيات الفذّة ، ويُذْعِن

للعقول الجبّارة ، ويُقدّس العبقرياتِ النادرة . فلننشد هؤلاء أنّى وُجدوا ولندرس هؤلاء أنّى كانوا .

(٢)

وصيّة ميت ، ولكنّه حيّ ؛ حيّ فى ضميره وفى وجْدانه ؛ حيّ فى يقينه وفى إيمانه ، وهو وإن كان ميتًا فهو خيرٌ من ألف حيّ ، وهو وإن كان حيًّا فأكثر تقديرًا لحساب الله من ألف ميت . تلك هى وصية أبى بكر فى اختيار عمر بن الخطاب

ولست فى حاجةٍ لأن أزيد علمكم الجَمّ عن أبى بكر وقدْره ، ولا من غايتى هنا أن أتبَسَّطَ معكم فى مناحى القول عن تبتُّله وتقشُّفه . ولا من بُغيتى التحدُّث اليكم عن زُهْده وتعففه ، لأنكم قد قرأتم بلا ريب — فى الكثير الذى قرأتم — عن أبى بكر ما رواه ابن سعد عن عطاء أنه لما وَلِىَ الخلافة « رأى أن يستمرّ على استغلال مُلكه ، والارتزاق من وراء عمل يده ، ولا يُنْفِق على نفسه من بيت مال المسلمين شيئًا ، فأصبح يومًا وعلى ساعده أبراد[1] ، وهو ذاهبٌ إلى السوق ، فَلَقِيَه عمرُ فقال : أين تريد ؟ قال : إلى السوق . قال : تصنع ماذا وقد وليت أمر المسلمين ! قال : من أين أُطعم عيالى ؟ فقال : انطلق يَفْرِضْ لك أبو عبيدة ؛ فانطلقا الى أبى عبيدة فقال : أفرض لك قوت رجل من المهاجرين ليس بأفضلهم ولا أوكسهم وكسوة الشتاء والصيف . إذا أخلقت شيئًا رددته وأخذت غيره ؛ ففرض له كلّ يوم نصف شاة وما كساه فى الرأس والبطن »

فرض هذا أو شيئًا كهذا وإذ بذلك الكبير لا فى إسلامه وخلافته فحسبُ ، بل فى جاهليته وعند قومه، إذ به ينتقص بنفسه مما قُدِّر له ، ثم إذ به عند موته يأمر ببيع ما يمتلك لسداد بيت المال ، وردِّ ما أخذه من وظيفته بصفته خليفة رسول

(١) الأبراد جمع برد وهى ثوب مخطط وأكسية يلتحف بها الواحدة ساء .

المسلمين ؛ فانكم بلا ريب قد قرأتم ما أثبته جُلّ الرُّواة ، وجُلُّ المؤرخين ، وجُلُّ المحققين من : « أن زوجته اشتهت حلواً فقال : ليس لنا ما نشترى به ! فقالت : أنا أستفضل من نفقتنا فى عدّة أيام ما نشترى به ؛ فقال : افعلى ففعلت ذلك ، فاجتمع لها فى أيام كثيرة شيء يسير ، فلما عرّفته ذلك ليشترى به حلواً أخذه فردّه الى بيت المال وقال : هذا يفضل عن قوتنا وأسقَط نفقتَه بقدر ما نقصتْ كلّ يوم وغرمه لبيت المال من ملك كان له » ثم لا ريب عندى فى أنكم قرأتم ما رواه الطبرى : « أن أبا بكر لما حضرته الوفاة ؛ قال : أنظروا كم أنفقتُ منذ وَلِيتُ بيتَ المال فاقضوه عنّى » كما قرأتم وصية أبى بكر بخمس ماله ، ولستُ أَشُكُّ فى حسن تعليلكم ، ودقيق تفهمكم ، وسديد حكمكم لقوله فيها : « آخذ من مالى ما أخذ الله من فىء المسلمين ! »

فرجلٌ كأبى بكر فى صحابته للنبىّ ، ومعاصرته للنبىّ ولرسالة النبىّ . رجل كأبى بكر فى مبادرته إلى الإيمان بتعاليم النبىّ ، ومعاضدته بنفسه وماله فى سبيل نُصرة ما يرضى الإيمان ورسول الإيمان ، لن يحتمل مسئوليةَ اختيار عمر بن الخطاب إلا إذا كان عمرُ الرجل الكامل .

(٣)

يقول أُسَيْدُ بنُ حُضير[١] حينما سأله أبو بكر عن عمر ، وأبو بكر كان دستورىّ النزعة ، جُبلت نفسه الخالصة لله ، وحبّ خلق الله ، على الاستشارة والنزول على رأى الجماعة ، يقول أُسيد : « اللهم أعلمه الخيرَ بعدك ، يرضى للرضا ، ويسخط للسخط ، الذى يسرُّ خيرٌ من الذى يُعْلِنُ ، ولن يَلِى هذا الأمرَ أحد أقوى عليه منه » .
ويجيب عثمان بن عفان أبا بكر : « أنت أخبرنا به » فقال أبو بكر : « علىَّ ذلك

(١) أسيد بن حضير : صحابىّ مشهور ويقال لأبيه حضير الكتائب

يا أبا عبد الله أخبرني عن عمر » فقال : « اللهم علمي به إن سريرته خير من علانيته ، وأنه ليس فينا مثلُه ! » .

ويَرْوى لنا الطبرى أن طلحة بن عُبيْدِ الله دخل على أبي بكر وقال : « ما أنت قائل لربك إذا سألك عن استخلافك عمرَ علينا وقد نرى غِلظتهُ ، فقال أبو بكر : بالله تخوِّفني ! أقول : اللهم إني استخلفت عليهم خير أهلك أبلغ عني ماقلت من ورائك » ثم لم يكتف بذلك بل قال أثناء مرض وفاته لعبد الرحمن بن عوف حينما وجد الخليفة مهتماً ، وبَشّره أنه بحمد الله أصبح بارئاً : « أما إني على ذلك لشديد الوجع ، ولما لقيت منكم يا معشر المهاجرين أشدّ عليّ من وجعي ، إني وليّت أموركم خيركم في نفسي ، فكلكم ورمَ من ذلك أنفهُ ، يريد أن يكون له الأمر من دونه ، ورأيتم الدنيا قد أقبلتْ ولما تُقبل وهي مقبلة ، حتى تتخذوا ستور الحرير ونضائد الديباج ، وتألمون الاضطجاع على الصوف ، كما يألم أحدُكم الاضطجاع على شَوْك السّعْدَان(١) ، والله لأن يقدم أحدكم فتُضرب عنقه في غير حدّ ، خير له من أن يخوض في غمرة الدنيا ، ألا وإنكم أوّل ضال بالناس غداً فتصدوهم عن الطريق يميناً وشمالاً ، يا هادي الطريق انما هو الفجر أو البحر ! » فأجابه عبد الرحمن ابن عوف : « خَفِّضْ عليك يرحمْك الله ! فان هذا مما يَهيضُك على ما بك ، انما الناس في أمرك بين رجلين ، إما رجل رأى ما رأيت فهو معك ، وإما رجل خالفك فهو يُشِير عليك برأيه ، وصاحبك كما تحب ولا نعلمك أردت إلا الخيرَ ، ولم تزل صالحاً مصلحاً ، مع انك لا تأسى على شيء من الدنيا »

ولستُ أرتاب أنكم تقدِّرون تلك الاعتبارات السامية ، وتلك المعتلجات النفسية الشريفة ، التي حدت بشخصية فذّة في حلم أبي بكر ورقة حاشيته ، وسعة

(١) السعدان : نبت له شوك وهو رعى الابل

عَطَنه ، وأدبه مع ربه ونفسه والناس جميعاً ، حتى يلتهب أُوَاره ، وتضطرمَ ناره ، لا فى سبيل عمر وإحقاق مكانة عمر ، بل فى سبيل المصلحة القومية العامة ، وفى سبيل نُصرة الزعامة الكاملة الصحيحة

ولعلنا لا نعدو الحقَّ فى قليل أو كثير ، إذا اقترضنا فى غير مبالغة ولا إغراق ، بل نزولاً على المنطق وما يُرضى المنطق ، إذا قلنا : إن نشوء هذه المصلحة القومية العامة، ونُصرة الزعامة الكاملة الصحيحة هى هى بنفسها التى حدثت بالنبىّ محمد بطل الرسالة والهداية ، وما أنتجتها الرسالة والهداية من عرفان وإيمان ، ومناقبَ حِسانٍ ، وخير عميم لنبىّ الانسان ، حتى سأل ربّه الذى يُعِزّ من يشاء ، ويُذِل من يشاء ، ويعطِى الملك من يشاء ، ويَنزع الملك ممن يشاء ، سأله « اللهم أعزّ الاسلام بعمر ! »

(٤)

طبَعِىّ أنكم تحبون عمر بن الخطاب من كلام هؤلاء جميعاً . فمن نبىّ كريم يسأل ربّه إعزاز دعوته بعمر ، أو بأحد العُمَرَين كما فى رواية أخرى . إلى خليفة عظيم لا يرى أثناء حياته وفى مماته غير عمر يركَن اليه ، ويذُبّ عنه ، ويُشِيد بذكره ، وينضَح عن كفايته ومواهبه . ومن صحابة أبرار ليس لهم من طَماعية فى الازدلاف ، وليس فى أخلاقهم شىء من ألوان المَلق والخداع ، وجُبلوا جميعاً على الصراحة والصدق . كما جبلوا على الرجولة ، وما فى الرجولة من بطولة وفُروسية ومناصرة للحق ، لا يرَون من رجل للموقف والساعة إلا فى عمر ، ولم يستطيعوا أن يقولوا شيئاً يَثلِمُ صفحته ، أو ينتقص من شخصيته إلا ما ذهب اليه أحدهم فى إجابته لأبى بكر : « هو والله أفضل من رأيك فيه من رجل ، ولكن فيه غلظة »، بَيْدَ أَن هذه الناحية قد أصاب أبو بكر المحَجّة فى تعليلها حيث يقول : « ذلك لأنه يرانى رقيقاً ، ولو أفضى الأمر اليه لترك كثيراً مما هو فيه » .

طبعيّ أنكم تحبون عمر بن الخطاب من كلام هؤلاء جميعاً. وطبعيّ أنكم لا تَحْفِلون كثيراً بأن تعلموا أن عمر بن الخطاب هو ابن نُفَيْل بن العُزَّى أو أن العزى هو ابن رياح ابن عبد الله بن قُرْط أو أن قرط هو ابن رزاح بن عدى بن كعب بن لؤى. أو أنه ينتهى مع رسول الله فى كعب بن لؤى. كما لا تَحْفلون كَثيراً بأنه يُكنى بأبى حفص ويلقب بالفاروق، أو أنه من أشرف بيوتات قريش واليه السفارة فى الجاهلية، حيث يَفزَعون اليه فى منافرتهم ومفاخرتهم، وقد كانت حياةُ القوم يومئذ منافرة ومفاخرة. كما لا تحفلون كثيراً بأنه أسلم وهو فى السابعة والعشرين من عمره، أو أنه ولد بعد عام الفيل بثلاث عشرة سنة، أو أنه بمجرد دخوله فى زمرة المسلمين أشار على النبي بترك التستر والاختفاء وأن يدعُو للاسلام جهرة وعلناً.

طَبَعِيٌّ أنكم تحبون عمر بن الخطاب من كلام هؤلاء جميعًا. وَطَبَعِيٌّ أنكم لا تحفلون كثيراً بما ذكرناه، ذلك لأنكم تنزعون إلى جانب حبكم لعمر الذى غرسَ فى قلبكم من كلام هؤلاء، تنزعون إلى ما يرضى نهمتكم، أو يتمشَّى مع حبكم للمسيح من قراءة رينان أو پاپينى أو أميل لدوج، ومع حبكم لجلادستون من مورلى، وحبكم لجولسون من بوذول، وحبكم لفردرك الأكبر من كارليل. وحبكم لنابليون من أبوت ولنفسكم الطموحة المثقفة ما أحبت هؤلاء إلا لأنها عاشت مع هؤلاء، وإلا لأنها زاملت كلاًّ من هؤلاء زمالة الروح للروح والصديق للصديق، ولست أرتاب فى أنكم محقون فى رغبتكم العامية العادلة فى تكوين رأيكم لنفسكم ومن درسكم. ولست أرتاح لكم أن تتعصبوا لعمر من غير أن تعرفوا عمر.

(٥)

تحيا الأمم بالعمل؛ وبالعمل المنتج المثمر؛ وبعمل الأفراد وجهود الأفراد، لا من الاتكال وسياسة الاتكال. والحاكم المتيقظ مفروض عليه أن يَبُثَّ فى نفوس أمته

حبَّ العمل ، وحبَّ تحصيل الرزق من وراء العمل . وقد كان عمرُ لا ينفك يُحارب رذيلة الاسترخاء بقدر ما كان يقاوم روح التوكل والاستنامة .

يقول كتاب كنز العمال نقلاً عن معاوية بن قُرَّة : « لقى عمر بن الخطاب ناساً من أهـل اليمن ، فقال : من أنتم ؟ فقالوا : متوكلون ! فقال : كذبتم ، ما أنتم متوكلون ، إنما المتوكل رجل ألقى حبة الى أرض وتوكل على الله »

ويقول صاحب أشهر مشاهير الاسلام نقلاً عن كتاب المناقب لأبى الفرج ابن الجَوْزى عن ابن سيرين عن أبيه ، قال : « شهِدْت مع عمر بن الخطاب المغرب ومعى رزيمة لى ، فقال : ما هذا معك ؟ فقلت : رزيمة لى أقوم فى هذا السوق فأشترى وأبيع ، فقال : يا معشر قريش ، لا يغلبنكم هذا وأشباهه على التجارة فانها ثلث الامارة » ومما جاء فيه عن جواب التيمى قال : قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « يا معشر القراء ! ارفعوا رءوسكم فقد وضح الطريق ، واستبقوا الخيرات ، ولا تكونوا عِيَالاً على المسلمين » إلى أن قال : « من تَجَرَ فى شىء ثلاثَ مراتٍ فلم يُصِب فيه شيئاً فليتحوّل الى غيره »

ويقول صاحب العقد الفريد : « قال عمرُ بن الخطاب : لَا يَقْعُد أحدكُم عن طلب الرزق ، ويقول : اللهم ارْزُقْنى ، وقد عَلِمَ أَن السماء لا تَمْطُرُ ذهباً ولا فِضَّةً ، وأن الله تعالى إنما يرزق الناسَ بعضَهم من بعض . . وتلا قولَ الله جلَّ وعلا : « فَإِذَا قُضِيتِ الصلاةُ فانتَشِرُوا فى الارضِ ، وابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ ، واذْكرُوا اللهَ كثيراً لعلّكم تُفْلِحُونَ »

فماذا نستطيع أن نَستخْلِص من هذه الرواياتِ الإجماعية ؟

نستطيع أن نستخلص من ذلك كلِّه أن عمر كان داعيةَ خير إلى العمل ، إلى الكسب ، إلى الارتزاق ، إلى أن يبذل كلّ جهده لإسعاد نفسه ومَن يعول .

إلى أن ينبُذَ الجميع من قرّاء ورجال دِين ، أو غير قُرّاء ورجال دِين على حدّ سواء ، سياسة الاتكال ، فما قتل الأمم وقضَى عليها بالهرَم والشيخوخة ، وبالفناء والزوال إلا انتشارُ مرض الكسل بين ظهْرَانيهم ، وإلا ذيوعُ وباء الاتكال فى صفوفهم ، وإلا ركونُهم إلى الدَّعَة واستنامتِهم إلى المصادفة .

دعوةٌ إسلاميّة دخل الناسُ فيها أفواجاً ، ونفوسٌ عبثتْ بها الرِّدة أو الوثنية أو غيرُ دين الاسلام ثم دخلت فى الاسلام حديثاً ، وكادت تُفَسِّر الدين على غير وجهه ، فاذا بعمر الداعيةِ الإصلاحى ، والخليفةِ الصحابى ، يجول ويصول ليقولَ لهؤلاء وهؤلاء : إن عبادة الرحمن لها ساعاتُها ، وهى ليست بحائلة أو مانعة عن العمل والسعى لإقامة أَوَدِ الحياة ، بل على النقيض فإنه يأمر بالعمل . والعمل سِرُّ نجاح الأفراد وسرّ نجاح الأمم .

(٦)

« محمد بن مَسْلَمة » أحد الصحابة المشهود لهم بالتقوى والصلاح ، المعروف بالتدقيق والتحقيق ، مع زهد وورَع ، كان يشغل وظيفة مفتش عام على الولاة فى أيام عمر بن الخطاب ، وقد أثبت الطبرىّ عنه مهماتٍ عديدةً نهض بها تبيِّن مبلغَ عناية عمرَ بن الخطاب باستتباب العدل وإقامة صروحه ، ويكفيك أن تنظر فى حوادث سنة ٣١ هـ وما كان منه مما ينتهى بك إلى الجزم بشدة مراقبة عمر لعماله أخذاً بناصر الضعيف من القوىّ ، وإرغاماً للقوىّ باحقاق حق الضعيف ، وجرياً للعدل ، ونفاذاً للحق ، بل كان يُعْنَى أجل العناية بأمر العبيد ، وَيَحْفِل أيّما حَفِيل بألا يفرق عُمّاله فى المعاملة بينهم وبين الأحرار ، ولا غَرْوَ فهو صاحب تلك الكلمة الهائلة التى صرّح بها فى وجه ابن عمرو بن العاص حين اعتدائه على أحد المصريين : « كيف استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ! » فلا غَرْوَ إذا حدّثنا الأسود

ابن يزيد فى الطبرىّ قال : « كان الوفدُ إذا قَدِمُوا على عمر سألهم عن أميرهم ، فيقولون خيراً ، فيقول : هل يعود مرضاكم ؟ فيقولون نعم ، فيقول : هل يعود العبد ؟ فيقولون نعم ، فيقول : كيف صنيعه بالضعيف وهل يجلس على بابه ؟ فان قالوا : لا ، عزله »

بل أكثر من هذا !

فقد بلغ من رقة قلب عمر ، ومبالغته فى الحرص على راحة رعيّته — رعيته البعيدة والقريبة على حدٍّ سواء — ما يسرُدُه علينا الطبرىّ فى حوادث سنة ١٧ ﻫ عن عامل الأهواز الذى نزلَ جَبَل الأهواز ، وجشّم الناس المتاعب والصعاب فى الاختلاف اليه ، وأن عمر بن الخطاب بعث اليه مؤنباً اتخاذه هذه « القيلا » فى مَصِيف كئُود يُشقّ على من رامه وكتب له ما نصه : « أما بعد ، فقد بلغنى أنك نزلت منزلاً كئوداً لا تُؤْتَى فيه إلا على مَشَقّة ، فاسهل ولا تَشِقّ على مُسلم ولا مُعاهد ، وقم فى أمرك على رِجْل تدرك الآخرة ، وتَصِف لك الدنيا ، ولا تدركنّك فتْرةٌ ولا عَجَلَةٌ ، فتكدرَ دنياك وتذهبَ آخرتك » .

أما وصاياه العمال لاجراء العدل ، والتمسك بروح العدل فكثيرة ، كثيرة جدًّا ، واليكم مثلاً بسيطاً من مئات الأمثلة المُتْرَعَة بها كتبُ التاريخ العربية جميعاً . اليكم مثلاً عادياً ، هو كتاب عادى كتبه عمر إلى أبى موسى مما أثبته الطبرىّ وغير الطبرىّ ، قال فيه : « إنه لم يزل للناس وجوهٌ يرفعون حوائجه ، فأكرم مَنْ قبلَك من وجوه الناس ، وبحسب المسلم الضعيف من العدل أن يُنْصَفَ فى الحُكْم وفى القَسْم » ويقول أبو رَوَاحة : كتب عمر بن الخطاب الى العمّال : « اجعلوا الناس عندكم فى الحق سواء ، قريبهم كبعيدهم ، وبعيدهم كقريبهم . إياكم والرشا ، والحكم بالهوى ، وأن تأخذوا الناس عند الغضب ، فقوموا بالحق ولو ساعة من النهار »

بل أكثر من هذا !

فقد خطب الناس عمر فقال: « يأيها الناس، إنى والله ما أرسل عُمّالاً اليكم ليضربوا أبشاركم، ولا ليأخذوا أموالكم، ولكنى أرسلهم اليكم ليُعلّموكم دينكم وسنّتكم، وَيَقْضُوا بينكم بالحق، ويحكموا بينكم بالعدل، فمن فعل به شيء سوى ذلك فليرفعه الىَّ، فوالذى نفس عمر بيده لأقصنه منه» . قيل: فوثب عمرو بن العاص وكان من مستمعى خطابته فقال: « يا أمير المؤمنين، أرأيت ان كان رجل من أمراء المسلمين على رعيته، فأدّبَ بعض رعيته، إنك لتقصنه منه؟ » قال عمر: « أى والذى نفس عمر بيده إذاً لأقصنه، وكيف لا أقصه منه، وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقص من نفسه، ألا لا تضربوا المسلمين فتذلوهم، ولا تجمروهم فتفتنوهم، ولا تمنعوهم حقوهم فتكفروهم، ولا تنزلوهم الغِيَاض فتضيعوهم » اهـ

فأنتم ترون من هذا كله وهو قطرة من بحر، صدق وصف صعصعة بن صُوحان لعمر بن الخطاب وقد سأله معاوية أن يصفه له فقال: «كان عالماً برعيته. عادلاً فى قضيته، عارياً عن الكبر. قبولاً للعذر، سهل الحجاب، مَصُون الباب، متحرّياً للصواب، رفيقاً بالضعيف غير محارب للقريب، ولا جاف للغريب»

(٧)

العبقريّة الصحيحة سرُّها غير علانيتها، أو تحمل علانيتها غلالة قليلة من فيض سرِّها. والعبقريّة الصحيحة أعمال أكثر منها أقوالاً، أو تكون أقوالُ أصحابها مرآةً مصغرةً لأصل جليل رائع، والعبقرية الصحيحة كثيراً ما يُخطىء الناس فى تفهمُّها، لأنها شاذةٌ فهى فوق مُستوَى العقلية العامة. ولأنها جبّارة فى نأيها عما تَواضَع عليه الناس من تفكير وتقدير، ولأنها طَموحةٌ للكمال دَءوبة على بلوغه، قويّةُ الإرادة عنيفَتُها مع أعدى أعدائها، وما أعدى أعدائها إلا نفسُها الخاطئة، يوم تكون خاطئة، وبيئتها الخاطئة! لأن العبقريات الصحيحة تُحبّ الخيرَ العام وَتَنْشُده

لنفسها وللميحط الذى تعيش فيه . وتمقُت الشرّ العام لنفسها وللبيئة التى تعيش فيها .

نقول إن أعدى أعداء العبقريات الصحيحة هى نفسها الخاطئة و بيئتها الخاطئة ، لأن النفوس الكبيرة تحب غيرها حبّ النفس ، ثم هى تمقت لغيرها ما تمقته للنفس ، ثم هى تُحارب عند غيرها ما تُحارب به عند النفس ، ولعله بسبب هذه الظاهرة العنيفة من مبالغة فى حبّ خير « الغيرية » الى مبالغة فى مقاومة شرّ « الغيرية » ، يمكننا أن نفهم تبريرَ قول من اتّهم عمرَ بن الخطاب بجُنُوح الى العُنف ، وإن كان هذا الجنوح الى العنف لايدل فى أعماقه إلا على الأب الرءوف ، ولا يحمل فى طَيّاته إلا قلبَ الوالد العَطُوف ، ثم هو كله متفجّرُ رحمةٍ وفيضُ حَنان .

إن عمر الشديد فى تأديب رعيّته ، كان شديداً أيضاً فى تأديب نفسه وفى تأديب أُسْرته . ولعلك قرأتَ ما أخرجه الحافظ عز الدين الجزرى فى « أسد الغابة » قال : « قال الأحنف بن قيس : كنت مع عمر بن الخطاب فلقيه رجل فقال : يا أمير المؤمنين ، انطلق معى فأَعِذْنى على فلان . . . فانه قد ظلمنى ، فرفع عمرُ الدِّرَّة نخفق بها رأسَه . فقال : تدَعون أميرَ المؤمنين وهو معرّض لكم ، حتى اذا شغل فى أمر من أمور المسلمين أتيتموه أعذنى ! أعذنى ! قال : فانصرف الرجل وهو يتذمّر قال « عمر » : علىَّ بالرجل ، فألقى اليه المخفقة وقال : امتثل « اضربنى كما ضربتك ! ! » فقال : لا والله ، ولكن أدعها لله ولك . قال : ليس هكذا إما أن تدعها لله ارادةَ ما عنده ، أو تدعها لى فأعلم ذلك . قال : أدعها لله ، ثم قال الأحنف : فانصرف « عمر » ثم جاء يمشى حتى دخل منزله ، ونحن معه ، فصلى ركعتين وجلس فقال مخاطباً نفسه : « يا بن الخطاب ! كنت وضيعاً فرفعك الله ، وكنت ضالاً فهداك الله ، وكنت ذليلاً فأعزك الله ، ثم حملك على رقاب الناس فجاءك رجل يستعيذ بك فضربته ، ما تقول لربك غداً اذا أتيته ؟ » قال «الأحنف»: ثم جعل يعاتب نفسه فى ذلك معاتبة حتى ظننا أنه خير أهل الأرض » اه

فأنتم ترون أن هذه الرغبة الصادقة فى التأديب كان مصدرها حبّه لتأديب نفسه أولاً ، ثم هى تشمل الناس وتعمّهم لأنها غير زائفة ، ثم هى تشمل أهلَ عمر قبل أن تشمل الناس . ولعلك قرأت ما ذكره ابن عساكر فى تاريخه . قال : «كان عمر اذا صعد المنبر فنهى الناس عن شىء جمع أهله فقال : إنى نهيت الناس عن كذا وكذا ، وإن الناس ينظرون اليكم نظر الطير الى اللحم ، وأقسم بالله لا أجد أحداً منكم فعله ، إلا أضعفتُ عليه العقوبة لمكانه منى »

هيهات أن تقولها إلا عبقرية تَسْعَدُ بها الانسانية يوم تُولَد ويوم تكون الكلمة لها ، ويوم تأخذ الناسَ بأدبها وخلقها وتقويمها وتعليمها !

وهيهات أن تقولها إلا قلوبٌ رحيمة فى أعماقها ، بَرَّةٌ حَدِبة فى سويدائها !

هى قلوبٌ رحيمةٌ ، وإن كانت عنيفة فى تأديبها لنفسها ، ولأهلها وللناس جمعاء ، وهم عندها بضعة من نفسها وأهلها . . . وهذا العنف فى ظاهره إن هو إلا رحمة . ورحمة متفجّرة فى باطنه

هى قلوبٌ رحيمة وعبقريات صحيحة ، ولعلكم تَدْهشون اذا ما رأيتم عمر الذى يُضعِف العقوبة لأهله ، والذى يقتصُّ من نفسه ، والذى لا يُفرِّط فى تأديب رعيته لأنها بضعة من نفسه . لعلك تَدْهَش اذا ما رأيته فى موقف آخر ، هو موقفه مع رجل من بنى أسد فقد جاء فى كنز العمال : « استعمل عمر بن الخطاب رجلاً من بنى أسد على عمل فجاء يأخذ عهده فأتى عمر ببعض ولده فقبله ؛ فقال الأسدى : أتقبل هذا يا أمير المؤمنين ، والله ما قبلت ولداً قطّ ؛ قال عمر : فأنت والله بالناس أقلّ رحمةً ، هات عهدنا لا تعمل لى عملاً أبداً »

يأبى عمر العظيم . عمر المثقِّف نفسه وأهله ورعيته بالثقافة الصحيحة ، الثقافة المنتجة ، ثقافة العمل والحضّ على العمل ، ثقافة الخير والأخذ بوجوه الخير . يأبى

أن يلى هذا الرجل الذى كان اختاره لولاية أمر المسلمين ، والذى ما اختاره إلا لما فيه من كفايات وحسنات ومميِّزات . . . لأنه تعوزه صفةٌ أخرى فى الحاكم ، صفة لا ككل الصفات ، بل أهمّ من كل الصفات . لأنها متممة لأكمل الصفات ، تلك هى صفة الرحمة .

(٨)

واذا كنتم قد أعجبتم بعمر الداعية الى العمل ، وما يحمله العمل فى طَيّاته من أخلاف الرزق ، وضروب السعادة ، ورفاهية الأمم ، وأعجبتم بعمر العدل ، والناشر للعدل ، والمذيع للعدل . وأعجبتم بعمر المؤدب لنفسه ولأهله ولرعيته . والذى لا يؤدب نفسه وأهله ورعيته إلا لأنه خيرىّ بنشأته وطبيعته ووراثته على حدّ تعبير « لمبروزو » ، فجدير بكم أن تعجبوا بعمر خادم الجميع .

أخرج الطبرى عن زيد بن أسلم عن أبيه . قال : «خرجت مع عمر بن الخطاب الى حَرّة ، حتى اذا كنا بصرار اذا نار تؤرث فقال : يا أسلم ، إنى أرى هؤلاء ركباً قصر بهم الليل والبرد ، انطلق بنا ، فخرجنا نُهرول حتى دنونا منهم ، فاذا امرأة معها صِبْيان لها ، وقِدْرٌ منصوبة على النار ، وصبيانها يتضاغَوْن ، فقال عمرُ : السلام عليكم يا أصحاب الضوء ، وكَرِهَ أن يقول يا أصحاب النار ! قالت : وعليك السلام . قال : أأدنو ؟ قالت : أدْنُ بخير أو دع . فدنا فقال : ما بال هؤلاء الصبية يتضاغَوْن ؟ قالت : الجوع ، قال : وأى شىء فى هذه القدر ؟ قالت : ما اسْكِتُهم به حتى يناموا ، الله بيننا وبين عُمَر ، قال : أى رحمك الله ما يدرى عمر بكم ، قالت : يتولى أمرنا ويغْفَلُ عنا ! فأقبل علىّ ، فقال : انطلق بنا . فخرجنا نُهَرْوِل حتى أتينا دار الدقيق ، فأخرج عِدْلاً فيه كَبّة شحم ؛ فقال : احمله علىّ ، فقلت : أنا أحمله عنك ، قال : احمله علىّ مرتين أو ثلاثاً ، كل ذلك وأنا أقول : أنا أحمله عنك ، فقال

فى آخر ذلك : أنت تحمل عنى وِزْرى يوم القيامة لا أمَّ لك . فحملته عليه ، وانطلق وانطلقتُ معه نهرول حتى انتهينا اليها ، فألقى ذلك عندها ، وأخرج من الدقيق شيئاً فجعل يقول لها : ذُرِّى علىَّ وأنا أحرِّك لك ، وجعل ينفُخُ تحت القِدْر ، وكان ذا لحيةٍ عظيمة ، فجعلتُ أنظر الى الدخان من خلل لحيته حتى أنضجَ وأدم القدر ثم أنزلها وقال : ابغنى شيئاً ، فأتته بقصعة فأفرغها فيها ، ثم جعل يقول : أطعميهم وأنا أسْطَح لك ، فلم يزل حتى شبعوا ، ثم خلّى عندها فضلَ ذلك ، وقام وقمت معه فجعلتْ تقول : جزاك الله خيراً أنت أولى بهذا الأمر من أمير المؤمنين . فيقول : قولى خيراً انك إذا جئت أمير المؤمنين وجدتنى هناك ان شاء الله ؛ ثم تنحّى ناحية عنها ، وربَض مربض السبع ، فجعلت أقول : إن لك شأناً غير هذا وهو لا يكلمنى حتى رأيت الصبية يصطرعون ويضحكون ، ثم ناموا وهدءوا ، فقام وهو يَحْمدُ الله ثم أقبل علىّ فقال : يا أسلم ، إن الجوع أسهرهم وأبكاهم فأحببت ألا أنصرف حتى أرى ما رأيت منهم ! »

كتاب آخر غير الطبرى « كتاب المناقب للجوزى » يحدّثنا فيه عن أنس ابن مالك ، وأنت تعلم من أنس بن مالك حتى لا تَجْرح ، وحتى لا تُنكر أو تكذّب ، وأنت معذور يا رفيقى إن جرحت أو أنكرت أو كذبت ، فإن عصر المادة يحبّ التجريح والإنكار والتكذيب . أو هو يغشى على الأقل سُحُباً قاتمة من الشك والريب فى كل ما هو روحانى وكل ما هو خُلُق . أو هو يفترض أو يجنح إلى الافتراض أن ما قدمناه لك — وإن كانت تجمع عليه كتب الرواة ، ويؤمن به ميور وغيره من مؤرخى الفرنجة — إن هو إلا قصة خيال ، أو قطعة من الأدب أو مختارة من المنثور !

أعُود فأقول إنكم ستصدِّقون أنسَ بن مالك فى روايته طبعاً ، لأنكم مهما

شككتم فى غيره فله من فقهه وورعهِ ، ومن علمه وزُهده ، حرمةٌ عندكم ومكانةٌ لديكم ، وإذن فلتستمعوا إلى روايته عن حادثة حال لعمر ، حادثة حال تجعلكم لا تكذّبون سابقتها ، لأنها من نسيجها وعلى غِرارها ، ولأنها صِنْوُها ونظيرتُها ، ولأنها فى طبيعتها ومعناها .

يقول أنس بن مالك : « بينا عمرُ يعسّ المدينة إذ مرّ برحبة من رحابها ، فإذا هو ببيت من شعر لم يكن بالأمس ، فدنا منه ، فسمع أنينَ امرأة ورأى رجلاً قاعداً ، فدنا منه فسلم عليه ، قال : من الرجل ؟ فقال: رجل من أهل البادية جئت إلى أميرالمؤمنين أُصيب من فضله ، فقال: ما هذا الصوت الذى أسمعه فى البيت ؛ قال : انطلق يَرْحَمْك الله لحاجتك قال : علىَّ ذاك ما هو ؟ قال : امرأة تُمَخض ؛ قال : هل عندها أحد ؟ قال : لا ، قال أنس : ثم انطلق عمرُ حتى أتى منزلَه فقال لامرأته أمِّ كُلثوم بنت على رضى الله عنهما : هل لك فى أجر ساقه الله إليك ؟ قالت : وما هو ؟ قال : امرأة عربية تمخّض وليس عندها أحد ، قالت : نعم إن شئت قال : فخذى معك ما يصلح المرأة لولادتها من الخِرَق والدُّهْن ، وجيئينى ببُرْمة وشحم وحبوب . قال : فجاءت به فقال لها : انطلقى وحمل البُرْمةَ ، ومشت خلفه حتى انتهى إلى البيت ، فقال لها : ادخلى إلى المرأة وجاء حتى قعد الى الرجل فقال له : أوقد لى ناراً ففعل ، فأوقد تحت البُرْمة حتى أنضجها وولدت المرأة ، فقالت امرأته : « يا أمير المؤمنين، بشر صاحبك بغلام » فما سمع الرجل يا أمير المؤمنين حتى كأنه هابه ، فجعل ينتحى عنه فقال له : مكانك كما أنت ! فحمل البرمةَ فوضعها على الباب ثم قال لأمّ كلثوم : أشبعيها ففعلت ، ثم أخرجت البرمةَ فوضعتها على الباب ، فقام عمر رضى الله عنهُ فأخذها فوضعها بين يدى الرجل فقال : كل ويحك ! فإنك قد سهرت من الليل . . ثم قال لامرأته : اخرجى وقال للرجل :

إذا كان غد فأتنا نأمر لك بما يصلحك ، ففعل الرجل فأجازه وأعطاه . . »

ستقولون إنه لم يكن فى تلك البلاد المجدبةِ من مستشفيات أو ملاجئ أو دور إسعاف ففروض على الحاكم إذن أن ينظر هو أو رجاله أو حاشيته فى أمر أمثال هؤلاء ممن يصيبهم العوَز وتنزل بساحتهم المَتْرَبة ، ولكننى مع تقديرى للمدنيات العالمية الحاضرة ، وإنها كانت للانسانيـة برداً وسلاماً ، ورغداً وإنعاماً ، أحب أن أهمس فى أذنك أن عُمَرَ بن الخطاب لم يَفُتْه تقدير ظروف الزمان والمكان ، وانه مع إغاثته للملهوف ، وأخذه بناصر الضعيف ، له أوليّات عدة ذكرها السيوطى نقلاً عن النووى والعسكرى وابن سعد ؛ وهى عشرات العشرات . . وأحب أن أقول لك منها هنا فى هذا المقام . . أنه أول من اتخذ دار الدقيق يعين به المنقطع !

ولعلكم تذكرون حكايتَه مع راعى غنم ، إذ مرّ به عمر فنظر إلى قلة الكلأ فى مَرْعاه ، وكان منذ لحظة قد مرّ على مرعى أُنُف حِسان ، فأشار على الرجل ليذهبن إليه لتصيب شاهُهُ سمنًا وريًا ، وأكلا هنيًا ، ثم قال له : « كل راع مسئول عن رعيته » وكفى بها للرجل مذكّرًا وواعظًا ونذيراً .

(٩)

وكان عمر ثاقبَ البصيرة ، بعيدَ مَرْمَى النظر ، مستشعراً بمسئوليته أمام الله ، وأمام الوطن ، وأمام عباد الله . بقدر ما كان عارفًا بأقدار الناس ، مُنْصفًا للناس ، حافظًا لحقوق الناس ، مُقَلِّمًا شَبَاةَ عُدْوان عظماء الناس ، مثقفًا للناس بتصرفه إزاء كُبرَاء الناس .

يقول المسعودى فى « مروج الذهب » فيما رواه عن عبد الله بن عباس : «إن عمر بن الخطاب أرسل اليه فقال : يا بنَ عباس، إن عامل حِمْص هلك ، وكان من أهل الخير ، وأهلُ الخير قليل ، وقد رجوتُ أن تكون منهم ، وفى نفسى منك

شيء لم أرِدْه منك وأعياني ذلك ، فما رأيك ؟ قال : أريده فإن كان شيء أخَافُه على نفسي خَشِيتُ منه عليها الذي خشيت ، وإن كنت بريئاً من مثله علمت أنى لست من أهله ، فقبلت عملك هنالك ، فانى كلما رأيتُ أو ظننتُ شيئاً إلا عاينتُه ، فقال : يا بن عباس ، انى خشيت أن يأتى علىّ الذى هو آت ، وأنت فى عملك فتقول : « هلمّ الينا ولا هلمّ اليكم دون غيركم . . ! انى رأيت رسول الله صلى الله عليهِ وسلم استعمل الناس وتركـكم » قال ابن عباس : والله قد رأيت من ذلك ؛ فلمَ تراه فعل ؟ قال : والله ما أدرى ! أضنّ بكم عن العمل ، فأهل ذلك أنتم ، أم خشى أن تبايعوا بمنزلتكم منه ، فيقع العقاب ، ولا بدّ من عتاب ، فقد فرغتُ لك فما رأيك ؟ قال ابن عباس : أرانى لا أعمل لك . قال : ولِمَ ؟ قلت : وإن عملت لك وفى نفسك ما فيها لم أبرح قذى فى عينيك . قال : فأشرْ علىّ ، قلت : إنى أرى أن تستعمل صحيحاً منك صحيحاً لك ! » .

هذا موقفٌ له ما وراءه . وهذا موقف يتكلم وحده بألف لسان . وهذا موقف أنتم فاهمونه ومتدبرونه لا محالة ، ثم أنتم مقدرون تلك النتائج المروعة التى خلفتها سياسة من أتى بعد عمر فعمد إلى ولاية العهود الثنائية والثلاثية ، ثم أنتم مقدرون نتائج كل تَنَكُّب عن سننه بما أصاب عثمان وغير عثمان .

أجل ! هذا موقفٌ له ما وراءه . وهذا موقف قد تفسره لك مئاتُ المُثُل العليا التى ضَرَبَتْها للناس حياةُ عمر ، وتصرفاتُ عمر ، وخلافةُ عمر . وهـذا موقف يذكِّرنا بنظير له فى لُبِّه وجوهره ، وإن كان يختلف فى المَجْرَى والتيّار . .

أجل ! هذا موقفٌ له ما وراءه . ثم هو يذكرنا برغبة عمر فى تأديب الأشراف ومن فى طبقة الأشراف ، لأن ماضيهم فى الأنَفَة والكبرياء ، والعظمة والازورار مما يحتاج إلى تأديب عمر ، وحكمة تصرفات عمر ، فقد روى ابن الجوزى عن الحسن .

قال : « حضر بباب عمر سهيل بن عمرو بن الحارث بن هشام وأبو سفيان بن حرب في نفر من قريش من تلك الرءوس . وصُهَيْب و بلال وتلك الموالى الذين شهدوا بدراً . فخرج إذنُ عمر فأذِن للموالى وترك أولئك» فقال أبو سفيان : «لم أَرَ كاليوم قط ! يأذن لهؤلاء العبيد ويتركنا على بابه لا يلتفت الينا ! » فقال سُهَيل بن عمرو وكان رجلاً عاقلاً : « أيها القوم ! انى أرى فى وجوهكم إن كنتم غِضاباً فاغضبوا على أنفسكم ، دُعِىَ القوم ودُعيتُم فأسرعوا وأبطأتم ، فكيف بكم إذا دعوا على أنفسكم يوم القيامة وتركتم ! »

ولعلكم بعد هذا كله تستطيعون أن تبرِّروا سرّ نجاح عمر، وسرّ التفاف قلوب الرعية حوله .

(١٠)

ولكنكم ستطالبوننى بأشياء كثيرة لا قِبَلَ لى بإجابتكم اليها فى مثل هذا المقام ، فستطالبوننى بالكلام عن عدالة عمر فى الملكية العامة ومقارنتها بنظام رومانيا وغيرها وبالاشتراكية وغيرها ، وستطالبوننى بإصلاحاته وفتوحاته ، كما أنكم لا مَفرّ ستطالبوننى بالكلام عن زُهده ، والكلام عن عدله ، وتطالبوننى بالكلام عن نهيه عن التنطُّع فى كل شيء فى الدين ، وفى لَثْمِ الحجارة وفى رواية الأحاديث ، وفى المِشْيَة ، وفى خُيَلاء الشباب ، وطَراوة الإهاب ، ثم تطالبوننى بوفائه للعهد ، ووفاء أمته للعهد حتى اذا أعطاه عبد لدولة ، وتطالبوني بالكلام عن آثاره ومآثره ، وتطالبوننى بالكلام عن خطبه وكلامه ، وقضاته وولاته ، وصحابته ورفاقه . وتطالبوننى بالكلام عن حروبه مع الفرس والروم ، ومع غير الفرس والروم ، ولكننى أقول لكم إن نهمتكم فى الاطلاع لا تشبع ، فلنتفهم الآن سر نجاح عمر ، ودولة عمر ، وسياسة عمر ، وأسّ تعاليم عمر . ثم لنعقب ذلك بقطعة من أدب

العصر ونفسية العصر — نعنى بها رسالتى أبى بكر وعمر الى على بن أبى طالب — ففيها الغنية والنفع الجزيل .

أخرج الطبرى عن ابن عباس أن عمر قال لناس من قريش : « بلغنى أنكم تتخذون مجالس لا يجلس اثنان معاً حتى يقال : من صحابة فلان ! من جلساء فلان ! حتى تحُومِيَتْ المجالس . . . ! وايم اللهِ إن هذا لسريع فى دينكم ، سريع فى شَرَفكم ، سريع فى ذات بينكم ، ولكأنى بمن يأتى بعدكم يقول هذا رأى فلان ! وقد قسموا الاسلام أقساماً . أفيضوا مجالسكم بينكم ، وتجالسوا معاً ، فانه أدوم لألفتكم ، وأهيبُ لكم فى الناس . اللهم مَلُّونى وملتُهم ، وأحسُّوا منى ، ولا أدرى بأينا يكون الكون ، وقد أعلم أن لهم قبيلاً منهم فاقبضنى اليك »

آيات والله خالدة !

وعظات لأمم حية من أخرى بائدة !

وصوت من أعماق الأعماق يدعو الى الألفة لا الى التحزُّب ، والى الوحدة لا الى التفكك ! ولعلكم قد قرأتم ما كان من عمر والهرمزان حينما قال له : «يا عمر إنا وإياكم فى الجاهلية ، كان الله قد خلّى بيننا وبينكم فغلبناكم ، اذ لم يكن معنا ومعكم ، فاما كان معكم غلبتمونا » فقال عمر : « انما غلبتمونا فى الجاهلية باجتماعكم وتفرُّقنا »

(١١)

رسالتا أبى بكر وعلىّ

ولننتقل الآن سراعاً الى دوحة الأدب لنستظل بأفنانها ، ولنستمتع بأغصانها :

قال أبو حيّان على بن محمد التَّوْحيدىّ البَغْدادىّ : سَمَرْنا ليلةً عند القاضى أبى حامد أحمد بن بِشْر المَرْوَرُوذىّ ببغداد ، فتصرف فى الحديث كلَّ متصرَّف : وكان غزير الرواية ، لطيف الدِّراية ، فجرى حديثُ السَّقيفة ، فركب كلٌّ مركباً ،

وقال قولاً ، وعرّض بشيء ، ونزَع الى فنّ . فقال : هل فيكم من يحفظ رسالة لأبي بكر الصديق[١] ، رضى الله عنه . الى على بن أبي طالب كرّم الله وجهه ، وجواب علىّ عنها ، ومبايعته إياه عَقِيب تلك المناظرة ؟ فقال الجماعة : لا والله ؛ فقال : هى والله من بنات الحقائق ، ومخبّآت الصنادق ، ومنذ حفِظتُها ما رويتها إلا لأبي محمد المهلَبىّ فى وزارته ، فكتبها عنّى بيده . وقال : لا أعرف رسالة أعقل منها ولا أَبْيَن ؛ وإنها لتدلّ على علم وحلم ، وفصاحة ونباهة ، وبُعد غور ، وشدّة غوص . فقال له العبّادانىّ[٢] : أيها القاضى ، فلو أتممتَ المِنّة علينا بروايتها

(١) هو أبو بكر عبد الله بن أبى قحافة عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرّة صاحب رسول الله وأول خليفة له فى الاسلام وخطيب يوم السقيفة .

ويجتمع نسبه مع نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مرة بن كعب . ولد بعد مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم بسنتين وبضعة أشهر . ونشأ من أكرم قريش خلقاً ، وأرجحهم حلماً ، وأسماهم يداً ، وأشدهم عفة . وكان أعلمهم بالأنساب وأيام العرب ومفاخرها .

صحب رسول الله قبل النبوة . وكان أول من آمن به من الرجال وصدقه فى كل ما جاء به ، ولذلك سمى الصديق ، وأنفق أمواله فى تأييد دعوته وهاجر معه الى المدينة مؤثراً صحبته على كل أهله وولده ، وشهد معه أكثر الغزوات . وما زال ينفق ماله وقوته فى معاضدة رسول الله حتى انتقل صلى الله عليه وسلم الى الرفيق الأعلى . واختلفت العرب ، وارتدت عن الاسلام ، ومنعت الزكاة إلا أهل المدينة ومكة وثقيف بالطائف فجرّد عليهم الجيوش حتى قمعهم ، وجمع العرب على الاسلام ، وساقهم تواً الى فتح ممالك كسرى وقيصر . وما مات إلا وجيوشه تهزم جيوش الفرس والروم وتستولى على مدائنهم وحصونهم . وكان رحمه الله فصيحاً بليغاً ، خطيباً مفوّهاً ، حاضر البديهة ، قوى الحجة ، شديد التأثير ، شهد بذلك خطبته يوم السقيفة ، وذلك أنه لما مات رسول الله اختلفت الصحابة فيمن يبايعونه خليفة له عليهم ، فأبت الأنصار إلا أن يكون الخليفة منهم وأبى المهاجرون من قريش إلا أن يكون منهم . واشتد النزاع حتى كادت تقع الفتنة فخطبهم خطبه لم يلبث الجميع بعدها أن بايعوه خليفة . وكانت وفاته سنة ١٣ هـ ومدة خلافته سنتين وثلاثة أشهر وعشر ليال .

(٢) العبادانى . نسبة الى عبادان ، وعبادان ، موضع منسوب الى عباد بن حصين الحبطى لأنه أول من رابط به فنسب اليه بزيادة الألف والنون على طريقة أهل البصرة ونواحيها فى النسبه ، فانهم اذا سموا موضعاً ونسبوه الى رجل أو صفة يزيدون فى آخره ألفاً ونوناً ، كقولهم فى قرية عندهم منسوبة الى زياد بن أبيه : زيادان ، وأخرى الى عبد الله : عبد اليان ، وأخرى الى بلال بن أبى بردة : بلالان . وعبادان هذه تحت البصرة قرب البحر الملح ، فان دجلة اذا قاربت البحر انفرقت فرقتين عند قرية تسمى المحرزى ، ففرقة يركب فيها الى ناحية البحرين نحو بر العرب وهى اليمنى ، فاما اليسرى فيركب فيها الى سيراف وجنابة فارس فهى مثلثة الشكل وعبادان فى هذه الجزيرة التى بين النهرين ، وهى موضع ردىء سبخ لا خير فيه ، وماؤه ملح ، وفيه مشهد لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه . اهـ (ملخصاً من ياقوت ج ٣ ص ٥٩٨ طبع جوتنجن)

أَسْمِعْناها ، فنحن أوعى لك من المهلّبيّ ، وأوجبُ ذِماماً عليك ؛ فاندفع وقال : حدّثنا الخزاعيّ بمكة عن أبي مَيْسرة ، قال حدثنا محمد بن فُليح[١] عن عيسى بن دَأْب[٢] أبو النفاح[٣] قال سمعت مولاى أبا عُبَيدة يقول : لما استقامت الخلافة لأبي بكر رضى الله عنه بين المهاجرين والأنصار ، بعد فتنة كاد الشيطان بها . فدفع الله شرها ويسّر خيرها ، بلغ أبا بكر عن عليّ تلكُّؤ وشِماس[٤] ، وتهمُّم[٥] ونِفاس[٦] فكره أن يتمادى الحالُ فتبدوَ العورة ، وتشتعل الجمرة ، وتتفرقَ ذات البَيْن ؛ فدعاني بحضرته في خَلْوة ، وكان عنده عمر بن الخطّاب رضى الله عنه وحدَه فقال: يا أبا عُبيْدةَ ، ما أَيْمن نَاصِيتَك ، وأَبْيَن الخيرَ بين عينيك ، وطالما أعزّ الله بك الإسلام وأصلح شأنه على يديك . ولقد كنتَ من رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمكان المَحُوط ، والمحلّ المغبوط ؛ ولقد قال فيك في يوم مشهود : « لكل أمةٍ أمِينٌ وأمِينُ هذه الأمّة أبو عُبَيدة » ، ولم تزل للدين مُلْتجا ، وللمؤمنين مُرتَجى ، ولأهلك ركنا ، ولإخوانك رِدْءا . قد أردتُك لأمرٍ خَطَره مَخُوف ، وإصلاحه من أعظم المعروف ، ولئن لم يَنْدَمِلْ جرحُه بيسارك[٧] ورفقك ، ولم تجبَّ[٨] حَيّته بُرْقيتك ، وقع اليأس ، وأَعْضل البأس ؛ واُحتيج بعد ذلك الى ما هو أمرّ منه وأَعْلق ، وأَعْسر منه وأغلق ، والله أسأل تمامَه بك ، ونظامه على يديك . فَتَأَتَّ

(١) كذا في خلاصة تذهيب التهذيب للخزرجي . وفي صبح الأعشى (ج ١ ص ٢٣٧ طبع بولاق) ابن أبي فليح ولم نقف عليه في كتب التاريخ .

(٢) كذا في شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ٢ ص ٥٩٣ طبع مطبعة الحلبي) والمشتبه في أسماء الرجال للذهبي وتاج العروس مادة (د أ ب) وفي صبح الأعشى « ابن دوأب » ولم نقف عليه في كتب التاريخ أيضاً .

(٣) كذا وردت هذه الكنية في محاضرة الأبرار لابن العربي (طبع مطبعة السعادة) ونص على أن أبا النفاح مولى أبي عبيدة بالنون والفاء . وفي صبح الأعشى « ابن المناح » ولم نقف عليه في كتب التاريخ .

(٤) الشماس : المعادة والمعاندة (٥) تهمم الشيء : طلبه وتحسسه (٦) نافس في الشيء منافسة : رغب فيه على وجه المباراة والمفاخرة (٧) كذا في صبح الأعشى ونهاية الأرب للنويرى (ج٧ص٢١٦) طبع دار الكتب وفي محاضرة الأبرار (ج ٢ ص ١١١) : بمسبارك . والمسبار : فتيل يدخل في الجرح ليعرف كم عمقه ؛ يقال : سبرت الجرح اذا اختبرته بالمسبار (٨) تجبّ : تقطع

له(١) أبا عُبَيدة وتلطَّفْ فيه، وأنصحْ لله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم، ولهذه العِصابة غيرَ آلٍ جَهْدا، ولا قالٍ حمْداً، والله كالئك وناصرُك. وهاديك ومبصِّرُك، إن شاء الله. امضِ الى عليّ واخْفِضْ له جناحَك. واُغضُضْ عنده صوتَك، واعلم أنه سُلالة أبي طالب، ومكانُه ممّن فقدْناه بالأمس — صلى الله عليه وسلم — مكانُه. وقل له: البَحْر مَغْرَقة، والبرّ مَفْرَقة، والجوّ أكْلف(٢)، والليل أغْدف(٣)، والسماء جَلْواء(٤)، والأرض صَلْعاء(٥). والصعود متعذّر والهبوط متعسر، والحقّ عَطُوف رَءوف، والباطل عَنُوف عَسُوف، والعُجْب قَدّاحةُ(٦) الشرّ، والضِّغْن رائدُ البَوَار، والتعريض شِجَار(٧) الفِتْنة. والقِحَة ثَقوب(٨) العداوة، وهذا الشيطانُ متكئ على شماله، متحيِّلٌ بيمينه، نافِخٌ حِضْنَيه(٩) لأهله ينتظر الشَّتَات والفُرْقة، ويَدِبّ بين الأمة بالشَّحْناء والعداوة، عناداً لله عز وجل أوّلاً، ولآدمَ ثانياً، ولنبيه — صلى الله عليه وسلم — ودِينهِ ثالثا. يُوَسْوِس بالفُجُور، ويدلى بالغرور، ويمنِّى أهلَ الشرور. يُوحِى الى أوليائه زُخْرُفَ القول غرُوراً بالباطل، دَأْبًا له مُنْذُ كان على عهد أبينا آدم صلى الله عليه وسلم، وعادةً له منذُ أهانه الله تعالى فى سالف الدهر، لا مَنْجَى منه إلا بعضِّ الناجذ على الحق وغَضِّ الطَّرْف عن الباطل، ووَطْء هَامَةِ عدوّ الله بالأشدّ فالأشد، والآكد فالآكد، وإسلام النفس لله عز وجل فى ابتغاء رضاه، ولا بدّ الآن من قول ينفع إذا ضرّ السكوت وخِيفَ غِبُّه؛ ولقد أرشدك منْ أفاء(١٠) ضالّتَك، وصافاك

(١) تأتى فلان للأمر: تهيأ له وأتاه من وجهه (٢) الجو أكلف: أسود تعلوه حمرة
(٣) الليل أغدف: مرخ سدوله مظلم كنى بهذا عن اشتباه الأمور وخفاء طرق الهداية
(٤) السماء جلواء: مصحية (٥) الأرض صلعاء: خاليه لا شجر فيها (٦) القدّاحة بتشديد الدال: حجر الزند (٧) كذا فى صبح الأعشى. وفى نهاية الأرب «سجال» جمع سجل بفتح أوله وسكون ثانيه وهو الدلو العظيمة (٨) الثقوب بفتح الثاء: ما تشعل به النار من دقاق العيدان
(٩) نافخ حضنيه: أى مستعد لأن يعمل عمله من الشر (١٠) أفاء: أرجع

من أَحْيا مودّته بعتَابك ، وأراد لك الخيرَ مَنْ آثر البقاء معك ؛ ما هذا الذى تُسَوِّل لك نفسُكَ ، ويَدْوَى[١] به قلبُك ، ويلتوى عليـه رأيك ، ويتخاوصُ[٢] دونه طَرْفك ، ويَسْرى فيه ظَعْنك ، وَيتراَدُّ معه نَفَسُك ، وتكثر عنده صُعَدَاؤك ، ولا يَفيضُ به لسانُك . أَعُجمةٌ بعد إفصاح ! أتلبيس بعد إيضاح ! أدينٌ غيرُ دين الله ! أخُلُق غيرُ خلق القرآن ! أهَدْى غيرُ هَدْى النبى صلى الله عليه وسلم ! أمثلى « تَمْشِى له الضَّرَاءَ[٣] وتَدِبُّ له الخمَرَ ! » أم مثلُك يَنقَبِض عليه الفضاء ، ويُكْسَفَ[٤] فى عينه القمر ! ما هذه القَعْقعة[٥] بالشِّنَان[٦] ! وما هذه الوعوعة باللسان! إنك والله جِدُّ عارفٍ باستجابتنا لله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، وبخروجنا عن أوطاننا وأموالنا وأولادنا وأحبّتنا ، هجرةً الى الله عز وجل ، ونصرةً لدينه فى زمان أنت فيه فى كِنِّ الصِّبا . وخِدْرِ الغَرَارة ، وعُنْفُوان الشَّبيبة ، غافلٌ عما يُشِيب ويَرِيب ، لا تَعِى ما يُرَاد ويُشَاد ، ولا تحصِّل ما يُسَاق ويُقَاد ، سوى ما أنت جارٍ عليه الى غايتك التى اليها عُدِل بك ، وعندها حُطّ رَحْلُك ، غيرَ مجهول القدر ولا مجحود الفضل ؛ ونحن فى أثناء ذلك نُعانِى أحوالاً تُزِيل الرَّوَاسى ونُقَاسِى أهوالاً تشيب النَّوَاصى . خائضين غِمَارَها ، راكبين تَيَّارَها ، نتجرّع صابها ، ونَشْرَج[٧] عيابها ، ونُحكِم آساسَها ، ونبرِم أَمْرَاسَها[٨] ، والعيون تحْدِج .

(١) يدوى : من الدوى بفتح الواو ، وهو داء باطن فى الصدر (٢) التخاوص : غض البصر مع تحديق كمن يقوم سهماً (٣) قال فى اللسان مادة ضراء : يقال للرجل اذا اختل صاحبه ومكر به : هو يدب له الضراء ، ويمشى له الخمر ، ويقال لا أمشى له الضراء ولا الخمر ، أى أجاهر ، ولا أخاتله ، والضراء والاستخفاء ، ثم قال بعد ذلك نقلا عن ابن شميل : ما واراك من شىء وادرأت به فهو خمر

(٤) نقل عن ثعلب أن الأجود أن يقال : كسفت الشمس ، وخسف القمر أنظر اللسان والصحاح مادة (خسف) (٥) قال فى اللسان مادة قعع . وفى المثل لا يقعقع له بالشنان أى لا يخدع ولا يروع وأصله من تحريك الجلد اليابس للبعير ليفزع (٦) الشنان جمع شن وهو القربة الخلق الصغيرة .

(٧) نشرج عيابها : ننضدها ونضم بعضها الى بعض . والعياب : جمع عيبة ، وهى زنبيل من أدم تجعل فيه الثياب (٨) جمع مرس ككتف وهو الحبل

بالحسد ، والأنوف تَعْطِس بالكبر ، والصدور تَسْتَعر بالغيْظ ، والأعناق تتطاول بالفخر ، والشِّفَار تُشْحَذ بالمكر ، والأرض تميد بالخوف ؛ لا ننتظر عند المساء صباحاً ، ولا عند الصباح مساء ، ولا ندفع فى نَحْر أمر إلا بعد أن نحْسُوَ الموتَ دونه ، ولا نبلغ مُراداً إلا بعد الإياس من الحياة عنده ؛ فَادِين فى جميع ذلك رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بالأب والأمّ ، والخال والعم ، والمال والنَّشَب ، والسَّبَد(١) واللَّبد ، والهَلَّة(٢) والبلَّة ، بطيب أنْفُس ، وقُرَّة أعيُن ، ورَحْب أعطَان ، وثباتِ عزائم ، وصحةِ عقول ، وطَلاقة أوْجه ، وذَلاقة ألْسُن ؛ هذا مع خَفيَّات أسرار ، ومَكْنونات أخبار ، كنتَ عنها غافلاً ، ولولا سِنُّك لم تكن عن شىء منها ناكِلاً ، كيف وفؤادُك مَشْهوم(٣) ، وعُودُك معجُوم ! . والآن قد بلغ اللهُ بك وأنهض الخيرَ لك ، وجعل مرادك بين يديك ، وعن علم أقول ما تسمع ؛ فارتقبْ زمانك ، وقلِّص(٤) أرْدانَك ، ودَعِ التقعُّس(٥) والتجسُّس لمن لا يَظلَعُ لك اذا خطا ، ولا يتزحزح عنك اذا عطَا(٦) ؛ فالأمر غَضّ ، والنفوسُ فيها مَضّ(٧) ، وإنك أديمُ هذه الأمة فلا تَحلَم(٨) لجاَجاَ ، وسيفُها العَضْب ، فلا تَنْبُ أعوجاجا ، وماؤها العَذْب فلا تَحلُ أجاَجاَ . والله لقد سألتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذا الأمر . فقال لى : « يا أبا بكر هو لمن يرغب عنه لا لمن يُجاحِشُ(٩) عليه ، ولمن يتضاءل عنه لا لمن يتنفَّجُ(١٠) اليه ، هو لمن يقال هو لك لا لمنْ يقول هو لى » .

---

(١) السبد : الشعر . واللبد : الصوف (٢) يقال : جاءنا فلان فلم يأتنا بهلة ولا بلة ، أى لم يأتنا بشىء ، فالهلة من الفرح والاستهلال . والبلة من النائل والخير (٣) مشهوم (بالشين المعجمة) : ذكى الفؤاد متوقد (٤) التقليص : التشمير (٥) التقعس : التأخر كالتقاعس (٦) عطا : مدّ اليك عنقه وأقبل نحوك (٧) المض : الألم والحزن . (٨) حلم الجلد : وقع فيه الحلم بفتح اللام : وهو دود يقع فى الجلد فيأكله ، فاذا دبغ وهى موضع الأكل منه ، يريد أنه الذى يجتمع به شمل الأمة وتصان به أمورها ، فاذا فسد تفرق ما كان مجتمعاً منها كالأديم الذى يصان به سائر البدن (٩) يجاحش عليه : يطلبه ويدافع عنه (١٠) الانتفاج : الارتفاع ، أو هو مستعارها من قولهم ، انتفجت الأرنب إذا وثبت ، ومعنى العبارة يستقيم على كلا التفسيرين

ولقد شاورنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الصِّهْر ، فذكر فتياناً من قريش فقلت : أين أنت من علىّ ! فقال صلى الله عليه وسلم : إنى أكره لفاطمة مَيْعة شبابه ، وحَدَاثة سنه . فقلت له : متى كَنَفْتَه يدُك ، ورَعتْه عينُك ، حَفَّت بهما البركة ، وأُسْبغت عليهما النعمة ؛ مع كلام كثير خاطبتُه به رغبةً فيك ، وما كنت عرفت منك فى ذلك لا حَوْجَاء[1] ولا لَوْجاء ، فقلتُ ما قلتُ وأنا أرى مكانَ غيرك ، وأجد رائحةَ سِواك ؛ وكنتُ إذ ذاك خيراً لك منك الآن لى . ولئن كان عرّض بك رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذا الأمر ، فلم يكن مُعرِضاً عن غيرك : وإن كان قال فيك فما سكت عن سِواك ؛ وإن تلجْلَج فى نفسك شىء فهَلُمَّ ، فالحكم مرضىّ ، والصواب مسموع ؛ والحقّ مُطَاع . ولقد نُقِل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم الى الله عز وجل ، وهو عن هذه العِصابة راض ، وعليها حَذِر ، يسرُّه ما سرّها ، ويسوءه ما ساءها ، ويكيده ما كادها ، ويُرْضيه ما أرضاها ، ويُسْخِطه ما أسخطها . أما تعلم أنه لم يَدَعْ أحداً من أصحابه وأقاربه وسُجَرائه[2] ، إلا أبانه بفضيلة ، وخصّه بمزية ، وأفرده بحالة ! أتظن أنه صلى الله عليه وسلم ترك الأمة سُدًى بَدَدا ، عبَاهِلَ[3] مباهل ، طَلَاحَى[4] مفتونةً بالباطل ، مغبونة[5] عن الحق ، لا رائد ولا ذائد ، ولا ضابط ولا حائط ، ولا ساقىَ ولا واقى ، ولا هادىَ ولا حادى ! كلا ! والله ما اشتاق الى ربه تعالى ولا سأله المَصِير الى رضوانه وقُربه ، إلا بعد أن ضرَب المَدَى[6] وأوضح الهدى ، وأبان الصُّوَى[7] ، وأمّن المسالك

(١) أى ما كنت عرفت منك شيئاً . (٢) سجرائه : أصدقائه (٣) العباهل من الابل : المهملة ، والمباهل بمعناه ، استعار ذلك للذين تمرقت كلمتهم وتشتت شملهم .

(٤) الطلاحى : الابل التى تشتكى بطونها من أكل الطاح ، أراد به هنا للقوم الذين لا راعى لهم يصدهم عما يضرهم ، ولا قانون يمنعهم عن أن يردوا موارد تسوءهم ، فهم يتبعون ما تقودهم اليه الشهوة كالابل التى تأكل من الطلح الذى يؤذيها حتى تشتكى بطونها (٥) كذا فى صبح الأعشى . وفى نهاية الأرب « معتوتة » من عتت الفرس أى جسته بالعنان (٦) ضرب المدى ، بريد بين الغاية

(٧) الصوى بضم الصاد المهملة : حجارة مركومة فى الطريق تجعل أعلاما

والمطارح ، وسهّل المبارك والمَهايع[1] ، وإلا بعد أن شَدَخَ يافوخَ[2] الشرك بإذن الله ، وشَرَم وجهَ النفاق لوجه الله سبحانه ، وجَدَع أنفَ الفتنة فى ذات الله ، وتفَل فى عين الشيطان بعون الله ، وصَدَع بملء فيه ويده بأمر الله عز وجل .

وبعد ، فهؤلاء المهاجرون والأنصار عندك ومعك فى بقعة واحدة ودار جامعة ، إن استقالونى لك وأشاروا عندى بك ، فأنا واضع يدى فى يدك ، وصائر الى رأيهم فيك . وإن تكن الأخرى فادخل فيما دخل فيه المسلمون ، وكُن العونَ على مَصَالِحِهم ، والفاتِحَ لمغالقهم[3] ، والمرشدَ لضالّتهم ، والرادعَ لغَوَايتهم . فقد أمر الله تعالى بالتعاوُن على البرّ والتقوى ، والتناصُر على الحق . ودَعْنا نقضِى هذه الحياة الدنيا بصدور بريئة من الغِلّ ، ونلقَى الله تعالى بقلوب سليمة من الضِّغْن .

وبعد فالناس ثُمامةٌ[4] فارفُقْ بهم واُحنُ عليهم ولِنْ لهم ، ولا تُشْقِ نفسَك بنا خاصة فيهم ، واُترك ناجمَ الحقد حصيداً ، وطائر الشرّ واقعاً ، وبابَ الفتنة مُغْلَقًا ، فلا قال ولا قيل ولا لوم ولا تَبيع ، والله على ما نقول شهيد ، وبما نحن عليه بصير .

قال أبو عُبَيدة : فلما تأهَّبْتُ للنهوض ، قال عمر رضى الله عنه : كُنْ لَدى الباب هُنيهةً فلى معك دورٌ من القول ؛ فوقفتُ وما أدرى ما كان بعدى ، إلا أنه لِحقنى بوجه يَنْدَى تهلّلاً ، وقال لى : قل لعلىّ : الرقادُ مَحْلَمة ، والهوى مَقْحَمة ، وما منّا إلا له مقامٌ معلوم ، وحق مشاعٌ أو مقسوم ، ونبأ ظاهر أو مكتوم ؛ وإن أكيَس الكَيْس من منَح الشاردَ تألفاً ، وقارَبَ البعيدَ تلطُّفاً ، ووَزَن كلَّ شىء بميزانه ،

(١) المهايع : الطرق (٢) اليافوخ (يهمز ولا يهمز) : جزء الرأس الذى يتحرك فى الطفل
(٣) المغالق : جمع مغلق بكسر الميم ، والمغلق : ما يغلق به الباب كالمغلاق كما فى شرح القاموس مادة (غلق) نقلا عن الراغب (٤) الثمامة بضم الثاء : واحدة الثمام ، وهو نبت ضعيف له خوص ، وربما حشى به وسدّ به خصاص البيوت ويشبه به فى الضعف

ولم يخلطْ خبرَه بعِيانه ، ولم يجعل فِترَه مكان شِبْره ، دِيناً كان أو دُنيا ، ضلالاً كان أو هُدى . ولا خير فى علم مستَعمَلٍ فى جهل ، ولا خير فى معرفة مَشُوبةٍ بنُكْر . ولسنا كجلدة رُفْغ[1] البعير بين العِجَان والذنب . وكل صَالٍ فبناره ، وكل سيلٍ فإلى قَرَاره . وما كان سكوت هذه العصابة إلى هـذه الغاية لَعِيّ وشِيّ[2] ، ولا كلامُها اليوم لفَرَقٍ أَو رِفْق . وقد جدع الله بمحمد صلى الله عليه وسلم أنفَ كل ذى كِبر ، وقَصَم ظهرَ كل جبّار ، وقطع لسان كل كَذُوب ، فماذا بَعْدَ الحقّ إلا الضلال . ما هذه الخُنْزُوَانة[3] التى فى فَرَاش[4] رأسك ! ما هذا الشَّجَا المعترض فى مَدَارج أَنفاسك ! ما هذه القَذَاة التى تَغَشَّت ناظرَك ! وما هذه الوَحَرَةُ[5] التى أكلت شَرَاسِيفكَ ! وما هذا الذى لبستَ بسببه جلدَ النَّمِر ، واُشتملتَ عليه بالشَّحْناء والنُّكر ! ولَسْنا فى كِسْرويّة كِسْرى ، ولا فى قيصرية قيصر ! تأملْ لإخوان فارس وأبناء الأصفر ! قد جعلهم الله جَزَراً لسيوفنا ، ودريئةً لرماحنا ، ومرمًى لطعاننا ، وتبعاً لسلطاننا ؛ بل نحن فى نور نبوّة ، وضياء رسالة ، وثمرة حكمة ، وأَثَرَة رحمة ! وعُنوان نِعمة ، وظلّ عِصْمة ، بين أمّة مهديّة بالحق والصدق ، مأمونةٍ على الرَّتْق والفَتْق ، لها من الله قلبٌ أبِيّ ، وساعدٌ قويّ ، ويدٌ ناصرةٌ ، وعينٌ باصرة . أتظن ظنًّا يا علىّ أن أبا بكر وَثَب على هذا الأمر مُفْتاتاً على الأمة خادعاً لها أو متسلّطاً عليها ! أتُراهُ حلّ عقودها وأحال عقولَها ! أتُراهُ جعل نهارها ليلاً ، وَوَزْنَها كيلاً ، وَيَقَظَتَها رُقاداً ، وصلاحَها فساداً !

(١) الرفغ : أصل الفخذ من باطن . والعجان : الاست : يريد أن منزلتهم بين الأحياء والعشائر ليست حقيرة مهينة (٢) الشىّ بكسر الشين : إتباع للعىّ (٣) الخنزوانة : الكبر (٤) فراش الرأس : عظام دقاقها يلى القحف (٥) الوحرة : ضرب من العظاء وهى صغيرة حمراء فى الجبابين لها ذنب دقيق تصصع به اذا عدت وهى أخبث العظاء لا تطأ طعاما ولا شرابا إلا سمته ولا يأكله أحد إلا دغى بطنه ، وربما هلك ، شبه العداوة والغل بها . قال فى اللسان مادة (وحر) : الوحر غش الصدر وبلابله ويقال : إن أصل هذا من الدويبة يقال لها الوحرة ، ثم قال : شبهوا العداوة ولزوقها بالصدر بالتراق الوحرة بالأرض ..

لا والله ! سَلَا عنها فوَلِهَتْ له ، وتطَامَن لها فلَصِقت به ، ومال عنها فمالت إليه ، واشمأزَّ دونها فاشتملتْ عليه ، حَبْوةٌ حَبَاه الله بها ، وعاقبةٌ بلّغه الله اليها ، ونعمةٌ سَرْبَله جمالَها ، ويدٌ أوجب الله عليه شكرَها ، وأمّةٌ نظر الله به إليها ، والله أعلم بخلقه ، وأرأف بعباده ، يختار ما كان لهم الخِيرَةُ . وإنك بحيث لا يُجْهَل موضعُك من بيتِ النبوّة ، ومَعْدِنِ الرسالة ، ولا يُجْحَد حقُّك فيما آتاك الله، ولكن لك مَنْ يزاحمك بِمَنْكبٍ أضخَم من منكبك ، وقُرْبٍ أمسَّ من قرابتك ، وسنّ أعلى من سنّك ، وشَيبةٍ أروعَ من شيبتك ، وسيادةٍ لها أصلٌ فى الجاهلية ، وفرعٌ فى الاسلام ، ومواقفَ ليس لك فيها جملٌ ولا نافة ، ولا تُذْكَر منها فى مقدّمة ولا سَاقَة ، ولا تَضْرِب فيها بذراع ولا إصبع ، ولا تخرُج منها ببازلٍ[1] ولا هُبَع . ولم يزل أبو بكر حبَّة قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم وعِلاقة نفسه ، وعَيْبة سِرّه ، ومَفْزَع رأيه ومشورته ، وراحة كَفّه ، وَمَرْمَق طَرْفِه . وذلك كله بمَحْضَر الصادر والوارد من المهاجرين والأنصار ، شهرتُه مغنيةٌ عن الدليل عليه ، ولعمرى إنك أقربُ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قرابةً ، ولكنه أقربُ منك قربةً[2] والقرابةُ لحم ودم ، والقُرْبة نفس ورُوح . وهذا فرق عَرَفه المؤمنون ، ولذلك صاروا إليه أجمعون . ومهما شككتَ فى ذلك ، فلا تشكّ أن يَدَ الله مع الجماعة ، ورضوانه لأهل الطاعة . فادخُل فيما هو خيرٌ لك اليوم وأنفعُ لك غداً . والفِظْ مِنْ فيك ما يَعْلَق بلهَاتك ، وانفُثْ سَخِيمةَ صدرك عن تُقَاتك ، فإن يكُ فى الأمد طولٌ وفى الأجل فُسْحَةٌ ، فستأكله مريئاً أو غيرَ مرىء ، وستشربه هنيئاً أو غير هنىء حين لا رَادَّ لقولك إلا من كان آيساً منك ، ولا تابعَ لك إلا من كان طامعاً فيك ، يَمُضّ[3] إهابَك ، ويَعْرُك[4] أديمَك ، ويُزْرِى على هَدْيك . هنالك تقرَع السنَّ

(١) البازل : الجمل القوىّ الذى دخل فى سنته التاسعة . والهبع : الفصيل الذى ينتج فى الصيف فيكون ضعيفاً (٢) القربة : الوسيلة (٣) يمض إهابك : يحرق جلدك (٤) يعرك : يدلك

من ندم، وتَجْرع الماء ممزوجاً بدم، وحينئذٍ تأسَى على ما مضى من عمرك ودارج قوّتك، فتودّ أن لو سُقِيتَ بالكأس التى أبيتَها، ورُدِدتَ إلى حالتك التى استغويتَها. ولله تعالى فينا وفيك أمرٌ هو بالغهُ، وغيبٌ هو شاهدهُ، وعاقبةٌ هو المرجوّ لسَرّائها وضَرّائها، وهو الولىُّ الحميد، الغفورُ الودود.

قال أبو عُبَيدة: فتمشّيت متزمِّلًا[1] أنوء كأنما أخطو على رأسى فَرَقاً من الفُرْقة، وشَفَقاً على الأمّة، حتى وصلتُ الى علىّ[2] رضى الله عنه فى خَلَاء، فابتثثتُه[3] بَثّى كلَّه، وبَرِئتُ إليه منه، ورَفقْت به. فلما سمعها ووعاها، وسَرَت فى مفاصِله حُمَيّاها، قال: «حلَّتْ مُعْلَوِّطَة[4]، وَوَلَّتْ مُخْرَوِّطَة[5]». وأنشأ يقول:

إحدى لياليكِ فهِيسِى[6] هِيسِى لا تَنْعَمِى الليلةَ بالتَّعريس

نعمْ يا أبا عُبيدة، أكلُّ هذا فى أنفس القوم، ويُحِسّون به ويَضْطغِنون[7] علَىَّ! قال أبو عُبيدة: فقلت: لا جواب لك عندى، إنما أنا قاضٍ حقّ الدِّين

---

(١) المتزمل: المتلفف، يريد أنه خرج مستخفياً (٢) هو أمير المؤمنين أبو الحسن على بن أبى طالب وابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم. وزوج ابنته. ورابع الخلفاء الراشدين وإمام الخطباء من المسلمين ولد رحمه الله بعد مولد النبى صلى الله عليه وسلم باثنتين وثلاثين سنة. وهو أول من آمن من الصبيان وكان شجاعا لا يشق له غبار. أيداً جليداً. شهد الغزوات كلها مع النبى إلا غزوة تبوك. وأبلى فى نصر رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لم يبله أحد. ولما قتل عثمان بايعه الناس بالحجاز وامتنع عن بيعته معاوية وأهل الشام شيعة بنى أمية غضباً منهم لمقتل عثمان وقلة عنايته بالبحث عن القتلة على حسب اعتقادهم، فحدث من جراء ذلك الفتنة العظمى بين المسلمين وافتراقهم الى طائفتين فتحاربوا مدة من غير أن يستتب الأمر لعلى أو لمعاوية حتى قتل أحد الخوارج علياً غيلة بمسجد الكوفة. وكان كرم الله وجهه أفصح الناس بعد رسول الله. وأكثرهم علماً وزهداً وشدة فى الحق. وهو امام الخطباء من العرب على الاطلاق بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكانت وفاته سنة ٤٠ هـ ومدة خلافته خمس سنين إلا ثلاثة أشهر.

(٣) يقال: أبثثته السر، اذا أطلعته عليه (٤) المعلوّطة: من الاعلواط، وهو ركوب الرأس والتقحم على الأمور من غير روّية (٥) المخروّطة: السريعة (٦) هو مثل يضرب للرجل يأتى الأمر يحتاج فيــه الى الجد والاجتهاد. والهيس بفتح الهاء: السير مطلقاً (٧) أراد بالاضطباع هنا الانطواء والاشتمال، وقد استعاره من قولهم: اضطبع الشىء اذا جعله تحت ضبعيه، وهما عضداه، وفى شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد «يضطغنون» والاضطغان: الاشتمال أيضاً.

رِراتقٌ فتق المسلمين ، وسادٌّ ثُلمة الأمّة ، يعلم الله ذلك من جُلْجُلان(١) قلبى ، وقَرَارة نفسى .

فقال علىّ رضى الله عنه : والله ما كان قُعُودى فى كِنّ هذا البيت قصداً للخِلاف ، ولا إنكاراً للمعروف ، ولا زِرَايةً على مسلم ، بل لما قد وقَذَنِى(٢) به رسول الله صلى عليه وسلم من فِرَاقه ، وأودعنِى من الحزن لفَقْدِه . وذلك أننى لم أشهد بعده مَشْهداً إلا جدَّد علىَّ حزناً ، وذكّرنى شَجَناً . وإن الشوق إلى اللّحاق به كافٍ عن الطمع فى غيره . وقد عكفتُ على عهد الله أنظر فيه ، وأجمع ما تفرّق ، رجاء ثواب مُعَدٍّ لمن أخلص لله عمله ، وأسلم لعلمه ومَشِيئته ، وأمره ونهيه . على أنى ما علمت أن التظاهر علىّ واقع ، ولا عن الحق الذى سيق إلىَّ دافع . وإذْ قد أُفعِم الوادى بى ، وحُشِد النادى من أجلى ، فلا مرحباً بما ساء أحداً من المسلمين وسرّنى . وفى النفس كلامٌ لولا سابقُ عقد وسالف عهد ، لشَفَيْتُ غيظى بخِنْصَرى وبِنْصَرى ، وخُضْتُ لُجَّته بأَخْمَصِى ومَفْرِقى ، ولكننى مُلْجَمٌ إلى أن ألقَى الله ربى ، وعنده أَحْتسِب ما نزل بى . وإنِّى غادٍ الى جماعتكم ، فمبايعٌ صاحبَكم ، صابرٌ على ما ساءنى وسرّكم ، لِيَقْضِيَ الله أمراً كان مفعولاً .

قال أبو عُبَيدة : فعدت إلى أبى بكر رضى الله عنه فقَصَصْت عليه القولَ على غَرِّه(٣) ، ولم اختزل شيئاً من حُلْوه ومُرّه ، وبَكَرت غُدوةً إلى المسجد ، فلما كان صباحُ يومئذ وإذا علىّ مخترق الجماعةَ إلى أبى بكر رضى الله عنهما فبايعه ، وقال خيراً ، ووصف جميلا ، وجلس زَمِيتاً(٤) ، واستأذن للقيام فمضى وتبعه عمر مُكْرِماً له ، مستأثراً لما عنده .

---

(١) جلجلان القلب : سويداؤه (٢) وقذه : تركه عليلا . (٣) على غره : أى كما هو وكما قص علىَّ (٤) زميتا : حليما وقوراً .

فقال علىّ رضى الله عنه : ما قعدتُ عن صاحبكم كارهاً ، ولا أتيتُه فَرِقاً ، ولا أقول ما أقول تَعِلَّة . وإنّى لأعرف منتهى طَرْفى ، ومَحَطَّ قَدَمى ، وَمنْزَعَ قوسى ، وموقِعَ سهمى ؛ ولكن قد أَزَمْتُ على فأْسِى[1] ثِقةً بربّى فى الدنيا والآخرة.

فقال له عمر رضى الله عنه : كَفْكِفْ غَرْبَك ، واُستوقِفْ سِرْبَك ، وَدع العِصِىّ بِلحَائها ، والدِّلاءَ على رِشَائها ، فإنّا من خَلْفِها وورائها ، إن قَدَحْنا أَوْرَيْنا ، وإن مَتَحْنا أَرْوَيْنا ، وإن قَرَحْنا أَدمَيْنا ، ولقد سمعتُ أماثيلكَ التى لَغَّزْتَ[2] بها عن صدرٍ أَكِلٍ بالجَوَى ، ولو شئتُ لقلتُ على مقالتِك ما إن سمعته نَدِمتَ على ما قلتَ . وزعمتَ أنك قعدتَ فى كِنِّ بيتِك لما وَقَذك به رسول الله صلى الله عليه وسلم من فقدِه ، فهو وَقَذكَ ولم يَقِذْ غيركَ ! بل مصابُه أعظم وأعمّ من ذلك ، وإن من حق مُصابه ألاّ تَصْدع شَمْل الجماعة بفُرْقةٍ لا عصامَ لها ، ولا يؤمَن كيدُ الشيطان فى بقائها . هذه العرب حولنا ، والله لو تَداعتْ علينا فى صبح نهار لم نلتقِ فى مسائه . وزعمتَ أن الشوق إلى اللَّحاق به كافٍ عن الطمع فى غيره ! فمن علامة الشوق إليه نصرةُ دينه ، ومؤازرةُ أوليائه ومعاونتهم . وزعمتَ أنك عَكفتَ على عهد الله تجمع ما تفرّق منه ؛ فمن العكوف على عهد الله النصيحةُ لعبَاد الله ، والرأفةُ على خلق الله ، وبذل ما يَصْلُحون به ، ويَرْشُدون عليه ، وزعمتَ أنك لم تعلم أن التظاهر واقعٌ عليك ، وأىُّ حقّ لُطَّ[3] دونك ! . قد سمعتَ وعلمتَ ما قال الأنصار بالأمس سِرًّا وجهراً ، وتقلّبتَ عليه بطناً وظهراً ، فهل ذكرتْ أو أشارتْ بك ، أو وجدْتَ رضاهم عنك ؟ هل قال أحد منهم بلسانه إنك تصلُح لهذا الأمر ؟ أو أومأ بعينه أوْ هَمْهَم[4] فى نفسه ؟ أتظن أن الناس ضلُّوا من أجلك ،

(١) يقال : أزم الفرس على فأس اللجام اذا عضها وقبض عليها . وفأس اللجام : الحديدة المعترضة منه فى الحنك . يريد أنه ألجم نفسه ثقة الخ (٢) كذا ورد هذا الفعل بتشديد الغين فى أساس البلاغة
(٣) لطّ : جحد (٤) الهمهمة : الكلام الذى لا يصرح به

وعادوا كفّارا زهداً فيك ، وباعوا الله تحاملاً عليك ؟ . لا والله ! لقد جاءنى عَقِيل بن زيَاد الخَزْرَجى فى نَفَرٍ من أصحابه ومعهم شُرَحْبيل بن يعقوب الخَزْرَجىّ وقالوا : إن عليًّا ينتظر الإمامة ، ويزعمُ أنه أولى بها من غيره ، ويُنكر على من يَعْقِد الخلافة ؛ فأنكرتُ عليهم ، ورددتُ القولَ فى نحْرِهم حيث قالوا : إنه ينتظر الوَحْىَ ويتوكّف[1] مناجاةَ الملك ؛ فقلت : ذاك أمر طواه الله بعد نبيه محمد صلى الله عليه وسلم أكان الأمر معقوداً بأنْشُوطة[2] ، أو مشدوداً بأطراف لِيطَة[3] ؟ كلا ! والله لا عجماءَ بحمد الله إلا أفصَحَتْ ، ولا شوْكاء إلا وقد تفتّحتْ . ومن أعجب شأنك قولك : « ولولا سالف عهد وسابق عقد ، لشَفَيْتُ غَيظِى » وهل ترك الدين لأهله أن يَشْفُوا غيظَهم بيدٍ أو بلسان ؟ تلك جاهليةٌ ! وقد استأصل الله شأفتَها واُقتلع جُرثومتَها ، وهوّر[4] ليلَها ، وغوّر سيلَها ، وأبدل منهـا الرَّوحَ والريحان ، والهُدَى والبرهان . وزعمت أنك مُلْجَم ؛ ولعمرى إنّ من اتقى الله ، وآثر رِضاه ، وطلب ما عنده ، أمسك لسانَه وأطبق فاه ، وجعل سعيَه لما وراه .

فقال علىّ رضى الله عنه : مهلاً يا أبا حَفْص ، والله ما بذلتُ ما بذاتُ وأنا أريد نكثَه ، ولا أقررتُ ما أقررتُ وأنا أبتغى حِوَلاً عنه . وإنّ أخسر الناس صفقةً عند الله مَنْ آثر النِّفاق ، واحتضن الشِّقاق ، وفى الله سلوةٌ عن كل حادث ، وعليه التوكل فى جميع الحوادث ، ارجع يا أبا حفص الى مَجلسِك ناقِعَ القلب ، مبرودَ الغليل ، فسيحَ اللَّبان[5] ، فصيحَ اللسان ، فليس وراء ما سمعت وقلت إلا ما يشدّ الازر ، ويحطّ الوِزْرَ ، ويَضَع الإصْر ، ويجمع الألفة بمشيئة الله وحسن توفيقه .

قال أَبو عبيدة رضى الله عنه : فانصرف علىّ وعمر رضى الله عنهما . وهذا أصعب ما مرّ علىّ بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(١) يتوكف : ينتظر، ويقال : فلان يتوكف الأخبار ، نحو يستقطر الأخبار (٢) الأنشوطه : عقدة يسهل انحلالها اذا أخذت بأحد طرفيها انفتحت (٣) الليطة : قشرة القصبة التى تليط بها أى تلزق (٤) هوّر : أذهب (٥) اللبان : الصدر

أصحاب الشخصيات

ملاحظات

(١) اعتمد فى ترتيب هذا الفهرس على أوّل الاسم دون المبالاة بأل التعريف ، وبألفاظ : الأب والابن والأم والبنت فتنبه لذلك .

(٢) الرقم الأول يدل على رقم الصفحة ، والثانى يدل على السطر ، فمثلاً ٢٦ : ١٥ يدل على صفحة ٢٦ سطر ١٥

(٣) اذا تكرر الاسم فى الصفحة الواحدة فى عدة أسطر اكتفى بذكر أول سطر وقع فيه

أسماء الأعـــلام

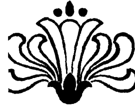
(أ)

(ب)

(تنبيه) عنى بوضع هذا الفهرس وترتيبه حضرة الأديب الفاضل محمد عبد الجواد الأصمعى أفندى بدار الكتب المصرية



أسماء الأماكن



أسماء الكتب

(مطبعة المعارف)   ١٩٣١/١/٣٠٠٠/١